الطبعة الثانية

العتمة

رواية

سلام عبد العزيز

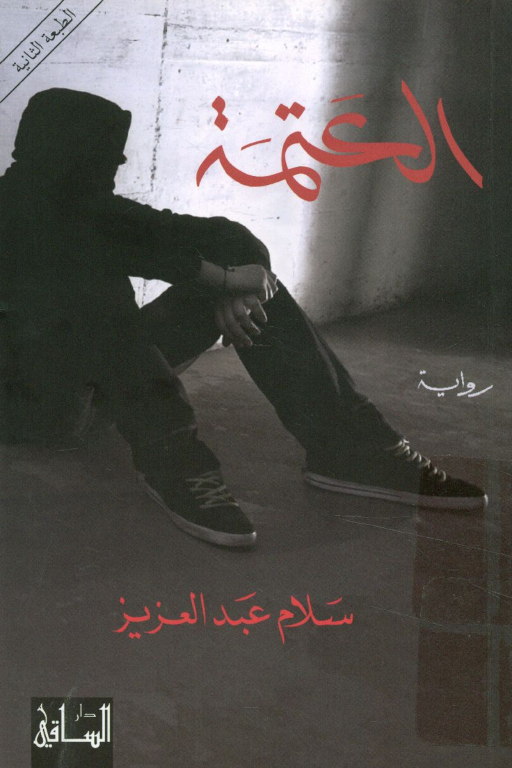

دار الساقي

العتمة

تصميم الغلاف: سحر مغنية

سلام عبد العزيز

العتمة

دار الساقي

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2009
الطبعة الثانية، 2013

ISBN 978-1-85516-338-6

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033–6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

المحتويات

رُفات الظلّ	٩
المُنعطف	٢٠
وخز	٢٤
ذو القلب الميت	٢٩
طوق	٣٥
ارتياب	٤٠
يرتجف ويتصبّب عرقاً	٤٤
ضنى الحواسّ	٤٨
الركن الملاصق للجدار	٥٣
إيقاع	٦٤
أم الدنيا	٦٨
لعب بنات	٧٢
سَدَنة نسج الحكايا	٧٦
بدايات	٨٢
روح	٨٨

عيون في الجدران	٩٢
في تمام الجنون	٩٤
الباب الموصد	٩٧
مسافة تقترب	١٠٣
مفاتيح	١٠٧
كان سيأتي	١١١
الباحث عن مرفأ	١٢٠
خائبة المسعى	١٢٥
حزن فريد	١٣١
وشوشة الغيب	١٣٧
الحوار الدّفين	١٤٤
النفق	١٥١
صهيل	١٥٩
كافور	١٦٥
ريح تهبّ	١٧٤
الثعلب والمتاهة	١٧٩
دواعيس	١٨٤
دلوعة	١٩١
ورطة الحُبّ	٢٠٥
الحبس	٢١١
رفيف	٢١٦
الفخّ	٢١٩

الوحيدة التي ٢٢٢
خفقة جناح ٢٢٩
قيد الأمل ٢٣٤
في الديرة ٢٣٧
الجرح ٢٤٧
الذكرى الدميمة ٢٥٢
سفينة النجاة ٢٥٧
دُمى الساحر ٢٦٤
جبروت أنثى ٢٧١
واكتمل القمر ٢٨١
امرأة الحلوى ٢٨٣
وجل الترائب ٢٨٧
جدران وحيدة ٢٩٧
وجد ويأس ٣٠٢
شُح الأيام البهيجة ٣١١
الرؤيا ٣١٥
حيٌّ على الظلام ٣٢٦

رُفات الظلّ

يرفع المسدّس... يُحرّك الزّناد... صوت الغرور الأرعن يهدر غاضباً ليصقل المرايا:

– ابتنقلع يا "السربوت" ولا أحطها في رأسك؟

– أبغى حمود قلّه يطلع لي.

– أنتَ ما يُفيد فيك غير الرصاص.

يتراجع بضع خطوات إلى الخلف، يُحرّك الزناد من جديد... وتنطلق الرصاصة. يشقّ صوتها صمت السلام في قلب حميدان، ثاني رصاصة تخترق قلبه الموعود بدويّ الرّصاص... "طشّ" معها دمه وهمى على الأرض... ليرتحل إلى الأفق البعيد، لم يعرف من ألق الحياة سوى رمادها... نافثاً في غموض الموت... أسئلة للحياة.

يدوّي الصوت... يترنّح الغزال... تَعبر أزقّة حارقة، آثار أقدام تُلهب الطريق لاهثةً تتلفّت إلى الخلف وهي تَجري طريدة، بَرارٍ موحشة، صباحات نديَّة، ورعشة قلب، مدائن تحتضن الغربة، باب يوصد بعنف، رِماحٌ، وفهدٌ جريح.

عواءءء...

تنبلج عيناه ويغيب سوادهما... يسقط... يسيل دمه في التراب... يهمد خواره العظيم... تنتفض أوردة ساقيه... تلتفّ، يسود السكون.

تتطاير أسئلة حميدان وأغانيه التي طالما ردّدها قبل أن يُغيّبه الجنون، ثم يجتثّه الموت. لم يمتلك في حياته شيئاً و لم يمتلكه شيء. حُرّ، مُحلّق على الدوام، ما إن يلمح الطّيور سابحة في بحر السماء، حتّى يرفع يديه كالأجنحة ويجري معها في الاتجاه ذاته، حيث تطير في سمائها الفسيحة. يطير هو... على الأرض، مَلاكٌ مُلطّخٌ بإنسانيّته وهارب من جحيمها، بينما تهتزّ الأرض اهتزازات خفيفة لا يُسجّلها مقياس ريختر وتئنّ وكأنّها مكتنزة بحمم توشك على الانفجار.

ما عادت أزقّة حيّ العشائر الذي شهد تهاويه، تضيق بعبثه في واجهات المحلّات وتكسيره لها للوصول إلى زجاجات البيرة وتخبئتها في جيوبه، ثمّ مُطاردة رجال الشرطة له وضربه، وأبناء الحيّ يتطفّلون ساخرين من عباراته الحانقة والمهدّدة لرجال الشرطة بينما الدماء تتقاطر من جبينه:

– ألعن أبوكم... تضربوني بالشواكيش يا عيال الكلب.

ثم يجري ككلب أجرب كُسرت إحدى ساقيه، وصمّم على مواصلة الهرب في أزقّة تأخذه لنهايات مسدودة تُعيده من حيث ابتدأ، جائعاً... شريداً، أو محصوراً يتبّول في عطفة يداري بها سَوءتَه ثمّ ينهض ويصافح المجهول.

قُتل حميدان.

ولا زالت أبواب السرّ الغامض الذي جرى لاهثاً طوال حياته لسبر أغواره موصدة. كفّ الآن عن الجري واللّهاث، وركدت أعماقه إلى

الأبد. وضع حواسّه ومشاعره في مُقدّمة أدواته للتعامل مع الحياة بقلب طفل، فكسره نقاوةه وشفافيّته وبقي ضميراً... لصدر نخرتْهُ السجائر والفجيعة، وبقايا جدار أمان استند عليه يوماً فباغته بانهيار سريع... وبقي حُطامه.

كانت الرّصاصة التي أنهت حياته جهلاً، في شارع خالٍ إلاّ من غرور العصبيّة، وشاهد صامت بلا ذاكرة. قطّة بيضاء ببقع رمادية مكتنزة البطن لمحت الحدث وتلاقت عيناها بعيني مطلقٍ في فزع مشترك، حين سمعت دويّ الرّصاص وحميدان يسقط ودماؤه تتبعه، أخذت تركض على غير هدى رغْمَ حملها الذي أثقل خطواتها.

القطّة تطوي الطرقات وكأن أحداً يطاردها، تقطع المسافات التّرابيّة، المسافات الأسفلتيّة، إشارات المرور... تتجاوز البيوت، المحلاّت التجارية... تجري... تجري... قلبها يدقّ بعنف وخطواتها المتسارعة تثير الرمال الناعمة خلفها بينما يهتزّ بطنها المكتنز مُخلّفاً ألماً يدقّ في خاصرتها.

تجري حتى أنهكها الإجهاد والعطش، فالجوّ شديد الحرارة والوقت عزّ الظهيرة. تقف وضربات قلبها تتسارع. تلهث ولسانها قد تدلّى. تقف أمام عمارة فارعة. باب العمارة مفتوح. تدخل الدور الأرضيّ باحثةً عن ظلّ. أبواب الشقق موصدة، ودرج يمتدّ إلى الأعلى.

تصعده بشكل مباغت كأنّها تذكّرت أنّ أحداً يطردها، وتنطلق إلى الدّور الثاني والثالث حتى تصل إلى الأخير حيث الباب المؤدّي لسطح العمارة المفتوح. تنطلق نحوه، تصفعها الشمس الحارقة من جديد، تلمح في انكسار نظرها بشعاع الشمس نافذةً تُطلّ على السطح

لإحدى غرف الدور الأخير يستند على زاوية مقدّمتها زرع أخضر، يبدو لأنفها الشديد الحساسيّة والالتقاط أنها أزهار فلّ وياسمين محاطة بأعشاب خضراء تحيط برواز النافذة. تقفز نحو الزرع لتحتمي بخضاره وبرودة المكان الترابي تحته... البرودة والمحيط المُنعش أخذ بشعرها بمقدار الإجهاد الذي يهصرها. تأخذ في الاسترخاء، تُحدّق في النافذة الزجاجية الشفّافة التي رفُعت ستارتها كي لا تُخفي منظر الأزهار.

تضع يديها الناعمتين في سلام خُرافيّ أسفل ذقنها وتتوسّدهما وبصرها يحاول التقاط الصّور في الداخل.

تبدو غرفة نوم واسعة. كوميدينو تقف عليه زجاجات عطر وفرشاة شعر وبودرة وكريم أطفال. سرير متوسّط الحجم تتمدّد عليه فتاة شابة وطفل صغير. القطّة تتأمّلهما... تغمض عينيها وتفتحهما بتكاسل... تنعس... تنعس...

* * *

– أنا أمـ... ـللل... أاااامـ... للل... أمـ... للللل.

يتردّد الاسم في فضاء هُلاميّ الشكل أشبه بحلوى "الجِلُو الشفّاف"، بينما تجول عيناها في عدم فهم فيما يُحيط بها وهي تسمع اسمها يتردّد بعد أن أجابت الصوت الذي سألها عنه.

تَسيرُ وريحٌ ذاهلةٌ تسكنها، تَغرسُ أنفاسها الحائرة في فضاء غريب. تلمح ضوءاً ساطعاً يتّجه بسرعة نحوها يشدّها كالمغنطيس فتدخل دون

إرادة في أتونه. تغوص في ضوء لا تتمكّن من شدّته من الرؤية.

تنظر أسفلها.

تُبصر جسراً ترابيّاً صلباً أسفله ماء أشبه بالبحر الشفّاف، تسير في جوفه في رحلة جماعية أسراب من الأسماك الملوّنة المُتباينة الأحجام. ترفع رأسها إلى الأعلى، تجد نفسها باتت داخل البحر والأسماك فوقها. تقف فجأة على حافة بوابة. يختلّ توازنها فتهوي في قاع أشبه بقاع بئر عميق.

تُدرك أنّ زمنها قد غادرها وباتت لا مُنتمية حين امتدت لها يد امرأة طاعنة لا تعرفها وكأنه من الطبيعي وجودها معها لتتمسّك بها. تصعد بها سلالم حتى إذا بلغت آخرها استشعرت انفرادها في كون متحرّك من الغيوم. كتل من الدّخان الأبيض تُحيط بها من كلّ الجهات.

تشهق، ثم تصرخ وتتناثر أنفاسها في ممرّات المكان الغريب. تركض... يتحوّل المكان إلى جدران عالية عليها رسومات أشبه بالرسومات الفرعونية... تلتفّ الجدران... تدور... وتتعالى. تلمح في الجهة اليسرى ظلالاً، تجد نفسها فجأة قرب جدار الظّلال... يشفّ الجدار أمام عينيها عن بقعة دائرية موازية لمستوى نظرها. تقترب أكثر من البقعة... تقترب، تُدقّق النظر... مكان تعرفه جيّداً... غرفة... سرير رحب... فتاة نائمة بقربها طفلان، تفتح عينيها على سعتهما... فالفتاة النائمة هي ذاتها... تُبعد وجهها بخوف وهي ترتق توجّساتها مُحدّثة نفسها:

– أكيد أنا أحلم! أنا في حلم!

السماء تقترب منها بسحب بيضاء، وبصوت ضخم كأنه آت من

أعماق سحيقة، يردّ بصدى صرير يكاد يبتلعها:

– والحياة... حُلم... حُلم... لمم... مممم...

تجري ممعنة في الفرار. وبلا مقدمات تجد شاباً لا تتّضح ملامحه يجري معها ووميض عينيها يَشي بالدهشة والاستسلام. يُمسك بيدها ويصعد معها درجات طريق ممتدّ في تعرّجات تضيق ثم تتسع ثم يضيق شيئاً فشيئاً ويتجه آخره نحو الأعلى... كأنّ امتداده ينتهي في السماء.

تلتفت إلى اليدين المتلاصقتين وهما تجريان مثخنتين بالدفء. تُحدّث نفسها بأنّه دائماً هناك يد تمتدّ، في كلّ محطّة... هناك من يقدّمه القدر ليمدّ يده، ليكون حلقة وصل... يساعدك في العبور والتجاوز لضفّة أخرى... هؤلاء الذين تقذف بهم الحياة في محطّاتنا لهدف محدّد، قد يواصلون المسير معنا... وقد يكونون... قدرنا، وربما ينتهي دورهم بعد أن يخرجونا من حالة ما، وضع ما، ونحن دون أن نُدرك نؤدّي لهم الدور المرحليّ ذاته ليعبروا إلى ضفة ما، وفهم ما، يؤدّي كلٌ منّا دوره المرسوم ثمّ نمضي كأن لم نكن وكأن لم يكونوا.

تشعر بلمسته تقبض عليها في حنان. يسقطان على الجسر الممتدّ الآخذ في التهشّم السريع. تُحاول أن تصرخ لكنّ صوتها لا يخرج، تهتزّ الأرض أسفلها، تغوص في اللاشيء... يهتزّ جسدها كلّه وكأنها تسقط...

تسقط.

يهتزّ جسدها في السرير... تفتح عينيها... صمت مطبق... عقلها يعود إلى عالم الوعي، تتحسّس ما حولها... ملمس البطانية الناعم...

طفلها الصغير ذو الأربع سنوات نائم على يسارها... تستعيد الواقع... ذهنها يردّد رسالة الحلم:

– والحياة حُلم.

تشرد في العبارة، رأسها ثقيل... تُحاول استعادة ذاتها. تنهض وقد بلغت الساعة الرابعة عصراً، تسحب منشفتها من على الشّماعة وتتجه للاستحمام.

في السابعة والعشرين من العمر، مُهرة بقامة فارعة، وجسد نحيل في شبه امتلاء. بطن ضامر تتضح استدارة حوضة نتيجة امتلاء منطقة العجز لديها بشكل مميّز. ببشرة بيضاء وعينين عسليّتين واسعتين بحاجبين كثيفين مقوّسين. أنف رومانيّ وشفتان صغيرتان ممتلئتان في اعتدال، إذا اعتراها الكدر انقلب بياضها إلى صفرة وباتت عاديّة الجمال، وإذا ابتهجت روحها تحوّلت إلى فاتنة.

تُحرّك الأنبوب جهة الماء السّاخن ليس لأنّ الجو بارد لكن لأنها تشعر بصقيع في الروح تكاد تبلغ معه حدّ البلادة العاطفية. تُحاول إيقاظ عوالمها النائمة، يمتلأ الحمّام بالبخار، يتساقط الماء الدافئ على رأسها، تبدأ خلاياها بالصحو وذهنها لا يزال يُردّد عبارة الحلم :

– الحياة حُلم... حُلم.

تمتدّ يدها إلى علبة الشامبو، تنثر كميّة على رأسها ثم تُعيده إلى موضعه وهي تشابك شعرها وتفرك جذوره لتتساقط فقاقيع الشامبو على وجهها، تزيل الشامبو من فوق عينيها، تجمع الفقاقيع في كفّيها، تقذف بها إلى الأعلى، السقف المضاء ونور الوجود البهيّ... وعيناها ترقبان التطاير المبهج... الفقاقيع بهجة... فرح... العبث بها يعني

القدرة على الاحتفاظ بإنسانيّتنا البكر وبراءتنا الأولى... زمن الطفولة قبل أن تتلوّث الروح.

عيناها تُبحران معها في صورة بعيدة. تتساقط الفقاقيع على رأسها، تتساقط على وجهها، يتحوّل السقف المضاء إلى سقف يرتدي قطيفة مخمليّة تزدان بالثّريات والصخب:

القطرات الملوّنة تتساقط كوقع الندى على رأسها لتتويجها ربّة الألق وملكة الحفل وهي تتهادى بثوبها الأبيض في الليلة الحُلم، فتمتدّ حقول للياسمين ويتفتّح البنفسج ليمنحها مفاتيح الأنوثة دفقة واحدة.

تحفّها الأضواء الباهرة المُعلّقة في أهداب السقف لتضفي جوّاً ساحراً مُكتنزاً بالأيام الحافلة بالمسرّات. ورد أبيض صغير تقذف به الفتيات على رأسها وزوجها عبد الله، تسير ويدها اليمنى تحتضن حفنة الزهور البيضاء بينما اليسرى أسلمته عمرها وعانقت يده.

تتذكر أنّ عبد الله كان رجلاً طيّباً، لم يحرث فيها مشاعر الأنثى ولم يمنحها دفء الاحتواء وحلاوته، لكنه خلق فيها مشاعر ودّ واحترام عميقين فتآخت مع انهماره العفوي وأُترعت بصدقه الذي أوقد جمرات الأمان في امتداد دربها. بسيط... في كلّ شيء... معاملته... طقوسه الحياتية... قراءاته لا تتجاوز الجريدة اليومية، منفتح بحدود. يُناقش بلا تشنّج وككلّ ذوي القلوب البيضاء نوافذهم مشرعة للتعاطي السّلس مع الحياة... بأجنحة فَرَاش.

تكوّر بطنها بعد ستة أشهر، حين ارتوت الأراضي البكر وفاضت أنهارها فأينعت شتلة يانعة أطلقا عليها يحيى، وبعد سنتين فاض النهر مرّة أخرى ليوقف ارتواءه انحسار الغيم... حين خبّأ القدر لنكهة

البياض امتحاناً عسيراً. سقط عبد الله بسرطان المعدة، لم يُكتشف إلاّ في مراحله المتأخّرة ليضرب موعداً فضفاضاً مرّاً لاستيعاب درس الحياة، لم يمهله القضاء كثيراً، كان تدفّق أصدقاء الرحيل في أوردته لاهثاً فعاجل بطرحه نزيلاً دائماً في المستشفى، فتجذّر معنى الفقد وهي تراه يتلاشى أمامها شيئاً فشيئاً حتى قبل أن يُفارقها.

تتذكّر في إحدى المرّات أنها دخلت عليه فلم ترَ في سريره وهي واقفة أمام الباب ميمّمة صوب الغياب وغبار التلاشي ما يشير إلى وجود أحد ينام عليه. راودها الشكّ في نقله إلى مكان آخر أو... طردت شيطانها ودلفت للوهم الذي يحتضنه، لتلمح أنفه يخرج من أعلى الشرشف الأبيض... لم يبقَ منه سوى عظامه... وعينين صفراوين أنهكهما الوجع... والكيماوي اللّعين، فبات هناك تماسٌّ واضح بقصد أو دونه بين خطّ الحياة والموت، تماسّ بين الأبديّ واللامحدود أكثر من الحضور الفعلي له رغم وجوده المادّي. فشرارة الحياة في عينيه باتت مُطفأة، بلا تحفّز ولا حماسة كأنّها دورة الروح في بلوغ النهاية.

تتذكّر يومها أنّها بكت بمرارة. بكت طوال اليوم فأعشبت أنهارها وجعاً نبيلاً وفاضت أصالة... صمّمت على مرافقته في المستشفى ليل نهار، وقد أدركت كم توجعنا الحياة حين تجعلنا نقترب من أناس يُمثّلون لنا علامات فارقة، نراهم وهم يتألّمون بهذا الحجم، ثم لا نملك سوى البُكاء شفقة عليهم.

تنظر إلى نافذة الحمّام الزجاجية من خلال بخار الماء الساخن الذي يغمر رأسها، بخار الماء يتزلق على النافذة البيضاء ويرسم تعرّجات

كتلك التي تستوطن قلبها... وتأبى المغادرة:

(واجهة المستشفى الزجاجية محاطة بالخضرة التي تتقدم بابها، غرفة العناية المركّزة، الجلوكوز الممتدّ كإكسير عاجز عن إمداد صاحبه بصحوة الحياة، شاشة تتعلّق عيناها بدرجاتها ساعات طويلة، درجة الضغط، نبض القلب ونسبة الأوكسجين.

وحين تتعب من الوقوف وتناسل اللحظات الميتة المنسيّة، تعود إلى كرسيٍّ جاف كحليّ اللون تسحبه وتقذف بجسدها المنهك كما روحها قرب عبد الله، لتمارس معنى الاحتراق بصمت وهي تتأمّل انطفاءه، مُتحايلة على جبروت الرّحيل عبر الإصرار على مواصلة تدفّق رسائل الروح بينهما، وأحيانًا تنطلق نداءاتها موغلة في الرّجاء علّها تبلغه، وحين يخذلها الرّجاء ويسحبها الخرس الضاجّ بعوالم أخرى لا تبصرها. تضيع في اللحظات المكتنزة بالعدم... تفكر في اللاشيء لساعات طويلة، تعود بعدها لتتأمّل ملامحه التي نخرها دبيب الموت وزحف في أوصالها الرحيل، جلد... وعظام... ونظرة يسكنها الزوال.

تدسّ يدها في يده الضامرة... ترصّها بين الفنية والأخرى، علّه يستفيق من غيبوبته فيشعر بها، تُرخي قبضتها... تتأمّل شحوبه... هزاله... ثم تشدّ على يده، فجأة يأتي صوت إنذار متصاعد:

– توت توت توت توت...

يوقظها الصوت الرهيب من سكون اللحظات العدمية، علامة استفهام تعلو الشاشة وخط ممتد، تفتح احدى الممرّضات الباب بسرعة وكأنها تقتحمه صارخة:

– كود بلو... code blue.

تتراكض الممرّضات والطبيب. حالة استنفار، الممرّضات يبعدنها عن السّرير، الدكتور يضع يديه على صدر عبد الله ويضغط، يضغط، يبدو لهم أنّ القلب قد توقّف.

ينظر الدكتور إلى الشاشة... الضغط... صفر... نبض القلب صفر، تركيز الأوكسجين في الدم صفر... كلّ شيء صفر... خطّ ممتدّ... تُعتم الشاشة.

كلّ شي مضى مثل الومضة الخاطفة. عيناها متّسعتان في وجع صارخ... حتى الدمع تجمّد... وإحدى الممرّضات تحتضنها وتأخذها بعيداً).

تُغلق صنبور الماء وكأنها تغلق معه ذكريات لا تريدها أن تطفو على سطح أيامها فتسلبها العنفوان. تلتقط الفوطة الزّهرية اللون وتخرج وهي تمسح طين جسدها لتلمح في النافذة قطّة تفرّ من نومها على صوت حجر قذفها به أطفال مراهقون.

تتوارى عن النافذة كي ترتدي ملابسها، بينما تقفز القطّة وهي تلمح أحد المشاكسين يتوجّه نحوها. تهرب. تبلغ باب السطح وتُفرمل في حركة دفاعية غريزية وهي ترى انحدارة الدرج.

تنزل مسرعة بحثاً عن محمية طبيعية آمنة وخالية من جلافة البشر، حتى تبلغ باب العمارة والفتية خلفها... تجري في الشوارع التي تحضّر كلّ شيء فيها سوى ناسها... تجري وتجري وتجري... والرمال المتطايرة تتبعها.

المُنعطف

مطلق... الفتى الأرعن... ذو الثامنة عشر ربيعاً.

أهدرها في الطيش واستصغار الناس من حوله ، شأنه شأن كلّ أفراد عائلته الذين لا يرون خَلق الله إلاّ من خلال غبش الدونيّة وعتمة الاحتقار. مجرد كائنات طفيليّة يُفترض أن تسير على أربع ولا تلامس الأرض، بل تعانق شقوق السقوف وتتعلق بجدرانها.

وقف مرعوباً أمام الطبيب في قسم الطوارئ ، وقد أيقظته فداحة جريمته على هول الكارثة:

– الرجل مُتوفّى ولا بدّ من استدعاء الشرطة للتحقيق.

– أنا مجرد فاعل خير، وجدته مُلقى أمام بابنا وأحضرته مباشرة.

– اعذُرني، موقف كهذا يُحتّم بقاءك حتى مجيء الشرطة، هذه جريمة قتل.

لهنيهات تجمّد في حالة ذهول، ثمّ اتّجه إلى أقرب تليفون في المستشفى ليتّصل بوالده .التقط والده سماعة الهاتف ببقايا نوم علقت أهدابه وتطايرت على الكارثة التي يسمعها. عقله مشلول لا يردّ سوى بكلمة واحدة:

– إيه... إيه... إيه.

أغلق الخط وقفز من موضعه، ليتناول "شماغه" على عجل وهو يهمّ بالخروج دون حتى أن يغتسل من آثار النوم ورائحته.

تسأله زوجته عمّا به، فيلوح بيده:

– ابلعي العافية... مانيب فاضي لك.

احتضنت صدمته سيارته الشاحبة التي امتطى صهوة مقعدها على عجل، وعقله يتخبط في أفكار عديده لا تولد فكره حتى تنفلت أخرى قبل أن تتضح معالم الفكرة الأولى.

عبَر الشوارع دون تركيز، تجاوز محلّات عقار... محطة بنزين... شارعاً تجاريّاً، ورشة سباكة، مطاعم، ثم اهتزّت به السيارة وترنّحت حين بلغ مبنى وزارة الثقافة والإعلام. انفجرت عجلة السيارة، فتوقف لإصلاحها وهو يلعن كلّ شيء.

تناول عجلة جديدة في ظهر السيارة ورفع رأسه. نظر إلى الشمس بحنق ففقد الرؤية للحظات. حين استعاد قدرته على الرؤية، لمح شاباً ثلاثينيّاً نَحيلاً بقامة مُعتدلة تميل إلى الطول وبشرة سمراء يوشك على دخول الوزارة، تمنّى لو يُلوح له بيده ليساعده في إصلاح سيارته.

سال العرق من أبي مطلق، وبلغته رائحة عرقه فتأفّف من كلّ شيء، سبّ مطلق وسبّ نفسه والحياة كلّها. تقاذفته الوساوس، وابتلعه الطريق.

فيما دخل الثلاثينيّ النحيل مكتباً وضُعت عليه لائحة "إجازة النصوص"، قذف جسده على مكتبه الضاجّ بالمساحات الميتة الفارغة، ورمى معه سكون اللحظات حين لا يُشرق في ضوء نهاراتها

سوى الكلس يعلو الوجوه وبلادة الأمكنه، وحنين جارف لشمس تحرث بأشعتها العتمة.

استسلم لرتابة يومه العمليّ، لكنّه سرعان ما شعر بالملل فرفع رأسه من بين النصوص التي تنتظر الإجازة وسأل صديقه جعفر الوسيم عمّا يعرفه عن شهر محرّم الذي يعلم قداسته لديهم. ابتسم جعفر على سذاجة السؤال المبطّن بامتحان لقدراته ابتسامة الواثق، وأجاب دون أن يرفع رأسه عن النصوص التي علت وجه مكتبه:

– بسيطة... في التاسع من محرم: جرت محاصرة الإمام الحسين عليه السلام من جميع الجهات في أرض كربلاء واجتمع عليه خيل أهل الشام كالدائرة بقيادة عمر بن سعد. وفيه: خرج نبيّ الله يونس عليه السلام من بطن الحوت. وفيه: ولد موسى ويحيى ومريم عليهم السلام.

العاشر من محرّم: وقعت معركة "الطفّ" التي قُتل فيها الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام في سنة ٦١ للهجرة. وفيه: أمر معزّ الدولة الديلمي أهالي بغداد بإغلاق المحلّات والأسواق وإقامة مجالس العزاء على الإمام الحسين عليه السلام وذلك في سنة ٣٥٢ للهجرة. وفيه: دخل هولاكو مدينة بغداد الذي على يده سقطت الدولة العباسية في سنة ٦٥٦ للهجرة.

بدا راشد وكأنه قد خُطف وصاح بإعجاب:

– مو معقوله... موسوعة!...

حلّقت ضحكة جعفر وهتف:

– عاد هذا سؤال! أنت تسألني عن شهر رضعناه في حليب

أمّهاتنا... أكمِّل... أقول أكثر... وأكمل:

السادس عشر من محرّم: تحوّلت فيه قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة المكرّمة في السنة الثانية من الهجرة. السابع عشر من محرم: نزل فيه العذاب على أصحاب الفيل (بقيادة أبرهة) حينما أرادوا هدم الكعبة. العشرون من محرم: تمّ فيه زفاف فاطمة الزهراء عليها السلام إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في السنة الثالثة للهجرة.

صفّق راشد وابتسامته تملأ وجهه:

– يخرب بيتك، إيش أكون أنا جمبك! تعرف أنا لو مكانك أشارك في برنامج "من سيربح المليون"!

يقطع حديثهما دخول شاب بيده مظروف قائلاً:

– إتتوا مطلوبين للتحقيق، المدير قال أُسلمكم المظروف هذا!

سلّم المظروف إلى راشد الذي تناوله بهدوء وفتحه. قرأه ثم التفت إلى رفيقه، موضحاً أنّ الخطاب قادم من وزارة الثقافة والإعلام في الرياض، فيه مساءلة عمّن أفسح كتاباً يُطيِّف المجتمع. مطلوب توضيح وجهة نظرنا التي دفعتنا لإفساح كتاب كهذا، واعتذار عن الفسح... أو نُحال إلى التحقيق.

شرع كلٌّ منهما في شرح مبرّراته للفسح، من مُنطلق أنّ تعدّدية المذاهب وإفساح المجال للمذاهب الأخرى ليس فيه ما يُخشى منه قياساً بقمعها ومصادرتها في التعبير، فالإسلام ليس بهذه الهشاشة كي تهزّه أيّ اختلافات مذهبية، والعصر الراهن يتطلّب الالتحام والوحدة لا قمع فئة وتعالي أخرى، كلّنا يجمعنا الدّين الواحد، ويعزّنا الدين ذاته!

وخز

الحياة في حيّ طلال حيث يسكن راشد تخلو من الضجيج. تمتدّ الأزقة في سكون وافر. حيّ راقٍ، صامت، بلا حياة، ولا نبض، رغم كونه يضجّ بالسكّان الذين يتوارون خلف جدران منازلهم على الدوام.

يقترب من شارع "أبو الدرداء" حيث منزله الشاسع الاتساع، يقف بزاويته الخلفية التي يُطلّ منها على الشارع عمود كهرباء ممتدّ القامة، ينعكف رأسه إلى الأسفل في ثريّا نيون شديدة الإضاءة، كزهرة عباد الشمس حين تنحني مع وهج الضوء، وترتفع فوق جدران المنزل الأشجار الباسقة والتي لا يجاريها في امتدادها سوى "الدشوش" التي تعلو سطح المنزل المُصمّم من الحجر في هندسة رائعة وجاذبية واضحة، شأن باقي منازل الحي الناصع النظافة والذي قلّ أن تجد أحداً يسير في شوارعه، كما قلّ أن تجد منزلاً لا تُحيطه الأشجار المنسّقة في تشذيب جميل.

لمح سيارة عبد الرحمن ترقد تحت المظلّة السكّرية اللون، والمُصمّمة لتتّسع لسيارتين تقفان تحتها. ركن سيارته خلف سيارة أخيه ودخل.

تمدّد راشد ذو الثامنة والعشرين ربيعاً على سريره. وراشد ذو أنف

مرهف بشفتين مزمومتين يعلوهما شارب شديد السّواد، ببشرة سمراء شبه داكنة وعينين عسليّتين تميلان إلى الاتساع، ورثهما عن أبيه كما ورث كلّ صفاته من شموخ في القامة، وجسد مصبوب لاحتضان موغل في الدفء، باعتداد يبدو جليّاً في خطواته حين يسير. يشبه والده في كلّ شيء، في القوام والنظرة وطريقة المشي وأسلوب الحديث، لم يأخذ من أمّه سوى شفتيها وحنانها الذي يداريه بالكبرياء.

لوحة لقوس قزح كبيرة الحجم ترتكز في قلب الغرفة، ينخفض بصره على مكتبه الصغير الذي يعلوه جهاز كمبيوتر وصورة لوالده بالأبيض والأسود في حضنه عبد الرحمن – الأخ الأصغر لراشد رضيعاً، ويمسك بيده طفلة في الرابعة من عمرها كانت قد تُوفّيت بمرض في القلب، وفي الوسط راشد أكبرهم جالساً على الأرض وهو في السابعة من عمره.

في الجهة المقابلة يرتكز برواز بالحجم ذاته خُطّ فيه: "ليقطعوا عظامي... ليهرسوا لحمي... ليقتلوني... وعندها فقط سيحصلون على جسدي ...ولكن لن أعطيهم حرّيتي "غاندي.

اتجه بصره إلى مكتبته الواسعة ذات اللون البُنّي وكأنه خشب الصندل؛ رفوف تعلو، رفوف تغصّ بالكتب الحديثة الطبعة والمهلهلة.

نهض ونظر عبر نافذة غرفته نحو ساحة المنزل التي حضنت لعبه صبيّاً، وعبثه شاباً مراهقاً، بحديقتها ذات السّدرة الوارفة والتي باتت معلماً في ذاكرته. لا تهطل ذكرى البيت إلاّ وتهلّ صورة السدرة، بينما تمتدّ في غير ترتيب أزهار الروز والريحان الذي حال سوء الجوّ دون اخضراره فبدى به شيء من الاصفرار والتقصّف وكأنّه يعاني

من فقر دم مزمن. وعلى حافّة حدود الحديقة تمدّدت قطّة بيضاء ببقع داكنة منتفخة البطن تبدو في شهور الحمل الأخيرة، للتو قفزت الجدار وأخذت تلتقط أنفاسها ثم توسّدت يديها الناعمتين وأغمضت عينيها ثم فتحتهما.

خرج من غرفته بحثاً عن والدته، فلمّا لم يعثر عليها في صالة المنزل فتح الباب المؤدي إلى الحديقة، فبلغه صوت عاشق الفرح حسين الجسمي وقد توسّطت أمّه وأخوه عبد الرحمن ذو الثالثة والعشرين الساحةَ، هي تتمايل على الأغنية مصفّقة وأخوه يرقص:

ابتدي يا حب وارسم	في سما هالليلة قلبين
اكتب منيرة بالاول	واكتب الثان لخالد
أو يجي لك راي وقف	ماله داعي ترسم اثنين
اكتب الاسمين لكن	حطّهم في قلب واحد.

أمّه، المرأة الكون في دمه تجلس باسترخاء وهي تتمايل بانسجام مصفّقة بإيقاع تهتف لعبد الرحمن:

– عاشوا... عاشوا.

عاودت التصفيق المتناغم مع اللحن، بينما ضحك راشد موجهاً حديثه لأخيه:

– ما تفّوت... ما إن تسمع الإيقاع إلا ورفعت يدك

أضاف بعفوية:

– سأحذف خالد وأضع راشد.

اندفعت الأم مبتهجة:

- عسى انشاء الله... واسمها منيرة بعد؟

غرق راشد في الضحك:

- إيش عَرفني... اسألي الجسمي!

استدار عبد الرحمن إلى الجهة الأخرى وكأنه في عالم آخر، ثم التقط عصا خشبية ملقاة على الأرض ورفعها إلى الأعلى في خطّ مستقيم بين يديه. تثنّى جسده يميناً ثم يساراً ثم حمَّت أمه إيقاع التصفيق، فزادت حركة يده وجذعه تمايلاً، لتشترك كلّ أعضائه في انسجام كامل مع تصفيق أمّه وصوت الجسمي مترجمة لغة الجسد في التعبير عن حالة التواصل بين الصوت والحركة.

شعر راشد بالمتعة وهو يرى أخاه يرقص بهذا الشكل الذي يجسّد الرّقص الرجولي الشبابيّ في المنطقة الشرقية. ألقى عبد الرحمن بالعصا وشدّ يدَ راشد يسحبه لمشاركته. دخل معه راشد في طقسه. ثنى يده اليسرى أسفل اليمنى التي مايلها مرتفعه إلى الأعلى بتدرّج وانسيابيّة في الكفّ، ثم تناغمت حركاته مع عبد الرحمن إلى الأمام والخلف ليشكّلا ثنائيّاً في حركتهما، متقابلان ثم متوازيان ثم متقابلان ثم متوازيان وهكذا.

وبقلب الأمّ الذي لا يعرف سوى الاحتضان هتفت:

- إيه يمّه وسِّع صدرك، كلّه مع هالجرايد، عاشوا... عاشوا عيال الرِّيس.

أُلهبت يداها بالتصفيق، لولا أنّ هبَّة ريح عاصفة قطعت مرحهم البريء، وتحوّل الأفق إلى شحنات غبار كثيفة حتى غدا الجو خانقاً

يصعب التنفس من خلاله.

نزّت عن شجرة السدر أنّة ذات صرير وتمايلت أغصانها، بينما تدافعت الغيوم الشاحبة والمكتنزة بغبار متوارٍ زفرت معه نباتات الحديقة رائحة فوّاحة سريعة التلاشي، ثم عصفت الريح وانهمر غبار خانق مُحمَّل ببقايا صحف الشارع وأوراقه التي فقدت ثقلها من شدّة الريح فارتفعت عن الأرض وحملتها ذرّات الهواء الغاضبة ثم عادت إلى السكون.

توقف عبد الرحمن وهو ينظر إلى السماء قائلاً:

– دخلي يمّه بسرعة... صدرك يتعب.

امتدت يد راشد لمساعدتها على النهوض وهي تتمتم بحسرة:

– حسافة... تونا نحّمي.

أخذت الريح تئنّ بصوت عاصف يذُرّ الخوف في النفوس. دخلا على عجل، وتبعهما عبد الرحمن الذي استوقفه مواء القطّة، فالتفت إليها حين لمحها تتنقّل من مكان إلى آخر بحثاً عن مكان محميّ من وخزات الغبار حين استحالت السماء إلى حُمرة خانقة، تُلقي بظلالها على نفوس البشر، فتعصرهم كآبةٌ غريبة لا يجدوا لها تبريراً.

اتجه نحوها بشفقة ونظرت إليه بانكسار وقد التقطت بحدسها الغريزيّ أنّ هذه روح مسالمة، امتدّت يده لحملها، فاستكانت مُستسلمة.

ذو القلب الميت

هوت على أقرب مقعد بعد أن أنهت المكالمة التي جاءتها من أمّها تبلغها أنّ عمّها حميدان قُتل وغُيِّبت أناشيده إلى الأبد، وسيوارى جثمانه في الغد بعد انتهاء الإجراءات الطّبية والقانونية.

شعرت بطرقات مطر شَجيّ تدبّ على نوافذ قلبها ففاحت رائحة عُشبه، واستطال عمر قَصي:

عمّي حميدان، طلقة رصاص مرّة أخرى؟! كأنّ قلبك موعود بالرصاص... في العقل... وفي الجنون. هل هذا ثمن الإخلاص للبياض؟ أم أنه... الخَلاص؟!

مثل فراشة فردت أجنحتها وحلّقت في الغيم. انثالت الطفولة المنسيّة حين كان يزورهم وهي في السادسة وابتسامته الضاوية تتراقص على ملامحه الشديدة الألفة، كأنه توضّأ للتوّ بماء زمزم واعتمر. تذكّر أنه كان يحملها عالياً، مردّداً ببهجة نضرة "ذات البريق في عيون أمي" ثم يتبعها: بس قلبك مثل قلبي.

ببراءة كانت تهتف: يعني شلون؟!

تضوي عيناه بفرحة عيد في عيني طفل: يعني مثل نور العيد.

تُعيد ببراءة: يعني شلون؟!

يمسك يدها بين يديه قائلاً: يعني جينات وراثية... مثل ما هي في دمي... في دمك.

تتذكّر أنها في أرجحتها بين يديه كانت تهتف به أن يقف فقد جاؤوا! وحين يسألها عمّن جاء كانت تردّ ببراءة عذبة وهي تُحدّق في السماء: القطن. وحين يسألها أين هو؟ تُعيد التحديق في السماء ذاهلة، مُشيرة إلى الغيم.

يتبعها برفع بصره ثم يقول إنّ هذا ليس قطناً، بل بيوت الملائكيّين من البشر المخلوقين من ضوء وماء، تتحرك سابحة على الدوام تُطارد بعضها بعضاً بحثاً عن ساكنيها الذين ارتحلوا إلى الأرض، وضلّوا طريق العودة، لكنهم حتماً سيعودون... إلى الوطن.

– أنتَ منهم؟

يُجيب وهو يشعر بالضآلة من سؤالها: لاااا... هؤلاء قلوبهم بيضاء مهما عُصرت... لا يشوبها صفار ولا غبش ضغينة.

تأكّدت بعد زمن أنه أحدهم، حين اختلّ توازنه من طعنة في القلب.

تذكر أنّ والدها كان يُطلق عليه "ذو القلب الميت" لطيبته الشديدة، فحين قَدِمَ يوماً وكلّ ما فيه يتقافز نشوةً بالزيّ الرسمي للضباط، سار وكأنّ هناك خطاً فاصلاً بينه وبين الأرض. كأنّ قدميه لا تمسّانها، وحين سمع هذه العبارة تخرج من فم أخيه، يومها فقط علّق:

– لم يعد ميتاً، كان كذلك وانتفض، كان الكلّ يقول إنه يوجد قلب في هذا الحيّز، لكني لم أشعر بوجوده ودفئه وسخونة ضرباته وارتعاشته إلا حين عرفت يسرا، فعرفت ماذا يعني قلب بين الضلوع.

يومها قال والدها بقسوة:

– صحيح أنّ قلبك ميت... أنتَ إلى الحين تركض ورا أوهام الجهّال؟!

ارتعشت ملامحه حتى شعرت أنّ قلبه تفاحة حمراء خُدش جوفها فانشطرت نصفين. يومها تأكّدت أنّ والدها بلا قلب، ويومها أيضاً شعرت أنّ عمّها حميدان ملاك، أو شاعر بقلب طفل.

* * *

خفيفة ومبتهجة كانت تتهيّأ لممارسة طقسها اليومي. تمرّغت في رتابة يومياتها برضا، تعلو معه ابتسامة طيبة على ملامحها حين دخلت المطبخ لتُفاجأ بالقطّة منزوية في أحد الأركان تئنّ في ضعف.

سرعان ما ألفتها وأخذت في الدوران يُمنة ويُسرة كمن يبحث عن ملاذ من وجع ما وهي تموء. أدركت أنَّ عبد الرحمن حتماً هو من أدخلها، فسارعت بإحضار إناء صغير دلقت قدراً من الحليب الدافئ وقرّبته منها، ثم استدارات لإعداد وجبة العشاء.

ببساطة عاودتها الأفكار القلقة على عبد الرحمن، الذي أنهكه البحث عن وظيفة حدّ الاستسلام للواقع والبحث عن بدائل لشغل وقته، حتى قاده تشبّثه بالحياة إلى أن يشدّ الرّحال لنادي فنون القتال الرياضي.

هي سعيدة به، سعيدة بهدوئه وتواصله مع الأقارب والجيران، سعيدة بحرصه على الصلاة ولهفته على صلاة الجمعة، لكنّ سحابة

الوجوم التي باتت تنتابه في الآونة الأخيرة هي ما يقلقها، وخاصة أنّه بات يتأخّر أكثر من المُعتاد على العودة إلى المنزل ليعود ومسحة شجن تعلو ملامحه، وكلّما سألته أجابها بشقاوته المعهودة وهو يُسبّل عينيه التي تضجّ بألم دفين:

– مع الشباب يا شباب إنتَ يا حلو.

انحنت نحو صنبور المياه، غسلت يديها وهي ترمق القطّة التي تئنّ بوجع دون أن تتذوّق شيئاً ممّا في الإناء، وخرجت.

وعلى عتبات الفجر عاد عبد الرحمن تعلو حذاءه ذرّات غبار وملامحه كابية. لمح غرفة والدته مضاءة، تجاوزها ودخل إلى المطبخ.

لفتت انتباهه قطع اللحم الصغيرة التي تناثرت، واحدة على الطاولة، وثلاث قرب القطّة التي أخرجت لسانها تمرّره على جسد أحدهم في عملية تنظيف.

ارتفع صوته منادياً، فتراكضت خطواتها ظنّاً منها أنّ مكروهاً ألمّ به. علت تعابيرها شفقة، موضحة أنّ القطعة الرابعة هي لجنين لم يكتمل نموّه. طلبت منه إلقاءه في الحاوية الخارجية، وراحت تجمع أبناء القطّة ثم خرجت إلى ساحة المنزل وأمّهم تتبعها في خوف.

اختارت زاوية ظليلة في ساحة المنزل وضعت أبناء القطة فيها، بينما عاد عبد الرحمن وهو يلتقط بإحساسه الشفيف جزع القطة على أبنائها، في يده اليمنى إناء الحليب، وضعه على الأرض ثم مسح على جسد القطة التي نظرت إليه ثم أغمضت وكأنها تُعبّر عن امتنان تعجز أدواتها عن إيصاله.

وفي اليوم التالي، حين احتضنهما أُنس الإفطار، رنّ الهاتف

المحمول في جيبه، ليبدو اسم صديقه عارف فسارع بالردّ:

– دحين تجي معايا تشوف المنطقة كيف محاصرة... دوبهم قفلوها.

– والجثة شالوها ولا للحين موجودة؟

– طبعاً شالوها اليوم تاني، بعدين إنتَ حتجلس عندك تحَكّيني... والله أمشي وأسيِّبك.

– يالله أنا جاي.

التفت نحو أمّه ودهشة الاكتشاف والفضول تتغافز في ملامحه:

– واحد اسمه حميدان من حي العشاير انقتل... بروح أتطفّل!!

مارس الصديقان الغياب في أزقّة حي العشائر الجرداء، دون أن يُسمح لهما بالاقتراب من مكان الحادث. سارا في الشوارع الترابية الضّاجة بأنفاس العصبيّة القبليّة حتى كادا يتنفّسانها في الهواء الذي يستنشقان.

حدّق عبد الرحمن في عيني صاحبه مُتأملاً ملامحه باحثاً عن طيف يسكن فؤاده ويحنّ إلى رؤياه، بينما قرأت عينا عارف ملامح حيّ العشائر الغاصّ بخليط متناقض من القبائل والجنسيّات والبشر. نظر إلى الشارع التجاري المُكتظّ بمطاعم المثلوثة والمظبي والمضغوط والبوفيات الشامية واليمنية، والعمالة السائبة، والبنوك التي يتجمهر عليها البشر في أمّ تغشى البصر حتى قبل فتحها.

همس باختناق:

– صخب!

ابتلعتهما "دواعيس" حيّ العشائر التي لا تنفكّ عن ضجيجها، وسرعان ما لمحا الأقدام تتراكض مثيرة غبار الأتربة في الشارع الذي

لم تتمّ سفلته بعد في وجهيهما. كلٌّ رفع ثوبه وربطه على بطنه وكمّم وجهه بشماغه لاهثاً إلى جهة واحدة. رجال وشباب ومراهقون، الكلّ يركض كالطريد إلى حدث يجهله الرفيقان.

عبرهما أحد المراهقين وهو يستحثّهما على اللحاق بالحدث:

– ولد "مهيوب" صدم أربعة وهو يفحّط في "النَّزلة"، والظاهر أنهم ماتوا.

مضى دون أن يلتفت وصوت سيارة إسعاف ودورية شرطة يملآن الفضاء قادمين من جهة ما.

تكثّفت الأقدام التي تطوي الطريق للّحاق بالحدث الطازج، فتأصّل غيابهما، وركضا مع الراكضين.

طوق

نظر حوله حذراً ووشوش مطلق عمّا إذا كان متأكداً من أنّ أحداً لم يُشاهده وهو يُطلق الرصاص؟

أعاد مطلق تأكيده، ثم ذكّره بالمسدّس الذي أوصاه حين كان في المشفى أن يحرص على التخلّص منه، حيث تركه في السيارة. يهمس في أذنه أنّه كسره ثم قذف به في أعماق البحر.

حمل الأب جزعه وحزنه وغادر مطلق وهو يحثّه على الصمود انتظاراً للفرج، لكنّ الفرج الذي يتحدّث عنه لا يعرف طريقاً إلى قلبه في لحظات مُعتمه غامضة كهذه.

عصره المُحقق ظهراً بالأسئلة، غير أنّه ثبت على أقواله، "لقيته مصوّب عند باب بيتنا". كلّ ما فيه ينضح توتراً، وكلما زاد المحقّق في أسئلته، ازداد ارتباكه وتضاربت أقواله، حتى كاد عقله أن يُشلّ والضابط يخبره عن وجود شاهد إثبات رأي حميدان أثناء دقّ الجرس.

يصمت. لا يعرف ماذا أضاف الشاهد المزعوم، ولا ماذا رأى! فما يذكره أنّ الشارع كان خالياً، ربما رأى الشاهد حميدان قبل أن يفتح

له الباب أو وهو يسير باتجاهه. هو متأكّد أنّ الشارع كان خالياً تماماً. يستعيد ذهنه الصورة، يُقرّبها... يُكبرها... يُبعدها... ليس سوى قطّة مكتنزة البطن التقت عيناه بعينيها ثم عبرت راكضة... وما عدا ذلك... فلم يكن هناك أحدٌ.

يَستعيدُ ثقته بنفسه ويُصرّ على أقواله أنّه فتح الباب بعد أن سمع دويّ رصاص يخترق الفضاء، فأسرع به إلى المستشفى لكنّه كان قد توفّى... هذه الثقة تتهاوى والضابط المحقّق يوضح له أنّ الإنكار ليس لمصلحته لأنّ فيه تضليلاً للعداله، وأنّ عليه أن يعرف أنّ أهل القتيل سيطالبون بدمه.

تلاشى الغرور عند سماعه مفردة القصاص، باتت الدنيا أصغر من ثقب الإبره، وغدى الأمل في الخروج حلماً بعيد المنال.

وفي اليوم التالي وقف فهاد – والد مطلق أمام المُحقّق في انكسار واحتراق دفين. حيرة تتآكله هل يَدفع ولده للاعتراف أم يُحرّضه على مواصلة الإنكار، وشعور بالضآلة والصِغر يملأ روحه رغم نُبل الغاية؟!

أجاب عن سؤال للمحقّق عمّا يعرفه عن حميدان القتيل، أنه لا يعرف أكثر من أنه "خبل" وأنه يبحث عن أخيه منذ سنوات بعد أن تزوّج زوجته السورية، وأنه منذ ذلك الزمن وهو يعود بين فترات متقطّعة لهذا المنزل الذي اشتروه منذ فترة قريبة من شخص كان يمتلكه بعد أن باعه حمود أخو حميدان له.

سأله المُحقق عما إذا كان يعرف مكان حمود؟ فأجاب بالنفي، لا يعرف ولا يهمّه أن يعرف، وما يهمّه هو ولده الذي ظُلم في قضية

كهذه من أجل "خبل" مثل حميدان.

شعر المُحقق أنّه في دوامة لغز، فعاود طرح أسئلته:

– عندك فكره لماذا تزوّج حمود زوجة أخيه؟

– كل ما أعرفه أنّها أجبرت حميدان على تطليقها، وبعد العدّة تزوّجت أخاه، ثم ألا ترى أنّك تبحث في الاتجاه الخطأ؟!

التمعت عينا الضابط: كيف عرفت؟

ارتبك على فلتَة لسانه: يعني حكاية حميدان وأخيه صار لها سنوات... و...

صمت. تكسرت اللغة على شفتيه. فتحرّك مؤشر في ضمير الضابط ولزم الصمت للحظات ثم سأله عن مصدر معلوماته عن حميدان، فأجابه أنّ كل البلد مصدره. كلّ المنطقة تعرف حكاية حميدان الخبل الذي فقد عقله منذ تزوّجت زوجته أخاه.

تنقلب ملامح فهّاد والضابط المحقّق يُخبره أنَّ عَليه أن يعرف أنه إذا ثبت أنّ ولده هو الجاني فسيُقتصّ منه وسيُنفّذ فيه حكم الشرع. تكسّر شموخه، تهدّلت كتفاه وعضّ على شفته السفلى.

مضت الأيام سريعة والطوق يزداد على مُطلق الذي نصحه والده بالاعتراف، فقد يُساعد ذلك في تخفيف الحكم عليه.

فدخل في غياهب هذيان عاصف، مسجّى الجسد ملتصقاً بالجدار ووجهه له. يتخيّل ساحة القصاص وهو يُقاد مُكبّل اليدين والجماهير الغفيرة تتشظّى النظر إلى لحظة قطاف روحه، ثم وهو يجثو على ركبتيه بوجه موارى والسيّاف من خلفه يتلو عليه الشهادتين.

يتجسّد المشهد في وعيه فيأخذ في الارتعاش مع تداعي ضربة

السيّاف في ضميره. يبصر الدم يشخب من بلعومه و"يطشّ" مصحوباً بشخير انفلات الروح تَعبر أُفق ظلامه وتميل رقبته، فيصرخ صرخة هادرة تنطلق من أعماق روحة، تُعانق قلب أمّه المفجوع والذي ترنّ أصداؤه في فضاء سرمديّ فيغرق في النحيب وينهمر حواره الداخلي الذي لا يتوقف:

حميدان...

رُبما كنتُ ميتاً مثلك الآن، وربما كنت حيّاً، لست متيقّناً من شيء، ربما كنت في القبر الذي يجاورك! قتلتك... فقتلتني، أطلقت عليك رصاصتي فصرعتني بجانبك، غبت عن المشهد... فسحبتني إلى جوارك، ها أنت تقف أمامي الآن مُسدّداً نظراتك إلى قلبي... ترقد بسلام بينما أغوص في ظلمات تندلق منها همهمات لا تتوقّف عن الضجيج تأكل صدري كدود لا يتوقف عن السعار والخشخشه.

لو تعرف كم أنتَ محظوظ... تنام قريرَ العين... مطمئناً، فلا معاول تضرب في دماغك ليل نهار، ولا عرق يرشحُ من مسامّك ساخناً مالحاً، ولا كائنات غريبة، كلّها أياد وأرجل تعبر أوردتك وتهرش دماغك دون توقّف. لا كائنات لزجة هلامية تتهامى على جلدك وكأنه مستعمرة مباحة، تعال لنتحاكم... أنت الظالم... لست أنا... أنت القاتل اليومي وأنا الضحيّة، تعال... أو خذني إليك.

أشبع ناظريك ببئري الذي لا قرار له... ظلام دامس مُروّع، صراخ ذبيح يتردّد في الروح ولا يبرحها، والأفق سقط من سمائي وتلوّن

بغربان تنعق شؤمها فتزيد ظلامي، تعال... كفّ عن مباغتتي هازئاً
بسقوطي... تعال... أو خذني إليك...

خذني...

تعال...

تعال...

ارتياب

"ما أجمل أن تبدأ صباحك بوجه يبتسم."

قالها راشد حين دخل جعفر صامتاً بوجه مُعتم، وعلّق بحماسة فاترة أنّ أحد أعضاء اللجنة الفنّية الدينية صعّد الموقف ورفع الموضوع إلى هيئة كبار العلماء في الوزارة التي ارتأت أنّ إفساح كتاباً كهذا يفتح الباب على مصراعيه لانحرافات عقائدية، وعليه لا بدّ من معاقبة من أفسحه وألاّ يُكتفى بالاعتذار أو ذكر المبرّرات!

تنهّد وغرق في صمت للحظات ثم استطرد أنّه جاء قرار بنقلهم نقلاً تأديبياً إلى الجنوب، على أن يتمّ ذلك في مدة لا تتجاوز الأسبوعين.

صمت راشد مفكّراً، ثم ارتفعت مُقدّمة حاجبه الأيمن وومضت عيناه وهو يُعيد قراءة تضاريس مجتمعه الذي يُصرّ على عدم التخلّص من الموروث الذي تَربّى عليه:

– الأمر لا يخلو من الصعوبة من ناحية عائلية لكن لكلّ شيء ثمنه وسعره، ويتحتّم علينا كمرحلة أوّلية رفع تَظلُّم وانتظار نتيجة هذا التظلّم، فقانوناً تلزمنا ثلاثة أشهر لتنفيذ هذا القرار لا أسبوعان، فإذا

لم يؤدِ إلى نتيجة، فإنّ علينا مُباشرة العمل، وحتماً هناك تجربة إنسانية تُثري بانتظارنا.

قرأ جعفر بحبّ عميق ملامح صديقه المُندسّة في النصوص برحيق تأنيب ضمير أنه ورّط صاحبه معه. تفرّس تقاطيعه... عادت به الصورة إلى المنازل القديمة... إلى البيوت الطين وأغصان الرُطب المُتدلية في الأزمنة الآفلة.

راشد في السابعة من خُطى العمر، يسير في أزقة "سنابس" قريباً من منزلهم المجاور لمنزل جعفر، يتقافز قرب والده وفي يده بالونات مُلوّنة، ينظر إليها بنشوة وهي تترنّح بالحبل الذي يطيحها يميناً ويساراً مع خفقات الريح التي تتسلّل لثيابهما وتنفخهما كبالونات مُعبّأة بالهواء. ينظر إليها جعفر الذي يمسك بيده الطفلة يدَ راشد الأخرى، وما إن تضحك الشمس حتى يبدآن يومهما في طقوس ملوّنة من الضحك والمرح متّجهَين للمدرسة والفصل ذاتهما.

وحين تنامى العمر وتبدّلت سماحة القلوب وارتدت الحياة أردية الظلام، تقاسما الحلم وعذب الأماني ورغيف الدرب الذي لم يخلُ من مُنغّصات الوشوشات التي تتهامس على صحبتهما في استهجان رافض لا يمنح صداقتهما إلاّ مزيداً من التجذّر.

يستعيد سعار الوعي القاصر لأحدهم وهو يُفرّق التصاق الصديقين الماضيين، حين أقلقته صُحبتهما.

ينتحي براشد جانباً:

– أضعت الدرب وانحرفت عن المسار... عامل بالحسنى ولا تُصاحب.

– هو جاري وصديق عمري والطفولة.

– "لكم دينكم ولي دين".

– الله يجزاك خير لكنّه مُسلم لا يهوديّ وحتى لو...

يلمح جعفر أياديهما وهما يتجادلان. يبلغه صوت الرجل يعلو وهو يردّ على تعنّت راشد وتمسّكه:

– أنتَ تخرج عنّا... انتبه.

يلوح له راشد بيده أنّ هذا ليس شأنه ثم يمضي ويتركه...

تُراب روحه يغصّ بالملح وينزّ قرفاً وحُرقةً تأكل صدرَه. يتقاطر وجعه وملامحه لا تزال تحتضن ملامح صديقه وتحتضنها:

– ورّطتك؟

– لست قاصراً. كنّا مقتنعَين بما نفعل، لا تؤنّب نفسك.

لكنّ العبارة لا تمسح ما علق بروحه من مرارة. يتسلّل ما في روحه إلى روح راشد الذي رفع بصره قائلاً:

– زقزقة صاحبي اليوم حزينة... واصلتني!

– الله عليك يا فنّان... أحبّ شاعريّتك.

– أنتَ طول عمرك ما انحنيت... انتفض... أعرفك نسراً.

– محتاج هواء نقي... مخنوق.

– طيّب روح البيت وسآخذ لك إذناً.

بدون كلام لملم جعفر أوراقه وانسحب بصمت، غارقاً في الأفكار الكابية وقد انطفأت فوانيسه وخمد فتيلها. يزفر كمّاً من الهواء احتبس في صدره وهو يخرج من مبنى الوزارة متّجهاً إلى سيارته:

هل كنّا مخدوعين بالغد الواعد فأسأت قراءة ملامحه؟ تراني كنت

حالماً فجنحت؟ هل انفتاحي وراشد على مستوى الذّات وسكونه في تلافيف الروح ضلّلني وغيّب حقيقة كون المجتمع يُمارس طائفيّة فجّة تعامت عنها بزعم الوعي والثقافة؟

يقذف بجسده المُنهك في شحوب سيارته، يقوده قلقه وضياع أفكاره. ينظر إلى سحنته في مرآة السيارة، تعكس المرآة صُفرة ملامحه وتكسّر شراع الأمل في نظرة عينيه الخابية، وإسفين انكسار دقّ أشرعته المتهاوية في قلبه.

باتت النظرة إلى الغد في عيني جعفر مُحمّلة بالارتياب وأوزار الغربة التي تتطاول، ما عاد الفؤاد ريّاناً قادراً على تعاطي الحُلم. غمر روحه الخوفُ من المصير الغائم وقد باتت رائحة القلق تُزكمه وتهبه أرقاً أضنى وسادته.

يرتجف ويتصبّب عرقاً

كأنه لم يعبر.

وكأنّ قلبه الذي نبض بأعذب المشاعر وأحرّها لا قيمة له.

فالمشاعر قيمتها عند مُلاّكها.

ساحة العزاء ممتدّة في منزلِ مصلح أبو منصور والد أمل وهو الأخ الأكبر لحميدان، لاستقبال المعزّين. هو عزاء واجب فلا أحد يعنيه حميدان "الخبل"، لا حياته ولا موته. هو واجب شكليّ حتى إلى مصلح الذي لم يأبه يوماً لشأن أخيه أو يأويه من قارعة الطريق حين غاب عقله. واجب عزاء ونحن خير من يُقيم العزاءات ويُجيد النحيب، حين عفّت سماواتنا عن البهجة، وغادرتها النوارس بكلّ ما تحمله من عشق وشجن وتوق إلى التحليق والحرية.

وغصّت صالة النساء بالمُعزّيات، وعلى غير العادة لا أحد يبكي حميدان، خبل... أراح واستراح، يتعازمون على الاحتفاء بذبحه ويتداولون شرب الشاي، فقط أمل التي انتبذت ركناً قصيّاً محتضنة ركبتيها وكفّها على مقدمة جبينها، بينما بقايا دموع ملتصقة بأهدابها... تستعيد عمراً معه.

... أمل في تباشير المراهقة، في الثانية عشر من العمر، نضرة، جميلة، ومتفتحة للحياة، تُوشوش عمّها الذي بدأ في التحوّل إلى شخص منطو، صامت على الدوام أو يُحدّث نفسه بصوت عالٍ للحظات وكأنه يتحاور مع أحد ثم يعود إلى قوقعته. تذكر أنّ وضعه آلمها فاقتربت منه ووضعت كفّها الصغيرة تحت ذقنه:

– إيش فيك؟! مريض؟!

نظر إليها وكأنّه يحاول العودة من جبّ عميق. تأمّلها بشكل أثار في داخلها مشاعر الخوف. بدا وكأنّه ينظر إلى عدوّ يمتلئ بالحقد عليه... تراجعت خطواتها وهي تقول:

– يمّه... صرت تخوفني!

ثم عادت ووضعن يدها تحت ذقنه:

– أنتَ إش فيك؟

لمستها الحانية حرّكت شيئاً في داخله فأجهش في البكاء، حتى شعرت بسحابة حزن تنتقل إلى روحها فاحتضنته:

– أنتَ زعلان؟!

– بعد ما نفّذت طلبها وكتبت البيت باسمها، تبغى الطلاق... نكدت حياتي...غدرت فيني...

يقطع ذكرياتها انحناء بعض النسوة على خدّها لتعزيتها بالتناوب، علّقت الأخيرة هامسة:

– قولي للوالد يطلب فدية مليونين أو ثلاثة... استفيدوا يا بنتي.

انسلّت كالريشة من حضن المرأة وهوت إلى الأرض كلَوح جافّ.

صعقتها العبارة ورخُص روح الإنسان، بينما تجمّعت حولها النسوة في دهشة:

– عمرك أطول، تقتلين نفسك من أجل "خبل"... ذهب في رحمة ربّه.

– بكره سيترك لكم بالفدية كنز، ستعيشين أنعم عيشة، الله يرحمه.

– لم تستفيدوا منه حيّاً استفيدوا منه ميتاً.

تنظر إلى البعيد وصورة واحدة عالقة بذاكرتها: حميدان يسير في الشوارع التي باتت راصداً حقيقياً لتاريخه بعد أن غدت ملاذه. بهيئته المُنكسرة وملابسه التي علاها صفار الأوساخ بينما شماغه "رزّه" وقد انتحل عوده وترك ذقنه في غير تشذيب أشبه بالزغب مُحدّثاً نفسه بصوت عالٍ كأنّ هناك من يتحاور معه بحدة. يسير كحيوان برّي وقد ارتوت جروحه بملحها، دون أن يشعر بالخارج مقدار شعوره بالعوالم داخله، وزفة ساخرة من أبناء الحي تُلاحقه بعبارات ساخرة، كثيراً ما تنامت إلى قذفه بالحجارة وعلب الكولا الفارغه، وهو يلتفت يميناً وشمالاً مطيحاً يديه في مشيه وقد بات عالمه الداخلي بكلّ الأوهام التي فيه هي الطافية على السطح... وهي الواقع المعيش.

عاش أياماً مُختلياً في البراري، يرتجف ويتصبّب عرقاً. اختلط بكاؤه بسيلان أنفه فلا يُفرّق بينهما. دم الخيانة الراعف أَحال الكون إلى صمت مُطبق ينتشي معه صديد الذكريات فيفيض قيئاً وغثياناً صاخباً. مهما يصرخ يبقى صوته حبيس قلبه، فتداخلت الحقائق بالكوابيس في ذهنه، أخذ عقله بعدها تذكرة ذهاب... بلا عودة.

تَعانقَ مع الأمل حيّاً في أن يبلغ أخاه، فقط ليزيح عن كاهله حمل

سؤال أثقل صدره ليواجهه به، كيف تَقَزَّم الدم أمام الشهوة؟!! فتبدّى له من عالمه البرزخي ما حدث حين كان سائحاً في الأيام الخالية، واستدار عنه بلا ألم... أو انتماء... بات شأنهما لا يعنيه في عالمه الأرحب، بعد أن أمضى حياته مُصرّاً على بلوغ هدفه، لم يمنعه عقله الذي غاب، و لم يفتر رغم كونه منبوذاً من مجتمعه ومطارداً من رجال الأمن، كونه المخرّب الذي تجاوز بفوضويته أيّ التزام تجاه ذاته وتجاه الآخرين، فلم يبقَ مَحلّ إلا وهشّم واجهته و لم تبقَ سيارة إلا وحطّم نوافذها، لا لشيء ولا لهدف، لا سبب ظاهر لذلك، ولا يوجد من يعنيه تفسير الأسباب الكامنة، فنحن لا نبالي إلا بالقشور، أما الكامن لا نُجهد أنفسنا بالغوص فيه، رُبما حتى لا نُكلّف أنفسنا عناء البحث عن إعاقاتنا التي تطرأ علينا.

حميدان... فقد ذاته... وكان فقدانه لذاته وجوداً بحدّ ذاته، أراد أن يخلق علاقة حيّة بينه وبين ما حوله فلم يُسعفه في ما بقي من وعيه سوى هذا الشكل... لعلاقة كهذه.

ضنى الحواسّ

أزقة سيهات الضيقة معجونة بثرثرة ممتدّة في الفضاء، بينما سماؤها مصفرّة على الدوام بصفرة كامدة.

من الزاوية اليمنى يخرج السيد حبيب الوسيم (بو جعفر) بابتسامته النابضة بالطيبة والتسامح على الدوام. يُغلق الباب وهو يوصي ابنته زهره بالذهاب مع والدتها "المُلاّية" لحضور الفاتحة بعد صلاة المغرب في الحسينية.

يَنفلت من أسر المنازل الصغيرة المتواضعة والمُتراصّة قرب منزله، حيث تنتصب على يمينه ورشة سيارات ثم منعطف ضيّق ينحدر إلى الحسينية، وتقف مقبرة سيهات الكبيرة في الشارع المقابل. يلمح أمامها الطاولات الممتدة لشباب يبيعون الأشرطة الدينية، واللطميات وبعض الكتيّبات.

يجلس على بقعة إسمنتية. يرفع وجهه الأبيض الطافح بالبشر والممتلئ بتعرّجات زمن لم يرحم بياض قلبه وروحه الزاخرة بعطر أليف، فوسم بأحداثه العظام خارطة ملامحه. يُشعُّ بريق النهايات من عينيه الثاقبتين وهو يعبر بهما على الناس المُتجمهرين لشراء الأشرطة.

يعبر شاب بيده كيس لجمع تبرّعات من المُشترين والمارّة لمساعدة أحد المعوزين.

– ردّت عانيّه... يالله بويه...

– ماجورين خيوو... رحم الله والديك.

صوت الرادود حسين الأكرف يتمدّد في أفق المغيب في بُكائيّة للحُسين:

ما غيرك ذوَّب عيني

عيني من أنصارك... ثارك... تحمله

والمدمع نارك... نارك... تهمله...

ينحرف بصره نحو باب المقبرة الأسود الكبير، ثم يُطرق. يلتقط عوداً وينكث به الأرض بهدوء. يمتدّ بصره مرتفعاً نحو أعلى المقبرة ذات الجدران المُرتفعه، يلمح علماً أسود يرتكز على قمّة المقبرة، يُرفرف العلم وعينا بو جعفر تتابعان رفرفته. العلم الأسود تتّسع رقعته... تتّسع... يتقعّر وسطه... التراجيديا الدمويّة لمصرع الحسين تتوسط العلم... المشهد السجالي يتجسّد على صفحة الامتداد الحالك، تتداخل الصور في مشاهد بطيئة:

٦١ هـ تعبر أفق المشهد... أقدام الحسين تسير في أرض صحراوية والشمس تحتضن السماء. يزيد بن معاويه يرفع يده طالباً البيعة. ضوء الحسين يُضيء العلم. يستدير رافضاً إعطاء البيعة ليزيد. الحسين يُرسل ابن عمه مُسلم بن عقيل ليتقصّى الأمور. يزيد بن معاوية في الشام يُرسل إلى عبيد الله بن زياد ليمنع أهل الكوفة من الخروج عليه مع الحسين.

مُسلم بن عقيل يخرج على عبيد الله بن زياد ويحاصر قصره بأربعة آلاف من مؤيّديه. رجال مُسلم ينصرفون عنه واحداً واحداً. الشمس تجنح إلى المغيب. مُسلم بن عقيل وحيداً. عبيد الله بن زياد يأمر بقتله. مُسلم يطلب أن يُرسل رسالة إلى الحسين. رسالة مسلم تتوسط المشهد: "ارجع بأهلك ولا يَغُرَّنَك أهل الكوفة فإنّ أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لكاذب رأي."

تصل الرسالة إلى الحُسين. الصحابة يمنعونه من الخروج من مكّة لكنه يخرج. ابن عمر يَعانق الحسين باكياً ثم يُلوح له "أستودعك الله من قتيل." الحُسين يلتقي في كربلاء بخيول يزيد بقيادة عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن.

نهر الفرات يَسطع كخلفية للحُرّ بن يزيد الرياحي وعمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وهم يتجادلون بحدّة. الحُرّ يصرف وجه فرسه، وينطلق إلى الحسين وأصحابه. الحُرّ يقلب ترسه ويسلّم عليهم، ثم يكرّ على أصحاب ابن زياد فيقاتلهم. يسقط الحُر مضرّجاً بدمائه.

رجال الحُسين يحيطونه من كلّ الجهات في محاولة باسلة لحماية حياته. يتساقطون حتى آخر رجل. الحُسين يزأر كالأسد وحيداً إلاّ من إيمانه. شمر بن ذي الجوشن يرمي الحُسين برمح فيُسقطه أرضاً. بن ذي الجوشن يَجزّ رأس الحسين. غربان سوداء تتطاير فوق الجثث ويعلو زعيقها. يُحمل رأس الحسين إلى يزيد. يدخل ورجاله في دائرة تضيق عليهم وتُعتم تدريجياً. يتوهّج الأُفق. يُتابع نهر الفرات جريانه الأحمر.

يُغمض أبو جعفر عينيه وصوت آذان المغرب يرتفع في سماء

سيهات. ينهض والصورة التي سحبته تتداعى ظلالها في روحه وهو يهمس "اللهم صلّ على محمد وآل محمد".

* * *

وتوطّدت صلة أم راشد بكائناتها الصغيرة. هرعت لالتقاط أحد القطط الصغيرة كان بطنه قد انتفخ يوماً تلو الآخر ثم مات. لحقت بها أُمّه وهي تموء.

ارتفع صوتها منادية عبد الرحمن ليُلقي به في الخارج حتى لا تراه أمه، فسألها عن سرّ موته:

- يمّك يبدو أنه لا توجد بهم فتحة خروج، يرضعون فقط ثم لا يتم التخلص من الفضلات لعدم وجود فتحة... ومات.

- كيف لا توجد فتحة خروج؟!!

تُشير له على الموضع، فيقول بأسف:

- طيب ألم يكن هناك حلّ بالإمكان عمله كي لا يموت؟

- يمّك أنا ما أعرف.

القطة تموء حولهما يحرثها الجزع الغريزيّ على صغيرها. يشعر عبد الرحمن بالحزن من أجلها، لكنّه يُسارع بأخذ القطّ المتوفي ويُلقي به خارجاً. يعود ليُقَبّل أمه في خدّها قُبلات سريعة متتالية بشقاوة وهو يُخبرها أنّه خارج إلى النادي الرياضي... ثم يلتفت لها مداعباً:

- حين أُقدم على الزّواج ابحثي لي عمّن لها خدود متوردّه مثلك.

تقذفه بمنشفة في يدها:

- ألا تَكُفّ عن شقاوتك.

يعود أدراجه ليُقَبّلها مرةً أُخرى ثم يَعضّ على شفته السُفلى وهو يُسبّل عينيه:

- أحبك أنتَ يا حلو يا أسمر.

تنتعش أوردتها وتضجّ سعادة بروحه الرحبة المبتهجة على الدوام فتحتضنه، ويتملّص من أحضانها:

- أووو... شوي شوي من تظنيني... الريِّس؟!!

تُعاود قذفه بالمنشفة وهو يخرج ضاحكاً وصوتها يتبعه:

- هيِّن يا ولد الريِّس... أورّيك.

الركن الملاصق للجدار

مشغولة بترنيم أغنية حزينة اسمها حميدان، راحت تستعيد أمسه وهي تنزل الدرج صباحاً مع ابنها يحيى لتصحبه أولاً إلى مدرسته القريبة ثم الذهاب إلى مدرستها.

عبرت الصورة التي شهدتها مراراً في سوق النساء الكبير حين كانت تراه في ساحته يفترش الأرض وقد لمّ قدميه في جلسة القرفصاء وكأنه في بيته لا يبالي بالعابرين المتطفّلين، مُحتضناً جهاز تسجيل صغير يهتزّ معه ويَترنّم مع صوت أم كلثوم دون أن يعترضه أحد رغم أنه يجلس قرب مسجد السوق وقريباً من تكيّة للتسجيلات الدينية، ربما لأنه قرب بيت من بيوت الله، طوّقته رحمته و لم يؤذه في هذا الموضع أحدٌ خاصة حين ينساب صوت "الستّ" في الفضاء. قلوب مرتادي ذلك المسجد حتماً معجونة بالبياض والرأفة.

تفوح رائحة بخور في ذاكرة أمل يتصاعد عبقه من الباعة النسوة اللاتي افترشن ساحة السوق قرب حميدان، ودهشة تنزرع في صدرها كيف خانته ذاكرته في كلّ شيء حتى التعرّف عليها و لم تخنه في نسيان الخيانة المزدوجة، حين كسرت حوّاء ضلعه بمعول من نار.

جُرح غائر لا يَفتأ يذكره بل هو ماؤه وملحه. يُغمض عينيه ويتمايل وترانيم حنجرته التي نُحتَ فيها كلّ حرف من ذات الأغنية تترنّم باللحن ثم الغناء الذي تُلي من شغافه وبلّل روحه. يتبدّل لونه وتطفو على ملامحه أنثى سقطت وقلب جريح، وتطوف في عينيه نسائم مُعشبة ثم تعصف ريح تشلّه في وجعه فلا يبرحه:

أكاد أشكّ في نفسي... لأني... أكاد أشكّ فيك وأنتَ منّي...

يقول الناس إنّك خُنت عهدي... ولم تحفظ هواي ولم تصنّي

وأنتَ مناي أجمعها مشت بي... إليكَ خُطى الشباب المطمئن

يمدّ أذرعته ويمايلها مُحلّقاً لا يبصر سوى عالمه: آآآآ... آآآآ... آآآآ...

ثم يخرج عن اللحن وعن باقي الأغنية مكرّراً مرّات عديدة وقد أوغل في جرحه:

يقول الناس إنّك خُنت عهدي... ولم تحفظ هواي ولم تصنّي

وحين تعود العبارة التي تلامس وجعه يعود إلى جو الأغنية:

وكم طافت عليّ ظلال شك... أقضّت مضجعي واستعبدتني

يُحلّق في عوالمه دون أن يُبصر المتجمهرين حوله أو يُعيرهم أدنى التفات:

أجبني... إذ سألتك هل صحيحٌ... .... حديث الناس... خُنت... ألم تخني؟

حين تصل الأغنية إلى هذا المقطع يلتقط جهازه ويقف. يدور حول نفسه مكرّراً بوجع طاحن ودموعه تتهادى على وجنتيه:

أجبني... إذ سألتك هل صحيحٌ.... حديث الناس...

خُنت؟... ألم تخنّي...؟

خُنت...؟

ألم تخنّي...؟

ثم ينطلق في ردهات السوق راكضاً دون أن يعترضه أحد المارة فقد اعتادوا عليه ومن لم يعتاده يلزم الفرجة جرياً على ما يراه من عدم اعتراض أحد له.

تبتلع قهرها حين بلغت المدرسة الثانوية. تُحيي الطالبات ثم تضع دفتر التحضير، فتباغتها صالحة، ريّانة الأنوثة، الشهيرة باللقافة واستعراض العضلات رغم طيبتها وكونها "راعية فزعة" بين زميلاتها:

– أبلة فيه طالبتين جدد.

تلتفت إلى الأمام وهي تنظر إلى صالحة التي تشير نحوهما:

– أبلة أليسا الحلوة هذه... من جماعتنا من الجنوب واسمها زينة وهي اسم على مُسمى، مثلنا جميعاً أهل الجنوب، الحَلَى والقَبله فينا على رأي بدرية راعية القصيم، وأم عيون عسلية التي في الآخر وتُشبه الممثلة ليلى فوزي بس على حجم صغير اسمها نشمية وهي من الشمال.

تبتسم أمل بهدوء وبمغزى يصل صالحة:

– إن شاء الله بس يكونوا شاطرين وما يتعبوني؟

– أبلة لكِ عليهم... هُم هَه... نُص نُص.

تستكين ابتسامة أمل على شفتيها وتلمح الابتسام على وجوه الطالبات وهي تسير في الفصل لتتأكّد من حلّ الواجب الذي طلبته قبل إجازتها الإجبارية.

تمرّ على عجل حتى تبلغ طاولة منى، ذات الشخصية القوية كما

صالحة وإن كانت أكثر وقاراً، وذات أنوثة متفجّرة رغم محاولتها طمسها. بدينة ببثور كبيرة في صفحة وجهها وبعض الشعر الخشن في ذقنها.

ترفع منى رأسها وهي تتأمّل ملامح أمل التي تنظر إلى الواجب. نظراتها على صدر أمل وخصرها ثم وكأنها بهدوء تستنشق رائحتها:

– أبلة إيش اسم عطرك؟

تُفاجأ بالسؤال لكنّها تجيب بهدوء دون أن ترفع رأسها عن الواجب: pleasure بليجر،

وتُكمل سيرها للركن المتبقي الملاصق للجدار، بينما تتبعها نظرات منى وهي تقوم بحركة استنشاق عبير عطرها وتنظر إلى صالحة التي فتحت عينيها على اتساعهما وهي تلمح إشارة منى لها وتُدخل شفتيها إلى الداخل ثم تعض على السفلى وتتنهد هامسة إلى صالحة:

– موووت.

تسارع صالحة وكأنها شعرت أنّ منى ستسرق الأضواء منها قائلة:

– أبلة وش معناها ple......؟

تعجز عن نطقها فتُكمل بثقة:

– اللي قلتيها.

تردّ بهدوء وهي تُصحّح الدفاتر دون أن تلتفت أو ترفع رأسها:

– يعني بهجة... وانهضي على السبورة لتكتبي جملة فيها ماضي مستمر؟

وكأن صالحة وقعت في مطب تردّ:

– ما احنا كنا كويّسين، ليه يا أبلة بس...؟ أبلة والله أني أحبك.

يضجّ الفصل بالضحك، بينما تمرّ أمل على نشمية الطالبة الجديدة، تمسح على كتفها بحنان لعلمها المسبق أنها لم تحلّ الواجب لعدم وجودها حين طلبت ذلك ثم تعبرها قائلة:

– وأنا أحبك يا صالحة، لكنّك ستكتبين جملة على السبورة فيها ماضي مُستمر.

– مُصرّة يا أبلة... يعني ما فيه مجال للتفاهم؟

تلتفت نحوها بحسم:

– مُصرّة يا صالحة، ولا تضيعي الوقت.

– بصراحة أبلة أنا ما أعرف.

تتعالى أصوات الطالبات مع رفع أيديهم لوضع الجملة. تُشير أمل بيدها على زينة التي تقف وتجيب قبل أن تخرج على السبورة، وبحماسة ترد أمل:

– excellent. excellent .. أحسنتِ، اكتبيها على السبورة... وصالحة انتبهي لأني سأسألك مرة أخرى، والباقي يغلق الدفاتر وينتبه للسبورة.

تعود زينة إلى مكانها، وتتجه أمل إلى السبورة لشرح الدرس الجديد.

ورغم ضيق مساحة الحُلم في لحظات الدرس، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع منيرة الطالبة الحالمة من التحليق، فراحت تخاتل العيون وتسحب كرّاستها السرّية من الدرج بهدوء وتفتحها على صورة شاب على مشارف الثلاثين، أسمر... ذي نظرات تُشعّ ذكاءً وجاذبيّة. كانت قد سلبت صورته من غرفته أثناء غيابه، وتغافلها لأمّها وأمّه في زيارة

لهم وهم الجيران الملاصقين لمنزلهم وإن كانوا أكثرَ عوزاً وحاجة رغم سكنهم في حيٍّ راقٍ، بقايا عزّ لم يدم حين لم يدم لربِّ البيت اخضرار فيه، فغادر مبكراً حيث الحياة الباقية.

تشرد في الصورة وهي تتحسّس ملامحه، ثم تنظر إلى النافذة مُحمّلة الغيب حلماً يندسّ في أحداقها. تنظر إلى الأفق، تُسافر خلاله حيث يسكن فارسها، باب منزلها يلتمع في أحداق الذاكرة. نافذة غرفتها في الطابق الثاني حيث تقف دوماً كي تراه عند ذهابه وإيابه. تتذكّر مشيته الواثقة... وجهه الذي يَشي بالتسامح... وابتسامته.

تقترب الصورة الحقيقية. يفتح الباب ويخرج متوجهاً لسيارته. يَرفع وجهه ليلتفت على نداء خلفه:

– أحضر معك دجاجاً ولحماً عشان القطة... اهترأت عظامها من التونة.

يبتسم وهو يرفع يده مُلوحاً، ثم يتعكّر ما بين حاجبيه وهو يجنحُ إلى مطاردة أفكاره:

كيف يصدر قرار فصل لنا ونحن لم نعترض على تطبيق النقل؟!! رفعنا تظلّم وكنّا ننتظر الردّ، صحيح تأخّرنا في الذّهاب لكن من الطبيعي ذلك، فأسبوعان فترة غير كافية لتغيير دفّة حياة، إضافة إلى كوننا ننتظر نتيجة التظلّم!

يتجه نحو طريق سيهات التي انتقلت إليها عائلة جعفر قبل ثمانية عشر عاماً وانتقلت عائلة راشد إلى الدّمام ورأسه يضجّ بالأفكار.

يعبر في طريقه المدرسة الثانوية التي تدرّس فيها أمل ومنيرة الطالبة الحالمة. بنت الجيران التي تهواه دون علمه. يقف بصره على لوحة

المدرسة ثم ينزلق بصره على باب المدرسة المفتوح. حارس المدرسة يقف أمامه ويبدو أنه يُحدث إحدى المدرّسات التي تتوارى خلف الباب مادّة يدها بنقود لإحضار إفطار لها ولزميلاتها. يتناول المبلغ ويُغلق الباب وتعود أدراجها وجرس الحصة الثانية يدق معلناً بدء الحصة الثالثة.

تتسارع خطواتها فلديها حصّة في صفّ أوّل ثانوي/ ثاني حيث صالحة تتحسّس ذقن منى الخشن قائلة:

– والله "الحلاوة" أحسن لك... يا أختي الموس يخليه ينبت خشن كأنّه ذقن رجال.

– وش تبغيني أسوي؟ عجزت... أنزعه اليوم بعد ثلاثة أيام ينمو من جديد... تعبت.

تتدخل طالبة أخرى:

– الأفضل أن تذهبي إلى دكتورة تُنظم لك عمل الهرمونات، واضح عندك اضطراب هرموني.

تردّ صالحة وقد اتّقد خيالها ومدّت سواحله جهة الأرض فمواضيع كهذه تستهوي أُنسها:

– أقول، واسأليها بالمرّه يصير تتحوّلين ولد. يمكن تكون هرمونات الذكورة عندك أكثر وتتحوّلين، وبعدين تدوّرين عن بنت حلال تتزوجينها وطبعاً تختاريني لأني صديقتك... ولو أنّ أهلي ما يوافقون... لكن ما عليه عشان خاطر عيونك... أتحداهم وأتزوجك ونتصدّر صفحات الجرايد.

– ومن قال لك إن تحوّلت باختارك؟! لو تحوّلت باخذ ثأري من

الرجال كلّهم، باعرف كلّ يوم بنت، وأتقابل معها وأوعدها بالزواج بعدين اتركها حتى تترجّاني وتكتب فيّ أشعار وأنا "صافطها"، يعني أوّل ما أصير حرّة أروح أتزوّج! صح ما عندك سالفة!

– أفاااا، ياذكية إنتِ كذا انتقمتي من البنات مهو من الرجال، خلاص لا تتحولين... أنتِ إن تحولتي تنحرفين، خلّك معنا "أزين" على رأي بدرية القصيمية، صح يا بدرية؟

تردّ بدريه بتلقائية:

– والله أزين له تصير رجّال، وشهو له عوار القلب مع الحريّم.

تدخل مُعلمة التاريخ مقطبة الجبين. تضع دفتر التحضير وتأخذ نفساً عميقاً وتنفث غضبها:

– أنا شفت بنات وقحات وغير مترّبيات لكن مثلكن... لم أرَ.

تتلفّت الطالبات بعضهم إلى بعض في دهشة بينما ترفع صالحة يدها محتجّة:

– لو سمحتي أبلة نحن متربيات.

تصرخ بعصبية:

– ما أبغى أسمع صوت واحدة فيكم، قلة الأدب هذي لازم ينوضع لها حد.

الطالبات يتبادلن النظرات بحنق ورفض، بينما تنفلت منى قائلة ببرودتها المعهودة:

– والله لا احنا غير متربيات ولا قليلات أدب .. واحترمي نفسك يا أبلة.

تنفلت آهة رعب من الطالبات على عبارة منى بينما تثور دماء

الغضب في رأس المعلمة التي وضعت يديها في خصرها تهتز انفعالاً:

– قومي واقفة.

تردّ بهدوء وتحدٍ:

– ماني قايمة... احنا مش قليلات أدب... ماني قايمة!

تعبر في ذهنها تعاميم وزارة التربية والتعليم التي تقف عائقاً بين المعلمة وبين أن توقف طالبة كهذه عند حدّها، فتلوذ بالصراخ مدارية عجزها:

– قليلات أدب ونصّ، وإلاّ إيش معنى أن تكتب طالبة على جدار الفصل من الخلف "طز في أبلة فتحية الشمبانزي" إيش أقول عنها... مؤدبة؟... والثانية التي ألصقت صورة راشد الماجد في قلب كراستها وكاتبة أسفلها أحبك... إيش اسمه هذا... أدب؟؟!

ترفع صالحة يديها إشارة انتباه:

– أبلة إنتِ عمّمتي، وحده كاتبة طز فيكِ كيف عرفتي من هي؟! ويمكن ما تكون حتى من فصلنا! ليه تعممين علينا؟ بعدين اللي حاطه صورة حبيب الكل راشد الماجد، هذا شأنها وما هو شأنك، بنات مراهقات يعبّرن عن مشاعرهن، تُدخلين نفسك في شؤننا ليه! نحن في سنّ خطرة، فورة وثورة الأنوثة.

تُصفق منى لها وتتبعها بعض الطالبات في تصفيق حادّ لصالحة التي فردت ظهرها وقد أخذت وضعها الاستعراضي، بينما ذابت شخصية المدرسة وحارت كيف تخرج من هذا الموقف بكرامتها، فلم تجد سوى أن تُحافظ على عصبيتها قائلة:

– والله لأدفعكن الثمن غالياً.

تتجه إلى مقعدها قائلة:

– افتحوا على (تاريخ الدولة العباسية) واعتبروا الدرس شُرِح وكلّ الدروس التي تليه في هذا الشهر وستأتي في الامتحان.

تردّ منى ببرود:

– ما تقدرين... والله نشتكيكِ.

تشعر بالمهانة والاستفزاز من عبارة منى ويفور مرجلها، فتتّجه نحوها تشدها من زاوية كتفها:

– قومي... قومي واقفه.

قالتها وهي لا تعرف لو وقفت منى ماذا ستفعل بعد ذلك، لكن منى بقيت مُتصلّبة في كرسيّها.

تعاود شدّها صارخة:

– قومي واقفـــ...

يقطع حدّة الموقف دخول المراقبة:

– أوقفي عليهن إحدى الطالبات وتعالي بسرعة... (جاءت المشرفة).

تتركها بحركة تدلّ على الاحتقار لتنتقم لذاتها موجّهة حديثها لإحداهن:

– قفي عليهن واكتبي اسم من تتكلم بصوت عالٍ أو تتحرك من مكانها.

تخرج وتتبعها هزيمتها وثرثرة الطالبات، بينما ترفع منى ببرودة قاتلة أذرعها ليتناوب رسغاها على طرق نوافذ جبينها في حركات متعاكسة ساخرة، للازمة الشهيرة لشعبان عبد الرحيم (شعبولا):

– هييه... هييييه...

ما بخفش وانتَ عارف... أنا ممكن أعمل أيه

أنا اللي يييعني أبيعه... ما اندمش فيوم عليه

صحيح أنا قلبي طيب... صحيح مليان حنين

بس اللي يسيبني أسيبه... أنساه لو هوَ...

الفصل في صوت واحد وأذرعهن تتناوب أرساغها على الجبين في حركات متضادة:

– أبييه.

منى: أنساه لو هوَه؟

الفصل: أبييه.

يضج الفصل بضحك هادر.

إيقاع

وعلى عتبات رخام حيّ طلال يفتح راشد الباب الخارجي لداره. يدلف إلى الصالون الذي تَروي مساحات سكونه حجم السلام في صدور ساكنيه.

يتسرّب قلق ينزّ وشوشات غامضة وأغنية لعبدالحليم مرتفعة الصوت تنتهك ألفة السكون من حوله قادمة من غرفة عبد الرحمن:

... وعانقتني... وألقت... برأسها فوق كتفي

تباعدت وتدانت... كإصبعين فى كفّي

ويحفر الحب قلبي، بالنار، بالسكين...

وهاتف يهتف بى: حذار يا مسكين

حذار يا مسكين.

وقف لثوانٍ أمام باب غرفة عبد الرحمن الموصدة حائراً. آنس في جوانب القلب أمل يموت. طرق الباب وفتحه ببطء. بلغته الكلمات أكثر وضوحاً كما بلغتة نبرة الوجع المُفرط للايقاع.

يُبصر أخاه واقفاً وظهره إلى الباب وقفة عبد الحليم وحركاته وإيماءاته ذاتها حين يُغنّي. يُلوح بكفّ يده اليمنى إلى الأعلى

ويهدهدها هابطاً بها مع انخفاض وتيرة اللحن. يتأمل أخاه السابح في عالم آخر حتى إنه لم يشعر بدخوله، وطائف من التوجّس يتآكل ضميره، فيتوغّر قلبه.

الفضاء مُكتظّ بألم فادح لم تخطئه شفافية راشد، وهو يتأمل كفّي أخيه وهما تُحلّقان مُعبّرتان عن معنى الكلمات الهادرة، وكلّ شيء بمرماه هي:

وسرتُ وحدى شريداً...
مُحطّم الخطوات
تهزني أنفاسي...
تُخيفني لفتاتي
كهارب ليس يدرى من أين...
أو أين يمضي
شك... ضباب... حطام... بعضي يمزّق بعضي

تُصاحب عيناه عيني القطّة التي مدّت جسدها الطريّ بدلال على سرير عبد الرحمن ورأسها ينحرف يميناً ويتوقف برهة ثم يزيد انحرافه ثم ينحرف يساراً ويتوقف برهة، ثم تزيد انحرافه مع إيقاع حركات عبد الرحمن بينما تتّسع حدقتاها في دهشة ثم تنطفئ دهشتها وكأنها تحاول استيعاب ما يُمارسه:

سألت عقلي فأصغى وقال لا... لا... لا
لن تراها... لن تراها
وقال قلبي أراها... ولن أحبّ سواها... لن أحبّ سواها.

يستدير عبد الرحمن في غمرة انفعاله مع الكلمات ويلمح أخاه.

يُسارع بإغلاق جهاز التسجيل وهو يمسح قطرات العرق التي رشحت من جبينه ليجلس على حافة سريره مدارياً ارتباكه وافتضاح وجعه. يرفع كفّيه إلى شعره يكاد يشده غيظاً مُبهماً ثم يقذف بكفيه في الهواء وكأنه ينفض غُباراً خانقاً من روحه في الهواء:

– أكاد أموت حزناً.

هزّ رأسه يميناً ويساراً مرّات عديدة كمن يريد أن يستفيق من استلاب وجدانيّ أو فكريّ محاولاً استعادة عوالمه المرحة:

– منذ زمن لم تدخل غرفتي يا خليف الرئّس!!

احترامه لخصوصية أخيه تَنفكّ بقلقه عليه، فيكبح جماح أسئلته ثم يُطرق. يشعر بأنّ هناك شيئاً ينهش أعماقه، فتتوه ابتسامته محاولاً البحث عن مرسى أمان وتطمين، يزجّ بمجاديفه في شماعة الوقت وتَوقّف ساعته، لترتفع مقدمة حاجبه الأيمن كعادته عند أيّ انفعال وتومض عيناه بشعاع ساحر.

يُداعبه عبد الرحمن بأنّ مشكلة المثقّفين مثله أنّهم لا يتعاطون مع الطبيعة بشكل وافر ويكتفون بقرض الكتب، وحين يشعر بأنّ راشد لم يَظفر من إجابته سوى بالتوهان وقد خانت المباغتة ممرّات فطنته وذكائه، يردّ متحدياً وفراشات مُلوّنة تنزرع في أحداقه وقد امتلأ صوته بنكهة بهجة بأنه يستطيع أن يعرف الوقت دون النظر إلى الساعة الجاثمة على وجه الجدار.

يتوغّل في عيني القطّة وحين ينفك من عوالمها يجيب:

– تراهنّي أنّ الساعة ١٢ ظهراً؟

يلتفت الشقيقان بسرعة إلى الساعة المُعلّقة على الحائط ليندهش راشد

من تطابق توقيت الساعة مع ما ذكره عبد الرحمن وبابتسامة باهرة ينطق:
- كيف عرفت؟

بشقاوة تمتد يدا عبد الرحمن إلى قطّته ويحتضنها موضحاً أنّ "النينجا" الذين برعوا في فنون القتال آمنوا بالقوى الخارقة للإنسان وذلك بتوجيه القدرة الداخلية التي أوجدها الله بداخله وجعلها مطواعة لإرادته بالمِران، وبما أنّ قوّة النينجا تكمن في سعيه لفهم العالم ولا يكتمل النينجا الحقيقيّ إلا بالحب لكلّ ما حوله والتواصل معه، من هنا مَدّوا تواصلهم مع الكائنات المحيطة فجادت عليهم الطبيعة بأسرارها. منحتهم المعرفة وابتكروا الوقت باستخدام عيون القطط الشديدة الحساسية، عن طريق الفتحة الموجودة في عين القطة التي تتعدل مع دورة الشمس في كبد السماء. إذ تبدو مستديرة تماماً ومفتوحة أثناء فترات الغسق في الفجر والغروب، ثم يقلّ حجمها إلى شكل بيضاويّ وتأخذ في الضيق أكثر مع امتداد الضُحى وتصبح عند الساعة ١٢ ظهراً ضيّقة جداً وتشبه الإبرة تقريباً في خطّ مستقيم لتعاود الاتساع حتى السادسة مساءً فتبدو كاملة الاستدارة.

تعبث يدا القطة الناعمة بيدي عبد الرحمن فيداعبها مخاتلاً إيّاها بوضع أصابع كفّه في بطنها ودغدغته، وحين تضربه بيدها يبعد يده قبل أن تصله يدها ليعيد عبثه وضحكاته ويتعالى شَغبها.

يتسلّل راشد خارجاً والعبث البريء مع القطّة يُهدهد قلقه ويُخرسه. ربما ما رآه مُجرّد استغراق في أجواء الأغنية لا أكثر، فلا تزال بيادر أخيه خضراء وارفة، لم يندلق ألق صباحاتها من جيوب الواقع المترعة بالخيبات والصدمات.

أم الدنيا

يَلذُ لأبي جعفر أن يَنكأ الأيام الخالية، ويستدعي اللحظات الغافية ليتذوّق نثار السنين، يسترق الأصوات القابعة في زوايا الصدر، ويشدّ حبال الجموح ليستصرخ صهيلها.

لا يزال يطيب له كلّ ما هو عتيق ومُحمّل برائحة الأمس، ولا يزال يطيب له في أيام الحرّ اللاهبة أن يأتزر إزاراً و"فنيلّة علاّقي" ويتمدّد في "عريش" البيت الذي لا يريده أن يُهد رغم تطوّر كلّ ما في البيت، وقد توسّط عريشه مُكيّف مائيّ فهكذا يريده. يُريد رائحة المكيّف الصحراوي لأنّ به عبق البدايات نحو المدنيَّة الحديثة، يُريد راديو في عَريشه ولا يُريد تلفزيون رغم أنه عاصر بدايات دخول التلفزيون إلى المنطقة وكان يافعاً غضاً.

كان قد لمح جعفر وراشد يتحدّثان في بهو البيت فحيَّاهما ودخل إلى عريشه، وقد تنامى إلى سمعه خبر استغناء العمل عنهما فلم يزد على أن رفع كفّه الأيمن وهو يَفرك إبهامه بالسّبابة قائلاً:

– تمام يا غناتي، خل تعركُم الحياة... أحياناً لازم نطيح كي ننهض، السقوط نجاح، خل تعصركم الحياة عصر لين تصيرون رجال، انتوا ما

شفتوا شيء من الدنيا.

ودلف عريشه وكأنّ الأمر لا يعنيه. تَوسّد عُمره وابتهج لصفعة القدر لجعفر وراشد التي يرى فيها صناعة للرجال. أرخى المسند تحت رأسه متمدّداً على ظهره، ورفع ساقه اليمنى على ركبته اليسرى، ثم شبك كفيه تحت رأسه، وهو يتمتم محدثاً نفسه:

– شافوا شيء من الدنيا!... ما شافوا شيء بعدهم!!

تَرك للبراري المُعشبة في قلبه أن تتذوق هطولها الماطر نحو بواكير الستينيات في "بقيق".

كانت الصحراء العارية غنيّة بالجفاف، طواحين السموم تعبث بالأتربه الصفراء، ومعامل توليد الطاقة وصيانة الأنابيب تحتفي بشبابنا الذي كان وقوداً لها.

كان العمرُ يافعاً وسياط الشمس تُمزّق الوجوه الفتيّة، صهد الصحاري يصبغ جلودنا ويقلب لونها إلى سمرة مُحتقنة. كُنّا ننطلق مع البواكير في جَلَد لا تتجاوز الثامنة عشرة إلا في ما ندر، حيث يمتدّ في أم الدنيا (أرامكو) فهكذا كنا نطلق عليها، كامب حي السلام (camp) لكبار موظفي أرامكو من الأمريكان، وحيّ السلام عبارة عن منازل سكنيّة على أحدث طراز أوروبي تهدر فيه مكيّفات مركزية تتعلّق أعيننا بها كُلّما وقعت عليها. تمتدّ دروبه الضّيقة لتصل حيّ الفرحة الخاص بالموظّفين ذوي المنزلة المتوسّطة حيث يُقارب تصميمه تصميم مبنى كبار الموظّفين لكن أكثر بساطة، وتنتهي أرامكو بقيق بالحي العام (حي منصور) الخاص بصغار الموظفين وهو عبارة عن طابوق ومراوح صغيرة، كأنما لا يستحقّون بعد أن يكون لديهم مكيّفات.

يَتمدّد الفراغ في ضلوعنا ونُغرقه بالعمل المُضني والضّجر الذي نبدّده بالحكاوي الخرافية واحتساء الشاي حين يغيب عن الأنظار كبير المُشغلين سليمان الذي أطلقنا عليه لقب الرّيس وبات يُعرف به حتى بعد أن تزوّج وخرج من ظهره بِكره راشد شبيهاً له في كلّ شيء، دماثة خلقه وشجاعته واحترامه للإنسان. احترمناه... فأحببناه، وتمازجت مشاربنا حتى إنّه سكن في بداية زواجه ملاصقاً لداري في سنابس ليغدو الدار واحداً والقلب واحداً.

ولسليمان ذي البشرة الداكنة والمعتدل الطول بعضلات مفتولة وملامح رجولية دقيقة، حكاية بطولية يذكرها كلّ معاصريه. كنّا وقتها نعمل في عين دار منطقة تعاني من التّصحر خارج بقيق. كان برج الحفر (الرّق) هو الكارثة الكبري والمعاناة التي نُلاقي صنوف العذاب في عملنا بها، فكلّه أنابيب وأدوات ثقيلة، مولّدات كهرباء وأدوات حفر، تُمدّ هذه الأنابيب من فوق إلى باطن الأرض، وأيّ ضربة عليها وإن بالخطأ يستتبعها اشتعال حريق. عند التعامل معه لا بدّ من ارتداء الأقنعة الواقية وقفّازات الأمان ومع هذا كلّه فذلك لا يكفي، لأنّ علينا بعد وضعها وتمديدها بالأجهزة والحفر في الأرض بحثاً عن البترول، أن نقوم بحلّها عن بكرة أبيها، كلّ جزء بمفرده ثم نقله بأيادٍ جماعية في "تريلات" إلى منطقة أخرى.

كان البئر وقتها، كي يتمّ حفره ويُنتج زيتاً، يحتاج إلى شهر أو شهرين، بينما صهد الشمس يُرسل ألهبته إلى أدمغتنا مباشرة، حتى صفائح الثلج كانت تذوب في دقائق فتصل المياه إلى حلوقنا كأنها مغليّة.

وفي يوم شديد الحنق انكسر الرأس الأساسي للبئر الذي تمتدّ منه عدّة رؤوس أشبه بالحنفيات المُسنّنة، فتسبّب انكسار الرأس الرئيسي في انتشار الزيت بكميات هائلة واشتعلت النيران وتصاعدت مُلتهمة كلّ ما حولها بسرعة البرق، وكان أوّل وقودها اثنين من رجال الإطفاء المدرّبين، فتدافع الموظّفون إلى الهرب من النار التي إذا تُركت ستتّسع رقعتها.

هول الحدث جعل كلّ الموجودين يُحاولون الهرب قدر استطاعته وإن كانت النار أسرع، فما كان من سليمان إلا أن سارع بأخذ جهاز للحفر وبدأ يحفر بشكل موازٍ للبئر دون أن يأبه بالنار التي في لحظة غادرة قد تُحيله رماداً. بقي بمفرده يحفر حتى وصل إلى أسفل البئر الملتهب فأخذ يهيل عليه طيناً ثقيلاً وينادي الرجال الفارّين بالإسراع بتلقيم البئر بالإسمنت، وعندها اقتربنا لنساعده في إهالة الطين والإسمنت حتى انطفأت النيران التي أذابت جلد يده اليسرى فتبدَّت عظامها.

كُنّا جميعاً نُدرك أنّه عرَّض حياته للخطر، لكنّه لم يبالِ سوى بحياة البقيّة الباقية من موظّفيه الذين تحت إمرته، والحفاظ على معدّات الشركة. وبعد هذه الحادثة لم يعد يُذكر سليمان إلا والرّيس تسبقها حتى وإن كُنّا خارج العمل. ورغم كلّ المخاطر التي تحفّ بنا كنّا عندما نهجع إلى الديار نوقد قلوبنا سراجاً... وننام بسلام.

لعب بنات

مملوءة بالصباحات الرتيبة ألقت بجسدها في سيارة الأجرة. صفعتها رائحة متودكة كادت معها تتقيّأ. انكفأ يحيى على حنانها ليسبر سرّ الرائحة فاشتعل نقاؤهما حنطة. فتح النافذة، فانسكبت نسمة مُحمّلة بعذاق أزمنة، حين لوّح يحيى مودّعاً يسوق أمانيه الصغيرة في حقيبة وكتاب.

امتدّت يد السائق صوب جهاز التسجيل، فتحه على أغنية هنديّة تشحن الجوّ بأجواء عاطفية نأت عنها منذ تباعدت مرحلة المراهقة بفورانها وخيالاتها التي لا تمسّ أرض الواقع. مدّ يدّه بزجاجة عطر مغلّفة. علت ملامحها الدّهشة من تصرّفه واعتذرت عن قبولها. عاود المحاولة فأصرّت على موقفها.

كان أوّل من التقته حين وصلت وجه نشمية. وأوّل من تحدثت في طابور الصباح كانت نشمية، التي تبدّلت حالها. باتت أكثر جرأة أو هي تحاول أن تبدو كذلك وقد اهتمّت بهيئتها وفاحت منها رائحة عطpleasure . وقفت لإلقاء مقالة كتبتها بعنوان "الأم معنى" دون أن تكفّ عن اختلاس النّظر لأمل. بين فقرة وأخرى تتوقف للحظات،

تنظر نحوها ثم تشحذ صوتها الذي يكاد أن يختفي من الارتباك، والورقة تهتزّ في يدها.

اقتربت أمل وقبضت على الورقة بدلاً منها، فانقلب وجهها إلى حمرة داكنة وأنفاسها تكاد تتوقّف مُجاهدة أن لا يختفي صوتها.

حين شرعت في القراءة. سعت لتجميد مشاعرها، وفي تحدٍّ لذاتها سحبت الورقة من يد أمل وأمسكتها بكلتا يديها متابعة حتى انتهت. استدارت لتختفي في فصل الإذاعة، ثم أطلّت مرة أخرى وعيناها لا تبرحان أمل.

مضى اليوم الدراسيّ بطيئاً رتيباً لولا أنّ أمل حين عبرت فصل ٢/أ الذي تجمهرت طالباتها أمام بابه. بلغها صوت صالحة وقد أدخلت رأسها إلى الداخل موجّهة حديثها لإحداهن:

– الجو... الجو.

مضت دون أن تُعير ما تسمع التفاتاً، وصوت صالحة يصرخ في الطالبات بالابتعاد وعيونها معلّقة على نشمية:

– تعالي... يالله مَلّي عيونك.

عبرت مُطرقة، ثم رفعت رأسها على صوت منى التي وقفت ملاصقة لصالحة ونشمية خلفهما:

– أبلة ممكن شوي.

التفتت إلى الخلف. رأتهنّ دون أن تفهم، يُحرّضن نشمية التي تكاد تذوب في مكانها على أمر ما، لكنّ عقدة لسانها ظلّت مربوطة فسارعت منى متبرعة:

– أبلة نشمية تحبّك.

نظرت إلى نشمية بهدوء، ومسحت على خدها بتلقائية:

– وأنا أحبكن جميعاً.

ومضت في طريقها، ليبلغها صوت صالحة من بعيد:

– أبلة... نشمية تحبك غير.

رمقت صالحة بنظرة خاطفة فعاجلتها صالحة:

– أقول: "جدّه غير".

وحين انتهى اليوم الدراسي، عاودت الرائحة المتوحكة صفعها، فشرعت في سؤال السائق عن مصدرها في اللحظة ذاتها التي وقعت عيناها على زجاجه قرب مقعده، سرعان ما تناولها ودلق محتواها في جوفه متبرّماً:

– أنتَ إيش هذا؟ ما فيه فيلنغ feeling، إنتَ يسمع هذا... معلوم كلام؟

تلتقط يده شريط كاسيت يبدو أنه قد أعدَّه مسبقاً وفهم معانيه محاولاً استفزازها بكلماته:

– إنتَ يسمع... Lissen

ينطلق الصوت:

طحت من عيني بعد ما كنت عالي وحبك أرخصته بعد ما كان غالي

كم سهرت أيـام في حبك مولع ما دريت إنـك بتمثيلك خيـال.

تتركه في عالمه وتستجير بعوالمها وقد بلغ منها الإجهاد حدَّه ونفذت طاقة يومها وعزمت في أعماقها على أن تكون هذه المرَّة

الأخيرة التي تركب معه. ظلّت تنظر إلى البعيد شاردة، بينما اختلس النظر إليها من خلال المرآة، وحين شعر أنّها في وادٍ آخر، أطفأ جهاز التسجيل:

– أنا يعرف إنتَ ما فيه معلوم أنا واجد حُب إنتَ، أنا ما فيه نوم واجد واجد فَكّر.

أوقظتها عبارته من سباتها الواعي، للوهلة الأولى شلّتها المفاجأة، والجمتها الجرأة التي يتحدّث بها. ثم انفلتت تنهره أنها لا تريد أن تسمع المزيد، وأن يسوق وهو صامت، لكنّه ردّ بثقة ودون خوف:

– أنتَ ما فيه خوف، don't worry أنا يروح حق بابا إنتَ... سوي خطوبة... كل نفر ما في مُشكل... هذا عم مال آنا في هند واجد ساحر شاطر، هو فيه سوي شغل مزبوط مال زواج أنا وإنتَ... شور shure بابا ماما... هو موافق... ما في مُشكل.

تفتح الباب، يلتفت إليها فزعاً من تصرّفها الذي قد يُكلّفه الكثير، يُخفّف سرعته فتُلقي بنفسها للخارج وهي تصرخ:

– إنتَ أكيد مجنون... مجنووون.

تسير تحت الشمس الحارقة، وهي تلعنِ السائقين والحاجة إليهم، حتى تتعب من السير فتتوقف. تأتي سيارة أُجرة، سائق سعودي أشيب أستوقفته وعادت إلى منزلها، ثم طلبت منه أن يأتي إليها صباحاً إذا لم يكن لديه ارتباطات فوافق.

في الصباح بعد أن أوصلها إلى المدرسة، طمأنها أنه إذا لم يكن معها نقود فلا تُضيق على نفسها، بإمكانه الصبر حتى آخر الشهر. شعرت بأنّه طيّب، وقرّرت أن تبقى معه حتى عودة سائقها.

سَدَنة نسج الحكايا

أهالي حيّ العشائر، أولئك الموصومين بلعنة الريح والتراب حتى باتوا كالأساطير الجانحة إلى الخرافة، في زمن يرقد تحت ثنايا صمته قمقم الحكايا التي لا تتوقف. مخبوئين في بيوتهم، لكنّهم مثل خلايا النّمل التي لا تتوقف عن التناسل والمُضيّ إلى الأمام مهما اصطدمت بالعوائق ومهما كان الأمام... سراباً زائفاً.

عشقوا الحياة الصاخبة. يفتحون شموسهم كلّ صباح على هدير فضيحة جديدة أو حزن عاصف ليتندّروا به باقي يومهم بانتظار حدث قادم يتعايشون معه ويهتكون به أستار السّكون، ليكونوا باقتدار سَدَنة نسج الحكايا وناحتي أصنامها، فقلّ اعتكافهم بالجدران ولاذوا بالطرقات.

تمتدّ الحصوات الصغيرة مختلطة بالرمل المحترق من حرارة الشمس اللاهبة على طول حيّ العشائر. يهزأ بخشونتها الصبيّة غير مبالين لا بخشونة الأرض وجفافها ولا بهجير الشمس، إذ يفترشون التراب وظهورهم مُسندة على جدران منزل مخلد، أحد أبناء الحيّ النازحين إلى الغرب في بعثة دراسية صَدَّرته لها شركة أرامكو مع عائلته. يلتهم بعضهم الساندوتش والكولا، بينما تتشابك خيوط الدخان

الذي تصاعد من سجائر البعض الآخر، وآخرون غارت أعينهم في ما تراسلوه من بلوتوثات فاضحة أو فكاهية، وهم كالخُشب المغيّبة خارج نطاق أيّ تغطية في الكون.

ينشقّ الطريق عن أنثى فارعة الطول ممتلئة في غير ترهّل، يلمحها أحدهم قادمة من الزقاق الضّيق كجرفة سيل، حيث منزلها الصغير في بداياته ثم يتّسع ليؤدي إلى التجمّع ذاته. يُحدّق الفتي في الهيكل القادم ليتأكّد من صاحبته ثم يصيح في شلته مدلّلاً على أنّ القادمة هي هيلة من لزمتها التي اشتهرت بها، وقد اقتربت كثيراً:

– يا ليل ما... حططط رجلك.

يعتدل كلٌّ منهم استعداداً للهروب الكبير، بينما يعتدل فوّاز شاحذاً قدميه لتمتطي الريح وهو يُحرّض ذاته على الهرب السريع:

– اققققـ... حص... جاك الموت يا تارك الصلاة.

لكن هيلة كانت قد اقتربت، فخجل أن يهرب وقد رأته وباتت على مرمى حجر منه. لاذ بجدار مع اثنين من صحبته جمّدهما الخجل ذاته من الهرب وقد اقتربت. يشحذ فوّاز رجولته النامية المزعومة مُتصنّعاً الاستخفاف، بينما نظراته تشي بالحذر من هيلة فقد تقذفه بكلمة من لسانها السليط لا تقوم له قائمة بعدها أمام أصدقائه، وقد رفعت برقعها عن صفحة وجهها.

يقرأ نظراتها المُركّزة عليه، وهي تُهدّد بلوح كَفّها في روحٍ رجولية:

– عَوِّد وراك... عَوِّد وراك... يا ملعون الجدف... ليه مخاصم بيتكم كما جرو مضيّع دربه؟! قم نعنابو ذا العين اقلع، أتعبت أمكَّ

وعادك في است القاع.

يحاول أن يتمسّك بوهم رجولته مرعوباً من لسانها:

– بجلس شويّ مع أصدقائي بعدين أروح.

تنظر إليه نظرتها الفاحصة الثاقبة الشهيرة من أسفل إلى أعلى مستوى البصر، وألم قارس يضرب في إصبع قدمها اليمنى الكبير وقد علاه اسوداد غريب.

تنزل بحركة مهينة تقصد استفزازه تتلمس موضع ذَكره:

– ها وش أنت؟ رجّال ولا...

يُستفزّ وينهض غاضباً وهو يبعد يدها بهياج، رافعاً كتفيه في استعراض لرجولته وكأنه سيهمّ بضربها وإن كان أكثر أدباً من أن يُقدم على فعل كهذا، خصوصاً مع هيلة التي رغم حذر الجميع من سلاطة لسانها إلا أنهم لا ينكرون محبتها:

– رجّال ونصّ.. وانتبهي، أنا لا أزال أحترمك.

تعود إلى نظراتها الثاقبة الفاحصة المتوعّدة:

– هاااااه، ها اغد رجّال واترك الدجة في الشوارع وكُب هالرخَمة.

وتحاشياً لما قد تُعرضه له من مواقف مُخزية أمام رفقته، يتقدّمها عائداً إلى البيت وهو يشعر بالحنق على أمه التي استعانت بها لإعادته إلى المنزل، وشعور بالنقمة والتمرّد يشتعل في صدره.

* * *

– إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله.

قالتها أم مطلق وهي رافعة كفّيها المرتجفتين نحو السماء. تعيدها مراراً ودموعها تهمي حتى تلاشى صوتها وقد بُحّ من النحيب.

يدخل فهّاد والد مطلق ويلمحها في جلستها تلك، يسمع بكاءها ودعاءها وتمتلأ عيناه بالندى ذاته. يقذف جسده بجوارها، فتنظر نحوه برجاء أمل يراود الروح في خبر يُشفي قلبها، يحاول التملص فيخونه صدقه:

– مطلق اعترف قبل أيام... والمحقّق قال إنّ حكم القصاص صادر لا محالة.

تصرخ وهي تهبّ واقفة كالمجنونة، تضرب نفسها وهو يحاول تهدئتها، لكنّها أصيبت بما يشبه الهستيريا لم تعد تسمع أو ترى. تطيح جسدها على الجدران مُنتحبة ثم تحاول شقّ ثوبها لكن سماكته تحول دون ذلك. يصرخ بو مطلق كي تهدأ فيتراكض أبناؤها لاحتضانها وهي تترجّاهم:

– بيروح أخوكم إذا لم تفعلوا شيئاً... افعلووا شيءءء.

قالتها برجاء مُروّع. استغاثة ذبيحة وهي تضع يديها في شعرها وتشده بحرقة، ثم غابت في إغمائة في أحضان بناتها اللاتي تعالت أصوات بكائهن في ألم مزدوج.

* * *

تغيّر مطلق... لم يعد الشابّ المستهتر... أفل طيشه قبل أسابيع انصرمت. قلبت هذه الحادثة كيانه كُلّه، كانت المحنة القاسية...

وكانت الصحوة، في الوقت الضّيق الضائع. منظران فقط هما اللذان يتكرّران في مخيّلته... طلقة الرصاص وحميدان يهوي، ومنظر السيّاف القادم وهو يرفع السيف ليهوي به على رقبته، وقلب أمه. كلّما قفز هذان المنظران قفزت صورتها أمام عينيه فيغيب في بكاء مرير.

لم يعد ينظر إلى الأمور بمنظار الغرور واستصغار الآخر، ولم يعد حميدان بالنسبة إليه "خبل"، بقدر ما بات روحاً أزهقها بغروره وطيشه، وهو الآن وفي لحظات حاسمة ومصيرية كهذه يعرف معنى الروح وقيمتها، يعرف تحديداً معنى إزهاق الروح.

عرف من المحقّق المُكلّف في قضية حميدان، أنّ حميدان كان رجلاً ذا شأن في زمانه الأول، كانت له رتبة في الجيش، يهتمّ بهيئته وينتقي كلماته بعناية فائقة، ويمتلك قلباً شاعرياً مُحبّاً. تعرّف في إحدى سفريّاته إلى سوريا على زوجته، وعمل كلّ ما بوسعه لجلبها إلى دياره، وحين قدمت انقلبت حياته بعد عامين.

فجأة تغيّرت معاملتها له وصار، وهو الشخصية المعتزة بذاتها، خاضعاً منصاعاً لأوامرها دون أن يجد أحد تفسيراً لذلك. وبعد أن كتب كل ما يمتلك باسمها طلبت منه الطلاق وأرغمته عليه وأخذت أبناءها، ولا يعرف المحقّق كيف أرغمته لكنّ هذا ما بلغه، بعدها تزوّجت أخاه. وكانت الصدمة التي تحوّل بعدها إلى بقايا آدميّ... حُطام.

تمنّى مطلق أن يعود به الزمن إلى الوراء، فيقترب من حميدان ويصاحبه، تمنّى أن يكون عقله الواعي فيساعده في العثور على أخيه

حمود الذي أضناه البحث عنه، لكنّ حميدان مات... وهو من قتله.

كان حميدان الأنقى رغم الاتساخ الظاهر على ملابسه التي يحرص على أن تكون في قمّة الشياكة لكنّها قذرة، يحرص على شماغه أن يكون "رزّه" رغم ضياع لونه من الأوساخ، لكنّه كان الأطهر. شفافيته وصدقة وعطاؤه كانوا النّصل الذي أغمد في وعيه وأدخله في مساحات مجهولة من اللاوعي هرباً من الحقيقة التي لم يبقَ منها سوى أنّ لديه حقّاً عند أخيه... ولا بدّ أن يسترجعه.

بدايات

أطلّ راشد من نافذة غرفته على ساحة المنزل دون تركيز، وقد ثقلت نفسه من تداعيات قرار فصله وجعفر من العمل وما ترتّب بعد ذلك من استغناء عنهما لعدم مباشرتهما العمل في المنطقة المعنيّة بالنقل.

شدّ انتباهه حركة القطة حين اتجهت إلى صنبور ماء خارج المطبخ. تلحس بلسانها قطرات الماء المتساقطة على الأرض، عيناها على الأرض وقلبها مع أبنائها. حين رفعت رأسها لمحت قطّاً كبيراً يتّجه نحوهم. وثبة عالية قفزتها كأنّها تطير لتطوي الأرض طيًّا حتى تسبقه لأولادها، تبعتها بقفزة ثانية حتى وصلت إليه، فدخلت معه في عراك شرس حتى هرب، فسارعت لصغارها تتشمّم رائحتهم وتمرّر لسانها عليهم، وهم شبه أحياء وشبه أموات ببطون منفوخة.

هزّ رأسه معجباً بعظمة خلق الله وهو يتمتم: "الله... سبحان الله... سبحان الله."

حدّث نفسه: "كيف تسنّى للقطة أن ترى القطّ القادم لأبنائها رغم أنّه لا صوت لخطواته، ويبعد عن مكان وقوفها الكثير؟! كيف شَفَّت عوالم هذه الكائنات فصارت ترى دون عيون، وتستشعر دونما يثير

الشعور ويُنبهه؟! هل هناك ظلام في دواخلنا يقف عائقاً بيننا وبين أن نشفّ ونستشعر بهذا القدر؟!!"

جلس على حافة سريره، يبحث عن مخرج وقد بات عاطلاً. دون مقدّمات اشتعلت فكرة في رأسه. تذكّر سيّارته التي كان يعمل عليها قبل عمله في وزارة الإعلام سائق أجرة. شعر بأنه لا يمكن أن يستسلم إلى الفراغ وهو المسؤول عن أمّه وأخيه الذي لم يعثر على وظيفه بعد. عزم أمره على أن يُعيد إلى سيارته اللوحة الخاصة بالليموزينات. ويعود إلى العمل عليها، والترخيص لا يزال موجوداً معه، فقط يحتاج لتجديد.

(جعفر يتصل)... ظهر اسمه على شاشة الموبايل، فردّ عليه بسرعه والفكرة تقفز في رأسه، هَمَزه بما انتواه، وأنّ عليه هو الآخر أن يُسارع بعمل الأمر ذاته حتى العثور على وظيفة ثابتة.

أسرّ له جعفر بأنه قدّم أوراقه إلى أكثر من شركة، أرامكو وسابك وبعض الوظائف الحكومية غير الشركات التي تقدموا إليها معاً بالأمس، كلّهم أخبروه أن يترك ملفّه وسيتّصلون به عند الحاجة.

* * *

ومثل قلب يتأوّه، وقفت أمام باب غرفة المدرّسات بوجه له قسمات الصبا وتخبّط البدايات. مدّت بخجل عذريّ باقة ورد حمراء إلى مدرّسة الفيزياء التي سألتها عن مناسبتها فارتبكت وهي تُسوّر مشاعرها بسوار من حياء احتقن معه وجهها فلاذت بالهرب.

تبعتها نشمية بطرق الباب، وتوق شرس لبوح عاشقة يُسافر عبر عينيها. نادت أمل وهي تُشعرن مشاعرها، كما تُشعرن حياتها فتنكوي بهجير التراب وشدّة سطوعه. أرخت أمل رواية من الأدب الإنجليزي كانت قد شرعت في قراءتها، ونهضت.

اكتست ملامح نشمية بحمرة قانية، فأخذت نفساً عميقاً ومدّت يداً مرتعشة برسالة فاض عطرها بغناء القلب.

صمتت أمل لحظات مفكّرة، ثم أوضحت أنها لا تستهويها مسألة الرسائل، لكنها ستطّلع عليها على أن تكون المرّة الأخيرة. وحين لمحت أشعة الانكسار والارتباك في عيني نشمية ابتسمت بحنان وعادت إلى مكتبها.

كانت الرسالة أشبه بمذكرات مراهقة، اندلق ألق الصبا في أوردتها دفعه واحدة فارتبكت فصولها وحلّق النورس بعيداً عن عُشه. ترنّح في أُفقه رافضاً الجو الخانق لأب لا يعرف من الأبوّة سوى التسلّط واللامبالاة، وأمّ تلملم أشلاء ذاتها التي انفرطت مُلملة عقد صغارها في بيت ضاجّ بالصراخ ومُنحاز إلى الذكور.

تُفتن باللغة الشاعرية التي تكشف حساسيّة مفرطة لصاحبتها وشاعرية لا يشي مظهر نشمية المُستكين بمداها، فتبحر في الأسطر. تشتّم الضجر يفوح من الحروف ويرقد التمرّد في طيّاتها موشاة بغضب عارم على الأم الضائعة الهويّة أمام قسوة الأب، وجلمد على أبنائها في غيابه كما يصور وعيها الجديد عهد بالحياة، فيُلبس الحقائق فهمه القاصر ويتطرّف في اعتقاداته لتغدو الوجع المزمن الذي ينخر شغاف الروح، ويجد في انحراف العاطفة خلاصاً وتوقاً للتحايل على الواقع.

تطوي أمل الرسالة وهي ترفع بصرها مُحدقة في الأفق. وحين تقترب من منتصف الطريق وقت الظهيرة وعودتها إلى منزلها، ينظر إليها السائق الأشيب بنظرة ثعلب حَطّت على ملامحه ألوان فسق:

ترى الفلوس تحت نعالك، وأنا سبحان الله ارتحت لك، لا يهمّك... ترى أنا بئر وسرّك ما يطلع لو على قصّ رقبتي، تريدين أن تدفعي فلوس... أم شيئاً آخر، أنا رهن إشارتك... أدفعي اللي يريّحك.

زمّت شفتيها بغيظ وانفجرت غاضبة ونزوة سافرة تطلّ من عينيه. بصقت في وجهه وهي تصرخ فيه أن يتوقّف والغثيان يملأ روحها.

تركت السيارة لاعنة كلّ السّائقين. سارت تحت هجير الشمس وحين شعرت بالتعب توقّفت حتى لمحت سيارة أجرة قادمة فاستوقفتها. وحين وصلت منزلها مدّ السائق يده برقم هاتفه المحمول، وأكّدت عليه أن يأتي إليها في صباح الغد، فهزّ رأسها موافقاً.

وحين استكانت نشميّة في غرفتها وقد أودعت أمل وريقاتها التي هي بالنسبة إليها أنفاسها وسرّها العصيّ على البوح عن وضعها العائلي الذي تحياه. توسّدت الجدار وهي شبه ممدّدة على سريرها بسروال قطنيّ أبيض فضفاض وبلوزة قطنية بيضاء بورود زهرية صغيرة وشعرها الكستنائي الكثيف مرفوع في ذيل حصان بينما ظفر الإبهام يتّكئ وسط شفتيها وهي تائهة في أفكار شتّى.

تتذكّر الضوء اللامع الذي ومض في عيني أمل صباحاً حين لمحتها بينما كانت تقف أمام باب الفصل تبحث بعينيها العسليّتين الناعستين عن طيفها الذي ملكها، حين أبصرتها تلميذاتها اللاتي تجمهرن أمام الباب.

تستعيد عبارة أمل التي نثرتها بتلقائية:

- صح كلام صالحة، تشبهين ليلى فوزي الممثلة المصرية... بس على حجم أصغر.

تبتسم وعيناها لا تزالان شاردتين، وتتنهد في سعادة لذيذة:

- وليلى فوزي حلوة... عيونها تاخذ العقل، يعني أعجبها... أعجبها؟

تعاود الابتسام، تتّسع ابتسامتها وهي تقفز إلى المرآة تتأمّل ذاتها وتكاد ترى صورة أمل أكثر مما ترى ملامحها.

يسحبها صوت والدتها منادياً:

- يا عَلّك ما ترتاحين يا "الرّفلة" تعالي لم اخوانـ(تس).

تزفر بضيق وتنقلب ملامحها، وفي تهكم تتمتم:

- والأمُ مدرسةٌ إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق!

تتجاهل ما يحدث خارج غرفتها.

تجمع مقدّمة غرتها وتنكشها بالمشط لتنفشها قليلاً ثم تُمسدها إلى الخلف وتُنزل بعض الخُصل على جبينها وقرب أذنيها كما هي طلّة أمل. تُمرّر قلم الكحل الرمادي على مقدمة حاجبها ليأخذ بعض العرض كما حاجبي أمل. تجد نفسها باتت أكثر جمالاً وتشعّ عيناها بالفرح وهي تُحدّث نفسها:

- من بكره، سأستعمل عطراً جديداً خاصاً مع "اللوشن" الخاص به ولا أُغيره كي تميّزني به كما أُميزها بـ "بليجر"، وكي تعرف أنّ لي شخصيّتي المُستقلّة.

يبلغها صراخ والدتها وهي تضرب إخوتها:

– غاضور يغضرك يا ابن ابليس، ياويلي دبلتوا كبدي يَمَّل للعلة.

الصراخ وصوت الأقدام المتراكضة يبلغها ويثير أعصابها، فتحاول إيجاد سكينة وتجاهل الغبار الذي ملأ روحها.

تُفكر قليلاً.

تمسح ما فعلته بقلم الكحل في حاجبيها لتعيدهما إلى وضعهما الأول كما تُعيد شعرها إلى وضعه السابق وهي تتمتم:

– عشان تعرف أنّ لي شخصيتي المميزة.

يدخل الأب إلى صالة المنزل بوجه مُتجهّم لم يعرف الابتسام إلا سهواً في نومه.

يُلقي عبارته المعهودة بصوت دبق:

– حطّي الغدا.

يضرب أطفاله كلّاً على رأسه ويمضي إلى غرفته واجماً. يعود الأطفال من جديد إلى عراكهم، فتضرب الأم هي الأخرى كُلّاً منهم على رأسه دون تمييز وهي تشدّ شعرها، ليفتح الباب موبّخاً:

– سَكتي العيال.

ويغلق الباب.

تنفجر مراراتها وتضع كفّيها على مقدمة بلوزتها وهي تهمّ بتمزيقها صارخة:

– يا "ويطيبي".

روح

تنظر أم راشد بأسى إلى القطة التي تُقلّب أبناءها بذراعها الناعمة وتمسح عليهم بلسانها فلا يتفاعلون معها!

تأتيها لحظة تردّد، هل تأخذ القطّين الصغيرين وقد ماتا لتلقيهما أم تتركهما لها! لكنّها تشعر أنّه لا يصح تركهما وقد ماتا. تشعر بما يُلمّ بقلب القطّة الأم... تُشفق عليها. فتستعين بعبد الرحمن الذي وقف يتأمل المشهد صامتاً. تهمزه بما تفكر به، فيشعر هو الآخر بالحزن على قطّته كما يسميها، لكنه يرى أنّ الصواب هو حذف القطّين المتوفّين. يلتقطهما بكفّيه وأمهما تركض خلفه وهي تموء بحزن، ويتعالى صوت مواؤها حتى تمنّى عبد الرحمن أن يُعفيه أحد من هذه المهمة، فيسارع بالخروج من الباب الخلفي ويُغلقه خلفه ومواء القطة يتبعه.

تمسح أمّ راشد على رأس القطة المفجوعة النظرات وهي تنظر إليها نظرات من انتزع جزءاً منه. نظراتها تبث تساؤلاً... جزعاً .. شكوى.

تنتبه إلى شعرها الذي يتساقط بغزارة، تعاود المسح عليها... ثم تلمحها وهي تعود راكضة إلى المكان الذي كان يرقد فيه أبناؤها باحثةً عنهم، تعاود شمّ المكان وتستنشق الهواء باحثةً عن رائحتهما فيه،

تدمع أعين أمّ راشد على ما تراه حتى وإن كان... من قطة.

يعود عبد الرحمن لتأتي القطة راكضة وهي تموء كأنها تسأله عن أبنائها، تتمسّح في قدميه، وحين لا ترى أبناءها... تعود راكضة إلى مكانهما تستنشقه مرة أخرى وتشم موضع رقادهما وتدور حول نفسها بمواء حزين ثم تنظر إلى عبد الرحمن الذي يشعر بوجع في قلبه مما يراه فيبلّل شفتيه بلسانه من العجز عن فعل شيء.

تخترق قلبه نظراتها التي تحوّل معها بؤبؤ عينيها العسليّتين إلى لون برتقالي فاتح بنظرة فزعة، ثم تركض من مكانهما إلى الباب الذي خرج منه ليلقي بهما، تقف قبالته تموء تبحث يميناً ويساراً ثم تعود راكضة مرة أخرى إلى موضع رقادهما.

يهرب عبد الرحمن من المشهد الذي أمامه وهو يقول لأمه خارجاً:

– لا أريد أن أرى أكثر... تقطّع القلب.

تلحق به:

– خذني معك يمّه... حتى أنا خنقتني العبرة.

تبقى القطة تدور حول نفسها، تطوي المسافة من موضع رقادهما إلى الباب الذي خرج منه عبد الرحمن ليُلقي بهما، ثم تعود راكضة تشتمّ الهواء ومكانهما بحثاً عن أثر.

وفي العصاري، حين ولج عبد الرحمن باب مسكنه لمح والدته تخرج من المطبخ فسألها بحيوية:

– وين دلوعتي؟

– مَن دلوعتك؟

تنطلق القطة من المطبخ راكضة، فتتهلّل أساريره قائلاً:

– عارفه نفسها دلوعتي.

تضع القطة مقدمة رأسها على قدميه وتدفعها بقوة ثم ترفع وجهها إليه، كأنها طفل يرفع يديه إلى أمه حين يراها ترتدي عباءتها للخروج:

– مياو... مياو.

يلتقط قطّته ويرفعها للأعلى ويقبّلها بخده يميناً ثم يساراً:

– هلا هلا بدلوعتي... مياو... مياو.

– إنت مو صاحي، هل تفهمك هي الآن... إش يعني تقول لها مياو؟

– انتِ لا تعرفين، هذه لغة خاصة بيننا... قالت لي مياو يعني أحبك... وقلت لها مياو يعني وأنا أحبك.

تهزّ أمّه رأسها بابتسامة:

– الله يخلف عليك عقلك.

يحملها كما يحمل رضيع ويهمّ بالخروج فتسأله عن وجهته حاملاً القطة:

– سآخذها إلى دكتور بيطري يُعطيها إبر تعقيم ربما تعاني من شيء ما، وحتى لا تتسبّب في مرض أحد في البيت، وربما يجد حلاً لمشكلتها، كي تُنجب أطفالاً مثل باقي الناس وليس من غير فتحة خروج!

– يمّك المَرأة "نفاس" وجريحة... اتركها حتى تخرج من حزنها على الأقل.

– هذولا "حريمكم"... لكن دلوعتي...

تقاطعه القطة التي لا تزال عيناها تُحدقان به:

– مياو... مياو.

يدسّ خده اليمين على خدّها الشمال بعمق وحرارة قائلاً:

– وأنا مياو مياو موووت.

يخرج ويغلق الباب خلفه، بينما تغرق أمّه في الضحك حتى تدمع عيناها.

عيون في الجدران

وغرّد الطير تغريداً شجيّاً، ككلّ الطيور الحبيسة.

جدران ناطقة بآلاف العيون التي تواردت عليها... رائحتهم... أحلامهم... شخبطاتهم وأنفاس لحظاتهم الأخيرة. قضبان خرساء لا تقرأ حزن المساجين ولون إنسانيّتهم، قضبان ونافذة صغيرة لا ينفذ منها سوى الظلام، عيون مطلق معلقة بها في عتمة متكاثفة، وقلب لأول مرة يشعر به، وبإنسانيته، تمتدّ يداه إلى قضبان النافذة الحديدية وبصره يسافر عبرها، يقف على رؤوس أصابعه محاولاً التقاط أيّ بصيص للخارج وضميره يغرد:

– طير... محبوس... محبوس.

سافر بصره خلال العتمة باحثاً عن الضياء. الفجر الذي غادر أفقه... هناك... خلف القضبان، ثم نكص إلى زاويته محتضناً ركبتيه وعيناه معلّقتان بالنور البعيد.

يُشخبط بأفكاره ملمح القصاص، يتشبث بأمل أشبه بالدخان المتطاير، يشعر بأنّه ما عاد ذاته. لحظة... لحظة واحدة كفيلة بإحداث انقلاب في حياة أيّ إنسان. يأخذ نفساً عميقاً، يحجزه في صدره

ثوانيَ ثم ينفثه وهو يتعلّق برحمة الله، لأوّل مرة يُدرك أنّ الدقائق ثمينة، وهدرها فادح، لأوّل مرّة يُدرك أنّ الدقائق هي العمر الذي أهدره في لحظة غرور.

تنبَّه مطلق على صوت عطيَّة العراقي رفيق السجن والأنفاس الحبيسة، والهارب من السقوط حين سقطت بغداد فسقط معها الكثير، و لم يجد مفرّاً من كلّ ذلك التداعي سوى التسلّل إلى البلاد بصورة غير مشروعة.

صوت عطيَّة الذي أسند ظهره إلى الجدار يندلق شجنه رخيماً حزيناً في موّال عراقي يزلزل قلب السكون:

أشوفك وين؟ حبيبي أتوسلك واطلبها بالنقدية أشوفك وين؟

يل ساعة فراقك... أحسّ فيها سنين...

والله سنين... أشوفك وين؟ عيني الما تشوفك عميا هاي العين،

وعيني الما بتشت لك شاللي بيها العين... أشوفك وين؟

تندلق دموع مطلق بصمت حرَّضه الشجن الصارخ في نبرات صوت عطيَّة، بينما عطيّة ساج في عوالمه وكأنه يناجي طيفاً يترصّد خياله:

وابوسك وين؟ واشمّك وين؟

واضمّك وين لو مرّه آني أشوفك قل لي أضمك وين؟ وين؟

وأجهش عطيَّة ببكاء مرّ، فانقلب مطلق على بطنه مدارياً نشيجه هو الآخر، بينما رأسه يضج بألم أشبه بالمطارق. انتابته سخونة ألهبت جسده تبعها أنين خفيض كسراج خفتَ ضوءُه، ورعشة تعصف بجسده فتنفضه قشعريرة، اجتاحه إثرها غثيان كاد معه أن يتقيّأ ما في معدته الخاوية.

في تمام الجنون

في تمام السادسة صباحاً خرجت وقبضة في القلب تجهل باعثها، كما تجهل سرّ الدمع الذي انحشر في حلقها ويوشك على التهاوي. حطّ بصرها على السائق أزهر الذي طردته قبل أيام يقف أمام نافذة السائق الجديد مُحذّراً إياه من توصيلها، وما إن رآها السائق الجديد حتى ابتعد كنيزك من شدّة خوفه من تهديد أزهر الذي دخل سيارته وقبع ينتظر أن يدفعها اليأس للركوب معه.

وقفت مشدوهة. طلبت من يحيى أن يصعد إلى الشقة حتى تعود فذهب بذبول ثم انطلق إلى الأعلى واندسّ في سريره مرّة أخرى ساحباً الغطاء على جسده.

بحيرة الدمع يزداد تلاطمها في حلقها ويعتريها الغضب ويفور مَدّه وصوت أزهر يبلغها بكل ثقة وتحدٍ أنه لن يسمح لأحد بأخذها منه، تضرب سيارته بحجرة التقطتها وصرخت:

– إن ما تنقلع لأخليك تندم على هذه اللحظة، يا حقير... يا كلب.

أدارت ظهرها وسارت في الطريق السّكني الممتدّ لتصل إلى نهاية الشارع بحثاً عن سيارة أُجرة فتبعها كظلّها.

تسير فينة ثم تلتفت وتشتمه، حتى غدى موازياً لها في سيره. أشغل جهاز التسجيل في سيارته ليترامى لها صوت الدُفّ الهندي بخلاخيله بنغم استفتاحي:

– توم بياكا... بياكا... توم بياكا... بياكا.

يدندن مع اللحن ونظراته تشعّ ببريق هوى وأوهام لا أساس لها إلا في دماغه:

– هاااااااااااي... اووووووو هوهوهوهههههه.

توشوش عيناها الفضاء. تُسرّ إليه بتعب روحها وهي تتّجه عنه يميناً فيتبعها، تنحرف يساراً فينحرف في الاتجاه ذاته، تصرخ من أعماق روحها وفي داخلها شيء يتمزق:

– ابتعد عن طريقي الله لا يوفّقك، أُقسم بالله لأدفعك الثمن غالياً!!

اقترب منها حتى بات مُحاذياً لها وهي تلتفّت يمنة ويسرة علّ أحداً يعبر فينقذها منه، بيد أنّ الطريق خالٍ كأنّما هجرته الحياة فجأة. انطلقت بأقصى سرعتها وهي تحتضن دفاتر التحضير وشعور متصاعد بالحرج والعبرة المخنوقة تُكحل ألوانها التي تتقلّب وهي تطوي الطريق راكضة بعباءتها.

تلمح من بعيد سيّارة أجره، يراها سائقها في وضعها الغريب، فيسارع باتجاهها ويقف. تقذف جسدها وهي تسأله بانفعال ما إذا كان يعرف شركة تأجير سيارات الخيّالة؟ يشير برأسه علامة الإيجاب. تطلب منه الوقوف لثوانٍ تُحضر يحيى ثم تعود.

تتّجه أولاً بيحيى إلى مدرسته وهي خاشعة في صمت مهيب. تطلب منه التوجّه إلى الشركة. تلمح أزهر يتبعها في الخلف، وحين رأى اتجاه السيارة إلى شركته بدا عليه الغضب، وأخرج يديه من السيارة مُهدّداً.

وقفت أمام شركة الخيّالة. طلبت صاحب المؤسسة من عامل وقف أمام بابها. دخل العامل وعلامة الدهشة بادية على ملامحه، لمحت أزهر خلفها يتوعّد ويهدّد بألفاظ نابية ونظراته كالمجنون الهائج.

خلعت حذائها وألقت به عليه ومرجلها يغلي من الغضب. وما إن لمح صاحب المؤسسة المشهد وهو يخرج إلى ملاقاتها، حتى طلب من العامل إعادة حذائها واتجه نحوها مستفسراً، أجابت وصوتها يرتعد من الانفعال والتشنّج أنها لا تريد هذا السائق أن يقترب من بيتها مُشيرة إلى أزهر، وأنها لن تتردّد في الشكوى عليه وعلى مؤسّسته لو رأته يعبر مجرّد عبور في منطقتها.

أغلقت النافذة بيد مرتعدة طالبة من السائق أن يأخذها إلى مدرستها وصوتها يتلاشى منهاراً. أجهشت ببكاء محموم حاولت خنقه كي لا يبلغ السائق، لكنّ زفراتها المنفلتة بحرقة بين لحظة وأخرى بلغته فلزم القيادة صامتاً.

حين وصلت مدرستها سألت السائق إذا كان بمقدوره المرور عليها ظهراً، فالتفت نحوها للمرة الأولى يسألها عن الوقت. اكتشفت أنه سعوديّ من لهجته، حيث لون البشرة الأسمر والملامح الدقيقة بجاذبيّة خاصة ضلّلتها، إضافة للجينز والبلوزة السوداء.

صمتت لحظات مترددة، (مرة أخرى... سائق سعودي... وشاب أيضاً؟!) قالت في نفسها. حيرة... قلق، ثم استسلمت لظرفها وأعلمته بالتوقيت وهي تَهُمّ بإغلاق الباب ثم عادت وسألته عن اسمه. أجاب دون أن يلتفت:

– راشد.

الباب الموصد

انطفأت بهجة عبد الرحمن وعارف ينكشف عليه ببوح الرفقاء أنّ ليلة الأمس كانت عقد قران أخته عفاف. عفاف، حُلم الطفولة وبدايات الصبا الذي طوى عليه صدره منذ بلغت مبلغ البنات ولزمت خدرها، ولزم هو احترامه للأعراف وصديق العمر صامتاً حتى تأتي اللحظة المُناسبة للبوح بعد تعيينه في وظيفة فيتصرّف تصرّف الرجال الحقيقيين.

لا يعرف كيف اسودّت السماء وانطفأت الأنوار للحظات وهوى قلبه في قرار سحيق. تكسّر صموده المعهود حين طفر دمع تاه مُعلّقاً في أحداقه، وكلمات التهنئة أبت أن تُسعفه وتؤدّي دورها المُلحّ في لحظة كهذه.

قفزت أمام عينيه صورتها قبل أن تحتجب. (حين كانت في الثالثة عشرة وهو ابن سبعة عشر ربيعاً. وقت أن عبر أمام منزلها في العصاري ولمحها تناديه من النافذة أن يقترب من الباب وضوء هواها يومض في عينيها، ثم لمحها تفتح الباب بخجل وصدرها الناهد الصغير يعلو ويهبط في تواتر:

- هادا "اليغمش" اللي تحبه، تعلّمته عشانك.)

يعود من طحين الأمس وقلبه كما بالونة نفخت فوق المعدل فانفجرت دماً.

يفزع عارف:

- إيش بُه لونك انخطف؟ يا بويه إيش بك؟

رائحة نتنة تعبر أنفاسه فجأة، لا يعلم من أين قدمت الرائحة لكنه استسلم لنوبة السعال بل حرّضها على الاستمرار كي يخفي عن صاحبه ما ألمّ به، حتى تقيأ ما في معدته فاختلطت دموع فجيعته باحمرار قوّة السعال، وعارف ينتفض حائراً:

- لا إله إلا الله صلّ عـالنبي.

مسح دموعه وهو يُمثّل أنه لم يسمع ما قاله رفيقه قبل لحظات:

- أعد ما قلته... لم أسمعك من الغصة؟

- خلاص سديت نفسي الله يسد نفسك، غيَّرنا الهرج.

شعر بالراحة لتغيير دفّة الحديث غير أنّه عجز عن استعادة توازنه الداخلي وهما أمام باب منزله. حيَّا عارف مودعاً وولج غرفته صامتاً على غير عادته. قذف جسده على السرير وصورة من الأمس تعبر سماء فكره بـ "رتم" بطيء:

نافذة غرفة عفاف تُفتح أثناء عبوره، بوجهها البريء الذي يحمل تباشير تفتح البدايات. تُناديه بصوت محمّلٍ بأطياف بعيدة، وحين رفع رأسه جهة النافذة قذفته بوردة حمراء.

يعبر سقوط الوردة الحمراء ذاكرته ببطء، كما يعبر صوت والدتها

التي فاجأتها بالدخول:

– أُندري يا بنت الله يُقصف رقبتك... أُندري فضحتينا...

تُغلَق النافذة.

ولا يعلم لماذا منذ ذلك اليوم، كلما استعاد ذكرى إغلاق النافذة شعر بمشرط يمزّق قلبه، كان يرى قلبه مُتورّماً أمام عينيه ينزّ دماءه، ويترك جُروحاً لا تزال ملوحتها حيّة حتى لحظة كهذه!

تدخل أمه قلقة:

– باسم الله عليك، إش فيك؟

لا يرفع ذراعه عن عينيه ويجترّ صوتاً ذابلاً:

– تعبان يمَّه، لا أريد أن أرى أحداً.

– طيب طمّني، ما الذي حدث؟

– بعدين بعدين... أريد أن أنام، من فضلك أطفئي النور.

همس مُحدثاً نفسه:

– أصلاً النور انطفأ خلاص.

تطفئ النور وتخرج وتبقى جالسة في الصالة، وبين الفينة والأخرى تقترب، تفتح الباب بهدوء لتستمع إلى أنفاسه ثم تعود أدراجها. وحين تأخّر في نومته اقتربت منه، نادته بصوت خفيض و لم يردّ، لم يشأ أن يردّ، أبوابه موصدة وظلامه طويل.

وضعت يدها على جبينه لترفعها فزعة من شدة الحرارة:

– يا ربي ما به هذا الولد؟

عاودت مناداته بهلع، ردّ في شبه هلوسة أنّه يريد أن ينام. صعقها الجزع فجرت نحو التليفون تتّصل براشد الذي انطلق بسيارته إلى

البيت مباشرة.

فتح الباب والقلق يصرخ على قسماته، وضع ظهر كفّه ثم بطنها على جبين أخيه المتّقد بأنين أشبه بالنحيب المخنوق.

- عبد الرحمن إش فيك؟ تَسمعني...؟

أنين متواصل دون استجابة دفعت راشد لحمل أخيه بين ذراعيه راكضاً به إلى السيارة وأمّه خلفهما تُلملم عباءتها وجزعها.

وحين شارف الليل على الرحيل، انتبه عبد الرحمن من نومة طويلة وحرارة جسده يسيل معها دفق ساخن من الماء الرطب يبلّل الفراش تحته، وأذناه "تشرّان" ناراً كأنّ دماءً تنزف منهما. شعر بكثافتها تسيل على رقبته لكنه لم يحاول لمسها... لم يبالِ.

التفت حوله فأبصر أمّه تضع يدها على جبينها شبه نائمة، بجوارها راشد الذي لمح ابتسامته الحانية تملأ وجهه حين استعاد أخيه، يكفي أنّه عاد... يكفي.

- تدّلع يا بو فهد... تشوف غلاتك عندنا يعني؟

قالها بحزن رغم أنّه حاول استحضار المرح.

أخذ عبد الرحمن نفساً عميقاً وملامحه تقطر بوجع رمادي... إن كان للوجع لون:

- خلاص... غابت الشمس و لم يعد هناك نور.

أشفق على والدته وأخيه من ألغازه، فاستطرد:

- عفاف مَلُكت... عارف أخبرني.

للوهلة الأولى شعر راشد بالصدمة، لكنّه استدرك توازنه بسرعة

لتخفيف وطأة الأمر على أخيه:

- لو كنت مكانك وبيني وبين عارف ما بينكما لكنت صارحته.

- خفت، خشيت على علاقتنا من الخدش، تعرف مجتمعاتنا... عند هذه المناطق المُحرمة تضيق أبواب الانفتاح، وقد ينكشف في رفيقي جانب لم أره فلا أجني سوى خسارة صديق عمري.

- إن خسرته لأنّك فاتحته برغبتك الزواج بأخته فلا خير فيه، قد يرفض وهذا حقه لكن الخسارة أمر آخر.

تتدخل الأم:

- يمّه هذولا لا يزوجونّا، هم غير واحنا غير.

- عارف صديقي منذ كنّا أطفالاً وأنتِ تعلمين.

- النسب ليس له علاقة بهذه الأمور، آآه يا عيال الريّس، يا خوفي عليكم من قلوبكم!

- هي بعد تحبّني ما هو بس عارف وكلكم تعلمون... تذكرين حين كانت تعمل لي الـ "يغمش" وتأتي بنفسها لتراني.

- يمّه كان لعب بنات، كانت طفلة والآن نضجت ووعت ما لها وما عليها.

- أنا متأكد أنّها تحبّني... كلّ يوم الصبح وهي ذاهبة إلى مدرستها ألمحها تلتفت باحثة عنّي قبل أن تركب مع سائقها، منذ أن كانت في الثاني متوسّط إلى قبل ثلاثة أشهر فقط... اختفت أسبوعاً ثم عادت لتركب سيارتها دون أن تلتفت كما اعتادت. نظرة الصباح والأمل والوعد الصامت بيننا.

يأخذ نفساً عميقاً ثم يصمت.

تستطرد والدته:

– هذا مهو دليل، وحتى إن كان هذا صحيحاً لكنها لا تستطيع أن تتزوجك، فيه حدود لا تملك أن تتجاوزها

راشد بثقة:

– طالما خفق قلبها وتعاطت مع مشاعرها وسمحت للآخر أن يتمادى في مشاعره، كان عليها ألاّ تستسلم، لا أن تغيب دون وداع ولا تبرير.

تنظر إلى أبنائها بشفقة أمّ خبرت الحياة ووعورة دروبها، وخبايا العادات التي لا يُدير أبناؤها لها شأناً بزعم أنّها تَخلّفٌ والحياة اختلفت. صوَّر لهم تحضُّرُ المباني وتراكمُ الشهادات أنّ تلك الجاهلية اندثرت، و لم يدركوا أننا مجتمعات تتحضّر أبنيتنا وتبقى أوانينا المُستطرقة، نبقى فارغين يستحكم فينا الموروث ويستعبدنا.

ييأس يبلغ حدّ القرف غمغم عبد الرحمن:

– خلاص، الكلام ليس له لزمة الآن... أريد أن أرتاح.

– ارتاح يمّه، ارتاح...!

مدّت كفّها إلى جبينه وطفقت تقرأ عليه آية الكرسي بصوت خفيض، فأسبل عينيه وغاب في حنانها، وجُرحه يقظ!

مسافة تقترب

بشهيّة مفتوحة للنهار وقفت أمام مكتبة على ناصية الطريق، بدت من خلال الأبواب الزجاجية أنها مكتظّة بالرجال. حين همّت بالخروج همّ هو الآخر. نظر نحوها وهو يغلق السيارة موضحاً:

– إن لم يضايقك سأدخل معك فالمكان مزدحم... وإن كان ما تريدينه مُحدّداً وتريدين مني إحضاره فلا مانع لديّ.

صمتت برهة، لا تعرف هل تَصرّفه جرأة أم تَطفّل أم رجولة... ثمّ أجابت:

– تعال معاي.

سار بجانبها وكأنّه حاميها، شعرت بالحماية من امتداد قامته في شموخ بقربها. منذ أن توفّي زوجها وأصرّت على البقاء في بيتها مع أبنائها، أحرقت مراكب الأنثى وأبحرت في شطّ الحياة دون لون زاه. بقِي مُلازماً لها كظلّها حتى إذا اتّجهت إلى البائع، مدّ يده لأخذ الكتب وقدّمها إلى المحاسب وهي تتأمّله. شعرت بأنّها تعرفه، هذه الروح لا تجهلها... تعرف عوالمها وبواطنها، سارعت بإخراج النقود من حقيبتها ومرّرتها له. التقت أعينهما للمرة الأولى، فَهِمَ أنّها لا تريد

آن يرى البائع أنّها تعطيه النقود... كانت حركتها هذه دليل فهم. دفع النقود للمحاسب والتقط الكتب والفاتورة وكفآ عائدَين إلى السيارة في صمت.

– شخص مثلك لماذا يعمل سائقاً... تبدو شيكاً! ما أنت حق بهدله!

– العمل إذا كان شريفاً ليس بهدلة، ثم إنها فترة مؤقته حتى أجد وظيفة.

تصمت... وتهمّ بسؤال آخر:

– آ...

يقاطعها:

– بكالوريوس إدارة أعمال، وكنت أعمل موظفاً في وزارة الثقافة والإعلام والآن سائقاً.

تصمت بخجل دفاعيّ وكأنّه قرأ أفكارها فتردّ:

– ولماذا تخبرني بهذا، هذا شأنك ولا تعنيني معرفته!

غضبها يثير مشاعر مُنعشة في داخله، فابتسم دون أن يلتفت. لزم الصمت... وضاقت بصمته... فلزمت هي الأخرى الصمت... ثمّ استطردت:

– امضِ إلى سوق الخميس.

نظر إليها بدهشة ثم أعاد بصره إلى الأمام:

– القطيف! في مثل هذا الوقت؟! زحمة!

– ....

اتّجها إلى السوق حيث البضاعة تفترش الأرض وطاولات متواضعة

وضعت على كلٍّ منها بضائع من كلّ لون، (أدوات مكياج، عطور، بخور من كلّ صنف، حلويّات بحرينية، حلويّات كويتية، ملابس، أدوات كهربائية، سيديز أفلام أجنبية، راديوهات وساعات، خضار، بطانيات، كل شيء)، لكنّها كانت تعرف وجهتها. اتجهت لعطفة في آخر السوق، فتبعها. لاحظت حركته السريعة في أن يكون معها في مكان مُزدحم، فابتسمت بصمت. سار بقربها حتى إذا بلغت المكان الذي تريده تركها بحرّيتها وبقي ينظر إليها من بعيد. توجّهت إلى قسم خاص لبيع الحيوانات، حيث أعداد هائلة من الحمام والدجاج، أرانب وقطط وكلاب، وأُمم من البشر مُتجمهرة. تأمّلها صامتاً ثم اندفع نحوها:

– ماذا تفعلين؟!!

– أشتري عصفوراً!

– وحيد؟!! لأ!! لا تشتري عصفوراً وحيداً! هذه روح لا فزّاعة حقل!!

– ليه؟

– العصافير خُلقت كي تُحلّق لا أن تُسجن، كي تحيا جماعات لا أن تموت فُرادى!

– أيضا خُلقت كي تُغرّد.

– خلاص اشتري اثنين، لكن واحد... قسوة! ألا يكفي أنها ستكون في سجن.

– سيكون في قفص!

– يعني سجن!

– لو اشتريت اثنين فلن يغردا... لازم واحد كي يغرد.

– تقصدين يعزف حزنه وإحساسه باللّوعة والوحدة، بتستمتعين بترانيم وحدته، إنتِ قاسية وأنا ليس لي حق عليك... إنت حرّة.

تركها وابتعد... وقفت صامتة، تُفكّر... شعرت بأنّه محقّ، تركت العصفور وعادت إلى السيارة وسار بجانبها صامتاً، وحين دخلت السيارة، علّقت بخجل:

– أنت كلامك صحيح، فعلاً قسوة وأنا شاكرة إنك نبّهتني.

– أنا اللي شاكر لك أنك سمعتيني وقدّرتي كلامي، أعرف أني تجاوزت حدودي، أنا مش من حقّي بسّ...

قضم كلمته... ولاذت هي بصمت ضاجّ بالحياة.

مفاتيح

وانتهى زمن الحلم الجميل وأمل توصد الباب بحزم أمام نزق نشمية. شعرت بأنّها تموت ببطء حين تصحّرت المسافات.

– بس أنا أحبك أكثر من أخت، أحسّك حياتي.

انقلب لونها إلى صفرة وانعقد ما بين عينيها. شعرت بأنّ مساحات الخضار المُعشبة في صدرها احترقت، فالتهمت حريقها بصمت محاولة التصرّف بحكمة واعية مع طيش مراهقة، مُوضحة أنّ المسافة الشاسعة بينها وبين والدتها من فقدان الحوار والحنان هي التي توهمها بذلك وهي التي أحدثت هذه الفجوة في داخلها، كما أنّ مشاعر كهذه أغلى من أن تُهدر بهذا الشكل، وعليها أن تحفظها لمن يستحقّها وحتماً سيأتي... يوماً ما. قالت قناعتها واستدارت مُبتعدة.

صمتت نشمية. ضاعت اللغة من قاموسها، شعرت بأنّها قد تخسر أمل لو ألَحّت على فرط عقد البوح أكثر من ذلك.

بينما ازداد شعور أمل بفقد راشد الذي غاب عن توصيلها لأزمة إنفلونزا ألمّت به فاتّصل يخبرها أنّه سيرسل لها صديقاً يثق به. باغتتها مشاعر لهفة على عودته. تمنّت لو تسمع صوته، أن ترى طَلّته، كما

انتابها القلق من مشاعرها تجاهه فحاولت عدم التفكير بها أو تحليلها.
كلّ صباح تتمنّى أن تفتح الباب لتراه يقف بانتظارها فتهرب من مشاعر الخيبة والضّيق التي تشعر بهما وهي ترى جعفر. تريد أن تسأله عنه فتتراجع، وحين انقضى اليوم الثالث وفتحت الباب صباحاً لمحته يقف بانتظارها... أشرقت روحها، شعرت بأنّها تطير، كأنّ هناك هالة من الضوء تحيط بسيارته. دخلت وهي تداري مشاعرها الفرحة... وهمست ببرودة تصنّعتها

- الحمد لله على السلامة.

شكرها... ومضى صامتاً مفكّراً في أخيه الذي استحوذ على جلّ تفكيره. تمنّت لو يتحدّث، لكنّه ظلّ صامتاً. فخدش صمته لهفة مشاعرها.

لفت انتباهه فتية يتحرّشون بعامل نظافة آسيويّ فخفّف سرعته. كانوا يشدّونه من ملابسه، ثم يرفع أحدهم علبة بيبسي ويقف على أطراف أصابعه متطاولاً لينثرها على رأسه، بينما التقط الآخر مكنسته وضرب قدميه بها ثم قذفها بعيداً.

نظر إليهم بغضب وهو يحدّث نفسه:

- يلعن أبوها التربية التي تربّيتوها... أوووف.

أوقف السيارة وخرج غاضباً ليتراكضوا بعيداً وهم يتضاحكون حين شاهدوا اقترابه وتبرّمه بينما ألسنتهم تُعيره بنقيضة جاهليتهم وتقذفه بلونه. ولم يحرموه من كرمهم بقذفه والعامل بالحجارة في هروبهم العابث.

تقدّم ليلتقط المكنسة مُتّجهاً إلى العامل الآسيوي وهو يعتذر له

بأنهم أطفال، فردّ العامل الآسيوي أنّه تعوّد على هذه التصرّفات:

– كلّ نفر سعوديّ ما في كويس... كلّه واجد مشكلة... هذا كيف مسلم؟!!

عاد إلى سيّارته مُفكّراً وتداعيات مقولة العامل تطنّ في ضميره وتخدش اعتزازه بجذوره. انتابه الحزن المالح في صدمة الآخرين فينا. أولئك الذين يحترموننا بسمعة مكّة والبيت الحرام وأرض المصطفى ومهجعه، بل يرون فينا قداسة تُجلّنا وترفعنا إلى مصافّ الملائكة، لكن حين يقتربون منّا يُصدمون في الصورة المُزيّفة التي رسموها لنا عن بُعد.

كان وجه عبد الرحمن الحزين يحدّق به، قرأ في تقاطيعه ألماً دفيناً وانكسارَ روح زاده تصميماً على أخذه في سفرة قصيرة كي يخرج من كآبته. الرغبة في القبض على مفاتيح تمنح عبد الرحمن حياة جيدة دفعته لإخبار أمل أنّه مضطر إلى تركها أسبوعاً لسفرة عائليّة طارئة، وأنّه سيرسل جعفراً بدلاً منه. شعرت بأنّ أسبوعاً زمن طويل لا تقوى على احتماله فانفجرت ثائرة:

– لا داعيَ أن ترسل لي رفيقك كلّ يوم، إذا لم تكن تريد إيصالي فأخبرني.

نظر نحوها بعصبية قائلاً:

– لا ترفعي صوتك... أنا لست خادماً عندك... قلت لك عندي ظرف وسأؤمن لك التوصيل.

– ولماذا ترفع صوتك؟ خلاص، لا أريدك ولا أريد جعفراً وهذه المرّة الأخيرة التي توصلني بها.

رد ببرود:

- كما تُحبّين.

شعرت بأنّها أضاعته دون أن تقصد، لكنّ كبرياءها منعتها من الإيضاح، فضاقت روحها وعَنَّ لها البكاء.

حين وصلت باب المدرسة، أخبرها دون أن يلتفت أنّ جعفر سيأتي إليها ظهراً، فردّت بشموخ:

- لا أريدك ولا أريد جعفر... مع السلامة.

كان سيأتي

– خشيت أن تضيع منّا.

هكذا هطل حنان راشد، وقد أخذت شواطئ عبد الرحمن في الجريان السّلس وتناءت الطرق المعتمة عن فؤاده واستقرّت عيناه في عينَي مُحدّثه، وقد مضى زمن كانت عيناه فيهما مُنكسرة... تائهة.

– هل تذكر كيف كان والدي يغرس فينا الإيمان بأنّ لا شيء ثابت في الوجود، وكل شيء قابل للاضمحلال والزّوال، وأنّ ما نراه اليوم صواباً قد يكون بعد زمن هو الخطأ بعينه، وأنّ ما لا نتقبّله اليوم ونثور من أجل إيقاف مَدِّه قد يكون بعد زمن هو الأمر المألوف والمعتاد.

– في الأيام الماضية مرّت عَليَّ أوقات شعرت فيها بالاضطراب، كأنّي لست قيد هذا الوجود، مطارق حادة تضرب بمسامير مسنّنة الرؤوس في صدري وتسحقه، ضيق أبحث معه عن الفرار حتى من جلدي. ففي الأشهر الأخيرة كنت أشعر بحالة قلق خفيّة، هُناك شيء ما... سيأتي، مهما تحايلت على الواقع كان سيأتي، لكنّني أجهله، أشعر بدبيب تخلّل من عفاف في روحي لكنّي أرفض تصديق شعوري فيتكاثف ضيقي، حتى تأكّدت من صدق حدسي حين صرّح لي عارف.

الآن ابتدأت شيئاً فشيئاً أستعيد صَفائي الذّهنيّ وهدوئي. أُشرعت نوافذ الحياة في صدري وأنا أغرق في تأمّل "دلّوعتي" لتعطيني درساً بليغاً في قيمة الروح والحياة لكائن من كان، فحالة الكآبة التي اجتاحتها بعد وفاة أبنائها، كيف وهي الحيوان غير العاقل، تصاب بكلّ هذا القدر من الحزن واللوعة وتمضي أيّامها ممدّدة في المكان ذاته الذي كانت تجلس فيه معها تضع يديها تحت ذقنها وتشرد شروداً طويلاً رافضةً الأكل والشرب والحركة لتنهض فجأة راكضة صوب الباب الذي خرجت منه حين هممتُ برميها بعد أن تُوفيت، وحين يَطول مكوثها ولا تراها تعود مُتهالكة لا تلتفت لأيّ صوت، فقط تنظر لما حولها بحزن جريح بلا اكتراث ثم تشرد في عوالم مجهولة.

نظرتها كان فيها صورة حفرة غائرة لم تُردم. جزء من روحها اجتُثّ ولم تعرف كيف تردمه رغم أنها عادت إلى حياتها الطبيعية، تغيب نصف ساعات اليوم وتعود، لكنّ الحفرة التي لم تردم باقية في عينيها. يا الله... عذّبتني نظراتها، وأيقظتني في الوقت ذاته! اكتشفت... أنّ الألم فهم للحياة حين لا يستلبنا أمداً طويلاً، اكتشفت... أنّ محطّات الوجع هي محطّات النضج والوعي في أعمارنا!

همس راشد بابتسامة مُطمئنة علت شفتيه:

– تُريد أن تقول إنّ الألم فعل النضج الحقيقي.

هزّ رأسه بالإيجاب وسحابة تفكير تطوف بملامحه.

سأله راشد وعيناه تحتويانه باحتضان عميق عمّا إذا كانت لديه رغبة في أن يُرافقه ووالدتهما في رحلة إلى أبها لتغيير الجوّ؟ فلم تغب عن ذكائه وفطنته أنّها محاولة من أخيه لإخراجه ممّا هو فيه. صمتَ مفكّراً

برهة وقد استكانت شواطئه بالبوح الحنون، ثم أسرّ له بحنينه للذهاب إلى مكّة لأخذ عمرة كي تغتسل روحه ممّا اعتراها من غبش همّ. يحتاج لأمان البيت وسكينة القرب من حرمه.

– خلاص... جهّز نفسك يوم الأربعاء بعد بكرة.

وفي لحظة استرخاء تمدّد فيها راشد، دبّت رفرفة عذبة في قلبه وهو يسترجع طيف أمل دون وعي، شدّه من تلك الرفرفة استرجاعه لما حصل بينهما وقت الظهيرة، محاولاً فهم السّر في انقلابها عليه فجأة. استعاد تذكّر أوّل يوم رآها فيه غاضبة من السّائق الهنديّ وكيف كان غضبها وانفعالها، رغم الرّقة التي أحسّها في الأيام التي قضاها في توصيلها. شعر بأنّه ربما استفزّها، لكنّه لم يجد لها مُبرّراً كي توصل الأمر إلى درجة أنّها لا تريد أن تراه مرّة أخرى!

شعر بالأسف أنّه لن يراها، تمنّى لو بالإمكان إصلاح الموقف... انتبه أنّه مهتمّ، يريد أن يحدّثها لكنّ كرامته لا تسمح له، هي التي يجب أن تتّصل، لكنها لا تفعل.

وصباح اليوم التالي امتطى عبد الرحمن أوّل غيمة للخروج من العتمة. أوقف سيارته في أحد الأزقة المُكتظّة بالمارّة، حيث تتناثر المحلّات الشعبيّة والبشر المارّون، كلٌ شاردٌ في عالمه، انتظاراً لعارف كما اتّفقا على الذهاب إلى الأستاذ الرياضيّ لحضور إحدى المباريات.

ترجلّ من سيّارته وسار مشياً للتّمتع بالرؤية عن قرب، حيث التحفت بضائع بعض النسوة والمسنّين الأرض في بسطات رخيصة تجمهر عليها العابرون، وغدا الفضاء ريّاناً مُكتظاً بأحلام البسطاء.

عبر شيخ مُسنّ يبدو أنّه بلغ آيةَ العناء، ثوبه رثّ مُتّسخ، يُرتّل كارثته بذهن غائب:

– قال لها إنّه يُحبّها وصدّقته، قال لها سيتزوّجها وصدّقته، بنات مالهم هاجس غير الحب وعيال حرام مالهم هاجس غير الضحك عليهم، هي ردمتها في التراب وابن اليهود...

لمح خيال رجل فتوقّف دون أن يأبه أنّ ثرثرته تبلغ العابرين. انكمشت عيناه وأنعم النظر في توحّش وكأنه يجمع ضوءهما الشحيح للتعرّف على الواقف أمامه، و لم يطُل تحديقه، ردّ بتحدٍّ في وجه عبد الرحمن:

– شوف... لو آخر ضي في عيني، أجيبه يعني أجيبه لو اختبأ في بطن أمه.

ومضى مطيحاً يديه أثناء سيره، مُحدّقاً في وجوه العابرين من الرّجال، بينما لسانه لا يزال يهذي بفاجعته في تكرارٍ لا يتوقّف:

– يقولون صار أبو عيال، ما بتعرفه، تغيَّر، إيييه، ريحة الكلاب ما تتغير، واصله واصله.

طفح حزن غامق في روح عبد الرحمن دون مُقدّمات والرجل المطعون يمضي وصوت جُرحه الغائر يبلغ المارّة وينتثر في الطرقات، وبتلقائية انفلت منه بأسى:

– يا الله... خراااب، أي عالم موبوء هو هذا؟! اللّهم من أراه قوّته فيه وفي ابنته، فأره قوتك فيه!

سطع وجه مبارك في زحمة الوجوه، واستضاءت ملامحه حين أسرّ له عبد الرحمن برغبته في مصاحبته إلى مكة.

شقّوا الطريق الأسفلت إلى الدّيار المقدّسة، راشد وأمّه المقبوضة الصدر على غير عادتها، يجاورهما عبد الرحمن ومبارك في سيارة الأخير. الطريق البرّي يمتدّ كأفعى صفراء لا تُخبّئ تحت جلدها الأملس سوى سمومها ولدغها. رائحة حُرقة قلب تسافر عبر الهواء، يتجاوزان راشد ثم يختفيان

يتمدّد تراب الوقت... يُشهر غدره... تتّقد عيون بوم يرتخي لها الأمان... تعبر شاحنة بشكل مفاجئ أمامهما فتربك المباغتة ذهن مبارك الذي شرد لوهلة... لحظة خاطفة لا يقرؤها الوعي ولا يستدركها.

اندفع جسد عبد الرحمن إلى الأمام بقوّة، ضرب صدره في "الطبلون" الأماميّ، فلمح بشفافية الرّوح جسد مبارك يضرب في المقود. ارتدّ جسده إلى الخلف بالقوّة ذاتها، ودخل منطقة غير واضحة... ذرّات تبتلع ذرّات... ضوء باهر، سرداب غامض...

(ومضةٌ له وهو طفل مع والده وراشد وهم يقطعون الدرب في صباحات العيد النديّة، ليقفوا أمام المنزل الطينيّ في الأحساء لجدّه المرحوم، ومضةٌ له يافعاً يضع "طراطيع" تحت عجلة مُدرّس الرياضيات، ومضة لذراعه وهو يداريها بالدُرج ويرفع كمّ الثوب يحذر لنقل معادلة الكيمياء في امتحانات الثانوية العامة، ومضة وهو ينزل والده في قبره ويجهش بالبكاء، ومضة لأمّه وهي ترقص فَرِحةً بعد حصوله على البكالوريوس...

الضوء يخبو... عتمة... عتمة... عتمة...)

دقائق غادرت... وغدرت.

لمح راشد من بعيد طيف حادث. مدّ رقبته في استباقة للاستبصار، وارتفع هاتف في ضميره (أتى أمر الله فلا تستعجلوه). اقترب... أبصر سيارة مبارك تحت شاحنة، فتوقف الزمن... شلل فكريّ يتزلزل على صوت أمّه وهي تمدّ يدها المرتعدة الكفّ في هلع، وتنظر بعيني حدأة كسرت صلابتها، "هذي سيارة مبارك؟" صمت. ونزل مسرعاً، ليجد أخاه وابن عمه قد فارقا الحياة وقد تمزّقت بعض أعضائهما.

التفت إلى الخلف فرأى أمّه تهرول لاهثة متوجّهة نحوهما. سارع بإبعادها وهي تنادي عبد الرحمن، وتطلب منه أن يتركها بحسم:

– أريد أن أراه.

توقّف عقله عن التفكير بين الكارثة التي خلف ظهره وأمّه التي يكاد عقلها أن يخذلها. حاول إرجاعها إلى السيارة فأبعدت يده بعصبيّة وهي تهمّ بضربه:

– اشوف ولدي.

أبعدت راشد الذي حاول احتضانها ففرّت مُهرولة، باحثةً في أفق الفضاء عن مكرمة تطمين، أو فقدان شعور أبديّ لا تستعيده أبداً.

ولأنّ الثانية من عمر الزمن ليست هدراً، لأنّ اللحظات وإن فلتت عمر... ففي اللحظة ذاتها التي حاول فيها إعادة أمّه إلى السيارة، انقطعت أنبوبة الديزل الموصولة بالخزّان من قوّة الضربة، وتسرّب الديزل على الأسفلت، فاشتعلت النيران في السيّارتين.

لمح راشد وأمّه ألهبة النار تتصاعد. نادت أمّه الله والأرض والسماء أن يرأفا بها وتردّد صراخها ذبيحاً:

– عبد الرحمممممن.

تراكضا، كانت النار تلتهم كتف عبد الرحمن وجذع ابن عمّه، بينما الفضاء أجرد إلاّ من هول الحدث وفداحته ومنظر أمّه التي تصرخ من أعماق روحها وقد سقطت عباءتها وهمّت بإلقاء نفسها عليه في النار نفسها.

شُلّ عقل راشد وما عاد قادراً على التفكير في أيّهما يداوي. ينتزع أمّه قبل إلقاء نفسها على عبد الرحمن صارخاً فيها دون شعور أن تبقى حيث أجلسها.

جلست تُهيل التراب على رأسها ليمتزج بدموعها وهي تتمرّغ في التراب وتستغيث بالمولى أن يرأف بابنها وابن عمه.

ركض نحو السيارة يتبعه نحيبه. تناول مطفأة الحريق وركض. بدأ أولاً بسحب أخيه وابن عمه من أقدامهما من منطقة النار، وعندها جرت أمّه تُهيل التراب عليهما. وَجّه المطفأة إلى اللّهب المشتعل لكنّها لم تعمل. كرّر محاولته بيدين مرتبكتين من الهلع والغضب فباءت بالفشل. قذف بها وركض مرّة أخرى إلى السيارة. تناول دلواً من خلفيّتها، ملأه بالماء وعاود الجري. أسرع بنزع شماغه وسرواله فثوبه مزيج من السّلك والحرير لا يفيده اللحظة. رشّ الشماغ والسروال معاً أثناء ركضه ثم شرع في محاولة إطفاء النار عنهما، بينما لهيبها يطال يديه ويحرقهما وفحيحها يشوي وجهه وتنزّ دموع عينيه التي احمرّتا من كثافة الدخان.

انطفأت النّار ثوانيَ ثمّ عادت واشتعلت. أتت النار على السروال والشماغ، رشّ الماء الباقي، ثمّ لم يعد لديه ما يقاتل به خصمه لكنّها عند هذا الحدّ باتت برداً وسلاماً عليهما فخمدت، وظلّت تشتعل في السيارتين.

وضع يده على رأسه وهو يستدير يميناً ثم يساراً، يتقدّم ثم يتراجع مذهولاً! هل هذا حقيقة؟! أم كابوس وسيُفيق منه؟! وهل هناك حقيقة بهذا الحجم الفادح؟! هناك أحداث يعيّشنا القدر إيّاها... أكبر من حجمنا، وأكبر من استيعابنا وقدرتنا. أحداث حين تقع يُدرك المرء أنّه ضئيل ولا يُذكر مقارنة بحجمها، وأنّه لا ناجي منها سوى اثنين... من كان بلا قلب، أو من تربّع الإيمان العميق شغاف روحه.

دار حول نفسه في كلّ اتجاه باحثاً عن نجدة... وليس سوى القدر... ومشيئة الله النّافذة وأمّه التي احتضنت عبد الرحمن تهتزّ يميناً وشمالاً.

جلس على ركبتيه باكياً. نحيبه اختلط بصراخه، ثمّ سحب الهاتف المحمول من جيبه اتّصل بـالمرور. حدّد موضعه... أفادوا أنّ عليه الاتصال بأمن الطرق وزوّدوه برقم الأمن الخاص، ومن جهتهم سيقومون بما يتوجّب فعله. أغلق الخط بيد مرتعشة محاولاً تغميق الرّقم الذي كتبه في وسط يده، اتّصل و لم يجد ردّاً... ألقى الموبايل أرضاً وهو يتمنّى أن لا يكون... تداعى دعاء مريم في ذاكرته داوياً "يا ليتني كنتُ نسياً منسياً"، هو الآن يتمنّى أن يكون نسياً...لا وجود له ولا شعور.

نهض وعيناه تنفذان إلى السماء في نداء استغاثة موجع. نظر أمامه فرأى آثار النيران وقد التهمت وجه أخيه وأذابت جزءاً من جلده، فضرب بقدميه الثرى:

– عبد الرحمـ...ـن... عبد الرحمـ...ـن.

انفجرت هادرة ذبيحة تتردّد أصداؤها دون بارقة نجدة. ليس سوى

الاستسلام إلى مشيئة الله، عاود النداء إلى عبد الرحمن، ثم نادى على مبارك... وليس سوى الفضاء الصّامت.

جلس على ركبتيه اللّتين باتتا كعودين جافّين، عاجزتين عن حمله، وهو يرتعد كغصن عصفت به ريح عاتية فكسرته. عاود النّداء بتوجّع على عبد الرحمن وهو يحتضنه وكأنّه يريد أن يدخله في قلبه كما احتضن والدته التي غشاها من الموت ما غشي.

لمح سيّارتي نجدة ومطافئ تقترب... لم يعد يشعر بشيء، ولا ماذا يقول... ولا ماذا حدث، لحظات توقّف فيها الزمن. كلّ شيء أصبح يتحرّك من خلال غبار... والرؤية بلا رؤية... لم يعد يشعر كيف عادا إلى المنزل، وأمّه شبه مُغيّبة وشبه حاضرة تنتحب وتمزّق ثيابها طوال الطريق وهو بين مصابه الفادح وبين محاولة تهدئتها وبين هطول صورة أخيه وابن عمه والنار تلتهمهما، تتبدّى أمامه فيصرخ وهو يضرب رأسه بعقود السيّارة أثناء مواصلته السير.

لحظة سقطت سهواً من عمر الزمن وتأبّدت كورم سرطانيّ خبيث سكن الدماء وأبى مفارقتها، مهما توارد عليه من حقن كيماويّة، قد تزيل الورم لكنّها لا تمحو وجعه... ولا تجتثّه.

الباحث عن مرفأ

... (مطلق فهاد المرضي... واعتراف بالقتل بعد إنكار).

أعاد قراءة الاسم من الجريدة ثمّ طواها تحت إبطه، يتقدّمه ضوء "كشّاف" يسير به في عتمة المنزل الذي بات أقرب إلى الخرابة. وهو من دون شك شديد الوسامة، بأنف روماني، وعينين واسعتين مُكحلّتين حدودهما تحتضنان حدقتين عسليّتين يشي بريقهما بعاطفة متأجّجة يعلوهما حاجبان مزجّجان، بينما شفتاه ممتلئتان امتلاءة شهوانيّة، ببشرة بيضاء مشرّبة بصفرة شديدة نتيجة النحول الذي بدّد الكثير من وسامته الواضحة.

سار محنيّ الظهر وكأنّه يسحب خلفه ما ينوء به. بقايا أطعمة ترامت من الزبالة التي تركت في حوش المنزل فعاثت بها القطط، وضربتها الشمس ففاحت رائحتها، يدور في غرفه التي غطّتها الأتربة والأوساخ وباتت مخبأً لفاسدي الخُلق يمارسون فيه شتّى أنواع الرذائل، بقايا أعقاب سجائر وحُقن وريدية وبعض الملابس الداخلية مبعثرة هنا وهناك. عاود النّظر إلى باب الخروج، فعادت صورة من الأيام الخالية إلى مخيّلته، دوّى من خلالها صرير الباب وهو يُفتح في لحظة اندلاق

الذكرى التي انطفأت قبل استرساله فيها، شاعراً بأنّ المكان لا تقطنه حتى البهائم.

هوى من الفاجعة واهتزّ جسده إثر نحيب حاول كتمانه خشية أن يشي به صمت الليل وهو الذي حاول ستر عُريه الداخلي! انطوت سنون كان قد ترك سرَّه في جرابها ومضى يمضغ ندمه بصمت أرخى نحيبه إلى الريح. نهض هارباً من المكان وولج الظلام والمجهول.

في عصاري اليوم التالي ولج أزقّة حيّ العشائر. استنشق نسائمه وتفقّد مساكنه وما طرأ عليها من تغيير، ومن رحل عنها وضمّه التراب. تهادى في الدروب المُتربة مُلثَّماً لا تتبدّى سوى عينيه وهو يسعل سعالاً شديداً حتى ترنّح جسده ودمعت عيناه.

دخل في منعطف دون هدى... لا يعرف وجهته، فقط أراد استعادة مساءاته الآفلة بكلّ زوايا نبتت فيها.

لمح توزّع المراهقين في أزقّة الحارة، مسندين قاماتهم المتّكئة على مصطبات إسمنتية مُهدّمة أو على أكتاف بعضهم طوال اليوم رغماً عن إرادة ذويهم.

امتلأت عيناه بالغبش، إذ غادرته البصيرة منذ أفول، عبرته سيارة مسرعة وأثارت تراب الأرض الخانق في وجهه فعاوده السعال الشديد وتمخّط كي يبحث عن متنفّس.

شعر بأنّه ضئيل وحقير يحمل عاره الذي لو اطّلع عليه أحد هؤلاء الصبية لبصق عليه وواراه التراب غير مأسوف عليه.

"حقير... سافل... مَرَّغت مَرَه كرامتك ورجولتك في التراب، بعت مالاً يباع من أجل عينيها، منحتها لجامك بنفس راضية حتى

ركبت ظهرك... حقيررررر."

هكذا التهم حوار احتقار الذات ضميره وقد سأم الفرار ومطاردة الريح.

إحدى الأمّهات تقترب بعباءتها تلمّها بعد أن تبعثرت اتجاهاتها نتيجة حركة ساقيها السريعة الغاضبة، حاملة بيدها عصا واتجهت لإحدى تجمّعات المراهقين. لمحها أحدهم في السادسة عشرة وأطلق ساقيه للريح ليختفي في ثوان.

اقتربت من رفقته:

– قولوا للكلب الداشر خويكم يرجع البيت أو يرد على اتصالات أُمه، الله لا يبارك فيكم ولا في من كنتوا جيرانه.

ردّ أحدهم ببحّة بداية البلوغ وحشرجتها، وقد أرخى العمامة على نصف جبينه ومدّ إحدى ساقيه وركّز الأخرى وظهره إلى جدار أحد المنازل وهو ينفث دخان سيجارته التي ارتخت بين أصابعه متدلّية من كفّه، الجالس على ركبته ببرود ولا مبالاة:

– خوينا مهوب كلب، أرجل منه ما فيه... انتوا اللي مصغرينه.

– اقول انت استرجل الأول واقعد قعدة رجال وبعدين تكلّم، الله لا يبارك فيكم ضيعتوا الولد.

استدارت وقد اختنق صوتها وهي تقاوم البكاء. سارت مكسورة بألم دفين، وهي تدعو الله على ولدها الذي عذّبها هذا العذاب وعلى الشلّة التي أضاعته. اختفت وهي تتناشج ودموعها تبلّل غطاء وجهها الأسود حتى التصق بخدها فأدخلت يدها أسفله لتمسحها.

سافرت نظراته خلفها. يعرف هذه الهيئة جيداً، كما يذكر نبرة هذا

الصوت المشروخة، لم تطمس السنين حنانه، تمنى لو يلحقها ليقبّل التراب الذي تسير عليه ويبلّله بدموع ندمه، لكنّها اختفت وابتلعها قدرها.

استعاد حديثها مفكّراً فيه وقد اشتعل هاجس في ضميره. وقف دون حراك وبلغ سمعه تصفيرة عالية أطلقها أحد الفتية بشفتيه وأصابعه وعاود تكرارها بنغمات بلبل. وبسرعة عاد الفتى الذي هرب قبل لحظات نافخاً صدره ورافعاً كتفيه مبالغة في الرجولة وبصوت يحاول تضخيمه وإصباغ نبرة الفحولة عليه قال حانقاً:

— والله ما بـ رد البيت... "امعًصي"... شفتوا بعيونكم؟

هز الفتى الذي خاطب المرأة كفّه إشارة اللامبالاة:

— ارمِ وراء ظهرك.

اقترب الملثّم وكأنّه مشدود بحبال مغناطيسية، خطواته بطيئه وثقيلة ثقل الزمن الذي حمله على كاهله. ظلاله ترتسم على الجدار أشبه بالمارد، وفي عينيه قلق يُفتّش عن مرفأ بحرارة موجعة. في نظراته معنى من خُبأت روحة في زجاجة تهشّمت إثر سقطة داوية وتبعثرت إلى أشلاء متناثرة، عيناه على الفتى الذي قدم قبل لحظات يتأمّله، ثمّ تجمّد في مكانه وكأنّ صعقة تيار كهربائي عصفت بأوردته فبات ينتفض في مكانه وعيناه تترقرقان بدمع سخيّ.

فزّ المراهقون إثر الحالة التي انتابت الرجل، والتفت أحدهم إلى فوّاز متسائلاً بدهشة:

— تعرفه؟

لوّح فواز بيده باستهتار وهو يلوي شفتيه أنّه لا يعرفه. اقترب أكبرهم سنّاً وتبعه الباقون:

– فيك شيء؟ مدعدع شيء؟

قالها وهو يرفع كفَّه وتحديداً إبهامه إلى فمه إشارة الشرب. ظلت عيناه على فوّاز فهتف أحدهم:

– يبدو أنه يريد فواز!!

عينا فواز اخترقتا صدره بنظرات استهجان ونفور وكأنّ عقله ألهمه بسرّ هذا الرجل، فانتفض والرجل يحاول وضع كفّه على كتفه ليبعدها بقوّة وهو يصرخ:

– امعّصي... تراني رجال من ظهر رجال، ماني من اللي خبري خبرك، أصحى لا والله.

رفع ثوبه وثناه إلى الأعلى ثم ربطه على بطنه ليتبدّى سرواله الأبيض الطويل من تحته . دفع الرجل بقوة من صدره وهو يصيح فيه:

– اقلب وجهك أبرك لك.

فهم الرجل ما تبادر إلى ذهن فواز، وهزّ رأسه بأسف وهو يرفع يديه عن صدره بلين، ثم رمي شماغة على الأرض فتكشّفت هامته عن رأس اشتعل شيباً في غير أوانه. ألجمت حركته المباغتة الجميع بصمت هادر واعتصر قلب فوّاز شعور غامض مُقبض، دون أن يُدقّق أحد منهم في ملامحه.

قطع صمتهم الذاهل كبيرهم:

– يله مشينا مشينا... شكله مخرّف.

انسلو واحداً تلو الآخر من أمام ناظري الرجل الذي التقط عمامته وتلثّم بها ثم واصل سيره هو الآخر برأس مُنكبّ إلى الأرض... وابتلعه الطريق.

خائبة المسعى

في ظهيرة اليوم الدراسي الأخير، وبعد استلام النتائج التي تجاوزتها نشمية بأقل التقديرات لكنّها عبرت الأول الثّانوي بسلام، وقفت كورقة جرداء عصفت بها الرياح، فباتت تتقاذفها الاتجاهات وهي تحاول توديع أمل.

سكنها هاجس تقبيلها حدّ السطوة على أفكارها، لكنها لا تجرؤ على الإقدام رغم كونها باتت تُمثّل في خيالاتها أملاً عظيما وغاية تسعى إليها لتشعرها بانهيار الحواجز بينهما، كما تتوهّم.

دماء الانفعال تضرب في ملامح وجهها وتصعد إلى أذنيها لتحيلهما إلى حمرة مُحتقنة. يجب أن تتحدّث ثم تتقدّم. هكذا حدّثت نفسها. أسندت ظهرها إلى الحائط وغمغمت أنّها لا تعلم كيف ستمضي الإجازة الصيفيّة دون أن تراها؟ وكيف سيغدو الوقت بطيئاً رتيباً لا حياة فيه؟ ألقت عباراتها فقط كي تصل إلى نهاية اللحظة، تستعجل اللحظة الأخيرة كي تظفر بتقبيلها لكنّها تدور في عبارات فارغة سبق أن نثرتها على فضاء أحاديثهما، بينما

الخجل يشلّها. هوّنت أمل عليها الأمر بأنّ الأيام تمضي مُسرعة، ثم أثنت على قوّتها في تجاوز محنتها السابقة مع والدها، خصوصاً بعد رضوخه لرغبتها في مواصلة الدراسة، وتأجيل فكرة الزواج حتى الانتهاء من المرحلة الثانوية.

تصمت، وقد أفرغت ما في جعبتها من كلمات ولا تزال تراوح مكانها، عقلها يدفعها إلى الإقدام ومدّ يدها، والخجل يحوّلها إلى صخرة بكماء عاجزة. شعرت بحدّة الصمت وهي تذوب فيه. تحدّت خجلها، همّت بالإقدام، تحفّزت كلّ مشاعرها لأن تمدّ يدها كخطوة أولى بينما تَحوّل وجهها إلى صفرة باهتة وتلاحقت أنفاسها وتاهت نظراتها، وما إن استجمعت شجاعتها ومدّت يدها حتى تراكضت الطّالبات إلى وداع أمل، تتقدّمهم صالحة التي فتحت ذراعيها في احتضان بهيج، ببساطة فادحة حوّلت نشمية إلى حفنة رماد في موضعها.

تبعتها باقي الطالبات في مصافحة أمل وتقبيلها وسط موجة من الهرج البريء. ختمته أمل بمدّ يدها إلى نشمية وتقبيلها، حقّقت من خلالها حُلماً كان بالنسبة لها بعيد المنال وها هي تبلغه، رغم أنّه حدث بشكل بارد وكان مشاعاً ليست فيه أيّ خصوصيّة لكن... يكفي أنّه حصل فأسقط جدار الكُلفة لولا شعور غامض تسلّل إلى نفسها، فالقُبلة حدثت أشبه بتطييب خاطر لها ضمن المجموعة، كأنّها أشفقت على وقفتها الطويلة، فمنحتها إيّاها كواحدة من الواقفات لا لخصوصيّة تنفرد بها. انقلب شعورها، تبدّل إلى كُره اللحظة، وكُره القُبلة، والموقف برمّته. هكذا كانت نشمية تُحدّث

نفسها وهي تعود إلى الفصل مُحطّمة الروح، خائبة المسعى وإن كانت بلغته!!

* * *

وما بلغ هو غايته حين طافت عيناه تحرثان جدران السجن، فسطع في وهمه ضوء باهر تتّقد معه عينا القطّة بالنظرة ذاتها، المنفتحة على اتساعهما من الرعب حين تلاقت نظراتهما أثناء تهاوي حميدان.

رفع يده وكأنّه يوقف مدّ اقترابها منه، فإذا بالشّعاع يلتفّ في إضاءة أشبه بالدوامة، ثم يشمخ متصاعداً وينفجّر بدويّ أشبه بطلق الرصاص تلتصق معه عينا القطة وعينا حميدان بكلِّ زوايا المكان... عيون بارقة بوميض في كلّ الاتجاهات... يتلاشى الجدار ويتحوّل إلى عتمة، وعيون مُفزعة تنغرس في وعيه المُهترئ.

انكمش على ذاته في الزاوية وضمّ ركبتيه إلى صدره وعيناه زائغتان عصف بهما الرعب وبات أشبه بالشبح الخالي من الروح. صرخ وهو يرى العيون تقفز جماعياً وتثب عليه كالجاثوم.

غاب عن الكون فالتفّ حوله رفيقا السجن. سارع عطيّة بضرب النافذة منادياً على الحارس لإسعاف الفتى الغائب... وحين لم يأت، عاد ليضع يده على رأسه وقد رشح بحبيبات العرق التي تشي بسخونة ملتهبة تطوي جانحيه، وغاب في تساؤلاته:

"كيف تتوسّد عقولنا أحياناً وسائدها وتنام في أحلك اللحظات وأحرجها؟ وكيف تعمى بصائرنا فلا نرى أيّ جُرف نقود مصائرنا

نحوه؟ ولماذا لا تمارس قلوبنا دورها بإخلاص فتُحرّك مؤشّرها لتنبهنا؟!

لو أدركتُ لحظتها أنّي أقود حياتي إلى هاوية لأمر تافه حقير كمشاهدة آخر بلوتوث فضائحي، ما كنت أقدمت على ما فعلته! هل المصائب إذا قَدمت قَدمت بلا مقدّمات، هل تتآمر علينا؟ كأنّنا لا نفهم لعبة الحياة إلا حين نشارف على الخروج منها، وقد لا يحدث هذا الفهم أبداً".

ركن عقله إلى لحظة سكينة فلم يهنأ بها، عقله يستعيد للمرة المليون اليوم الدامي:

مطلق عائد من السوبر ماركت، تحتضن يداه علبة كولا كبيرة الحجم ووجبة بيتزا ساخنة كان يزمع الاستمتاع بها أثناء مشاهدته آخر فيلم فضائحي تمّ تسجيله بالبلوتوث لشخصية شهيرة في أحد الشاليهات.

ركن سيّارته أمام موقف الجيران كما اعتاد أن يفعل هو وإخوته كنوع من الاستصغار والاستفزاز لهم دون أدنى مُبالاة، فالشارع والعالم كلّه تحت أقدامهم، ملكيّة خاصة، من حقّهم أن يقذفوا أيّ عابر بأيّ كلمة تمتهن أصله وتصِم أمّه بأبشع التهم وأحقرها.

تنفلت من قلبه آهة حَرّى.

"أستصغرهم، وأنا فاشل في الثانوية وعاطل عن العمل، وأبناؤهم في كلّيات الهندسة والبترول والطب... كم كنت مغبياً تافهاً دون أن أبصر!"

حدّث نفسه، وقلبه يخفق لأجنحة الذكرى التي ترف:

يدخل المنزل مُنتشياً... يضع حمله، يسارع بتحميل الفيلم على

الكمبيوتر، دقائق وكان الجو مُهيّئاً للمتعة... يطفئ أنوار غرفته القابعة في الطابق الأرضي.

يبلغه صوت الجرس في رنين متواصل وكأنّ الشخص لا يرفع يده عنه... فلا يردّ. الشخصية الشهيرة بدأت في الظهور بينما كأس النبيذ العنّابي يلمع في الشاشة. يعاود الجرس الرنين بشكل متواصل. أصابه التوتر وشارف على فقد السيطرة على أعصابه التي لا تحتاج لمن يثيرها، فهو مستفزّ على الدوام وجاهز "للعركات".

أوقف الفيلم واتجه إلى الباب.

أدرك من الزعيق في الخارج أنّه حميدان الخبل، فهذه هي المرة الثالثة منذ سكنوا يأتي ليطرح السؤال ذاته. لم يفكّر لوهلة كيف لمعتوه أن يستوعب ما يقوله!! صرخ فيه أنّ أخاه ليس موجوداً وعليه أن لا يعود مرة أخرى. كاد يعود إلى غرفته لولا أنّ حميدان عاود وضع يده على الجرس في رنين متواصل.

صرخ بهستيريا:

– أقول انقلع لا أطلع أدوس في بطنك.

– خل حمود يطلع أنا عارف أنه ما يغى يشوفني.

– قلت لك حمود باع البيت من سنين... ما تفهم؟!

نكص إلى الداخل وعاود حميدان الرنين المتواصل. غمره الظلام، فالبيتزا ستبرد واشتياقه إلى مشاهدة الفيلم تستحوذ على أعصابه، والرنين المتواصل من "حشرة" مثل حميدان يفقده صوابه.

بات أشبه بمدمن المخدرات الذي حرمه المموّل في لحظة احتياج صاعقة لحقنة يوازن بها اضطراب الدم في أوردته، فلم يجد سوى

المسدس لغة يمكن أن يفهمها شخص مثله، سارع إلى أعلى رف في دولاب والده، شعور الأفضلية جعله لا يرى في حميدان سوى دودة ضئيلة من دود الأرض التي ليس عليه سوى أن يدوسها بنعليه مهما حملا من قذارة.

أخرج المسدس والرّنين لا يزال يطحن أعصابه، وفتح الباب:

– ابتنقلع يا "السربوت" ولا أحطها في رأسك؟

– أبغى حمود قلّه يطلع لي.

– أنتَ ما يفيد فيك غير الرصاص.

أغمض عينيه وزمَّ شفتيه وهو يدير رأسه يميناً ويساراً ندماً.

كنت فقط أريد إخافته لكنّ اضطراب حركته وهو يسمع دويّ خروج الرصاص جعله يقفز ثم حاول الارتماء على الأرض... فأصابت قلبه.

أجهش بالبكاء بدمع ندم ساخن وصادق.

احتضن ذاته وغابت عيناه في الأفق:

"السلام على روحك يا حميدان."

حزن فريد

القلب المطعون بالفقد كتلة وجع نافذة وغير مُحتملة.

فتحت أمّ راشد عينيها الذاهلتين وهي في حضن جارتها أم محمد التي لم يفلح صدق احتوائها في تخفيف الوجع الضروس.

نهضت زائغة النظرات مُحتزمة نزفها وهي تبحث في غرف المنزل، مسكوبة في خطواتها الواهنة، تفتّش الزوايا، تُسائل كلّ من حولها عنه بينما قلبها فارغ كقلب أمّ موسى. ضربت خدّيها وشدّت شعر رأسها حين صعقها الفراغ. نادته بصوت محروق وقد غاب كحل النهار:

"يا وليدي... ياوليدي".

ارتمت تتمرّغ على الأرض وهي تنتحب. أيادي نساء لا تميّزها ولا تأبه لها تحاول تهدئتها، تختلط الأصوات:

– "الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ".

– اذكري الله.

– ادعي له بالثبات.

– قولي: "اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيراً منها."

أضاعته. وكأنما سمعت صوتاً عند الباب مدّت بصرها مهرولة نحو السراب:

– هذا هو جاء... عبد الرحمن؟

تعاند الحقيقة العُظمى... تشكّ في أنّها ربما لا تزال تحلم:

–... إنت يُمّه؟

تتخاطفها أيادي النساء... يُحطن بها من كلّ جهه، يحشرنها في غرفتها... وتندلع حمى الفراق.

* * *

– راشد... يا ولد الريِّس...

صوت عبد الرحمن يناديه كأنّه خلفه، التفت بسرعة فلم يرَ سوى الفضاء السّرمدي، راوده الشكّ في حقيقة ما حدث، رُبما كان حُلماً، وسيظهر أخوه الآن. يُرهف سمعه ونظراته تلتهم الفضاءات حوله، ليس سوى الصمت والفراغ الضاج.

منذ الحادثة لم يبرح المنزل، تشرنق بظلاله، محاولاً استكشاف ما وراء هذا العالم الظاهري بقراءات فلسفية مكثّفة. عَذّبه المبرّر! لماذا يموت عبد الرحمن وبهذه الطريقة؟ أين الحكمة؟ لماذا جاء الموت باكراً وثمة أفراح لم يستذوقها وثمة قطارات لم يركبها بعد!؟

حاول استشفاف ما وراء الوجه الظاهر للوجود. رفع يديه يتأمّلهما، اعتصرت قلبه العدمية والإحساس الضاج بالفناء، نظر إلى ذراعيه مُحدِّثاً نفسه:

– تُراب... تُراب... الفقد يعني أنّ قلبك وضع تحت وهج الشمس مباشرة، بلا مسافات كونيّة فاصلة فأذاب جوفه، وبقيت خطوط القلب الخارجية التي تُحدّد معالمه، مذكّرة بأنه في هذا الموضع... ذات زيف وسراب خادع... كان ثَمّة امتلاء.

جال بصره في الكتب الراقدة في خشوع على الرفوف، تأمّلها... وقف بصره على أحدها:

جلجامش... جلجامش...

تبلغه أنّات جلجامش من وراء أسوار أوروك:

آه لقد غدا صاحبي الذي أحببت تراباً

وأنا سأضطجع مثله فلا أقوم أبد الآبدين

نهض والمرارة تملأ روحه وحلقه، قادته خطواته إلى غرفة عبد الرحمن، فتحها للمرة الأولى بعد رحيله. هبّت رائحته الآفلة، وصفعته صورة جديدة لعبد الرحمن تتوسّط الجدار لم يرها من قبل، حمل فيها قطّته وهي تلحس خدّه وتعلو ملامحه تكشيرة عابثة على حركة القطة. غفى الليل في صدره ورائحة عبد الرحمن تنبعث من كلّ الزوايا وتخترق الصميم فتدميه. الـ "درينغ سوت" الذي طالما لبسه لا يزال مُعلّقاً على الشماعة. اقترب منه... شمّ رائحته، وأجهش ببكاء مرير.

خرج مسرعاً يُفتّش في الطرقات، في وجوه العابرين، في الحزن العالق في الشجر، في النسمات الصامتة، وليس ثمّة عبد الرحمن يملأ حضوره الغياب.

أطفأ السيارة ودلف إلى المقبرة. اتجه إلى القبر الذي لا يمكن أن

ينسى موضعه رغم تقارب القبور وازدياد أعدادها بشكل سريع يثير في الروح الدهشة. ألقي السلام... تُراااب... تسفّه الرياح بلا رحمة، الكلّ هاجع في صمت أبدي، صلاة جماعية.

أطرق. ربما ذهب في إغفاءة، وربما غاب عن المشهد الضاج بالفناء للحظات.

حين رفع رأسه رأى أطيافاً بشريّة بملابس شفّافة لا تشفّ عن أجساد، تتهادى وسط فضاء أزرق متناه. وجوه نضرة، باسمة، ترفّ بأجنحتها البيضاء كأنما ينعمون بألفة مع الوجود الأزرق. بحث في الوجوه النورانية عن وجه يألفه ويعنيه، وقد انتفت المسافة الفاصلة بين الموت والحياة، و لم يره.

شعر بمعنى الموت يفيض ويتقاطر من عروقه أكثر من هذه الأرواح الشفافة، ضحكات أشبه بضحكات الطفولة البريئة تملأ الأفق حوله ويردّدها الصدى، ضوء الوجوه يتّحد مع ضحكاتها ويتباعد قصيّاً... مردّداً كالنسيم:

— الموت... تعرفه إذا خبرته... وتَخبره إذا عبرته... حين تعبر تصل.

حين تعبر تصل.

حين تعبر تصل.

صفعه وهج الشمس، فأدرك أنّ الوصل سراب ولا طريق للعبور إلا بالعبور ذاته، انكفأ مخذولاً والموت يرقد في ثناياه.

"من أجلها سأوقظ ضوء النهار."

قالها في نفسه وهو يفتح الباب. كانت الحمّى تنفضها نفضاً حتى

رشح العرق من مسامّ جسدها وبلّل موضع نومها.

فقدت قوّتها... وانكسرت. ما عادت المرأة الصّلبة المبتهجة على الدوام، باتت طريحة الفراش، دموعها لا تكفّ عن الجريان، وتغضّنت ملامحها واشتعل الشّيب حتى في حاجبيها.

كلّما رآها في وضعها ذاك ضاقت عليه الدنيا بما رحبت. اقترب منها، ناداها بهمس فلم تردّ سوى بزفراتها وتنهيداتها:

– أمي أنتِ إنسانة مؤمنة، لا تنسي أنّ الله إذا أحبّ عبداً ابتلاه، احمدي الله.

لمح دموعها تتراكض وجسدها المُسجى يهتزّ حرقة. تزفر:

– كلّ من أحب ذهبوا وتركوني، تُرى من القادم، سأدفنك أم ستدفنني؟

وبكت بمرارة تمنّى معها لو لم يولد ليرى أمّه بمثل هذه المشاعر.

قبّل يديها وهمس:

– تخيّلي دائماً كلّما اجتاحك هذا الشعور أنّ لديك سنداً قويّاً، ظهراً كبيراً ومسؤولاً عظيماً في الكون قادراً على فعل الكثير لك، وفي الوقت ذاته حنون ورحيم كأنّه والدك حين كُنتِ طفلة صغيرة، هذا السند هو الله يا أمي... الله.

احتضنته وبكت بحرقة:

– ونعم بالله، أستغفر الله العَليّ العظيم وأتوب إليه.

تهدأ ويداها تطوفان بملامحها تمسح دموعها ثم نهضت وهي تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم:

– سأغتسل وأصلّي.

هكذا كان يراها دائماً، الدموع تسبق حضورها، أو يراها لاجئة إلى الله مفترشة سجّادتها وهي تدعو لعبد الرحمن وتبكي حرقة فقده، كما يبكي هو الآخر هذا الفقد الذي لا شفاء منه. كيف تُردم حفرة الغياب الذي لا لقاء بعده؟ كيف تُلغي من ذاكرتك أنَّ أحبَّ الناس إليك وحيد في عتمة سرمديّة وفوقه أطنان من التراب؟ كيف يغدو جزء منك تراباً ويعود إلى تراب؟! لتضيع تلك المشاعر التي ضمّتك وإيّاه، ويضيع الصوت والبهجة والاحتضان والأحلام والعمر النابض بالحياة؟!

"بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَان" لجأ إلى الله، وكلامه الأزليّ لتستكين روحه. بقي الساعات الطوال جاثياً على ركبتيه والمصحف في يده، وحين يأتي ذكر الموت والبرزخ) "وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ"، يغرق في بكاء مرير، فحزن الموت له مذاق طافح غريب، للموت... حزن فريد.

وشوشة الغيب

وفي أوّل يوم دراسي وقفت الطالبات في تجمّعات شلليّة، متجمهرات في ساحة المدرسة في ضوضاء وفوضى عارمة. هرج وثرثرة وأحضان وقبلات متناثرة وترقّب لغرف المدرّسات لمعاينة من حضر منهنّ ومن غاب، ومن تغيّرت هيئتها ومن لم تتغيّر ومن حملت ومن لا تزال كما هي. بينما وقفت نشمية على أطراف إحدى هذه التجمّعات كورقة تائهة مسلوبة التفكير لا صلة لها بكلّ ما حولها وعيناها مركّزتان على غرفة أمل، وقد عانت في آخر أسبوع من الانتظار الممض واللهفة للعودة إلى المدرسة حتى باتت تقضي جلّ وقتها في النوم استعجالاً لدورة الأيام.

منى وصالحة غارقتان في النميمة على العابرات والاستمتاع بالتعليق عليهنّ، ومحاولة شدّ انتباه نشمية إلى جوّهن، وهي في عالم آخر.

حين خرجت أمل مع بعض الزميلات للسّلام على رفيقاتهن اللاتي لم يرهنّ في الغرفة المجاورة، لمحتها نشمية فاستضاءت أكوانها، تكثّفت مشاعرها واكتظّت، وازداد خفقان قلبها. تحفّزت كلّ مشاعرها لاحتضان نظراتها ومحادثتها، حتى انخفض ضغطها وشعرت بالدّوار.

رمقتها كلّ من منى وصالحة المُطّلعات على عالمها الداخلي والمُشفقات عليها من التوتّر الضاجّ في تعابيرها وتواتر أنفاسها.

مدّت منى يديها إلى حزام صالحة المفتوح لتربطه لها فمنحتها الأخرى ظهرها، وهي تترنّم بكلمات أغنية لعبد الحليم بهدوئها المعهود وبرودتها القاتلة مُتعمّدة ألاّ تنظر للرفيقة الولهى:

"وتاني تاني تاني...

راجعين أنا وانت تاني

للنار

والعذاب."

يعلو صوت صالحة الجهوري:

"من تاااااني ..."

همست منى إلى صالحة أن تأخذ نشمية للسلام على أمل كي ترتاح لأنّ خجلها سيمنعها من الإقدام، فردّت الأخرى بتذمّر:

– "يلعن جدفكن"، كم مرة أسلّم عليها؟ سلّمت عليها في الصباح حين عبرتني وأنا أسلّم على المديرة، وذهبت معك للسلام عليها وباقي الزميلات والآن أذهب مرّة ثالثة!

– وأنا لا أستطيع أن أذهب معها لأن أبلة فتحيّة وصلت، وأنتِ تعرفين أني لا أُحبّها ولا أُحبّ رؤية وجهها.

انضمت إليهن منيرة وبلغها أطراف الحديث، فطلبت منها صالحة مرافقة نشمية. ضربت دماء الخجل وجهها وهتفت ببراءة وهلع:

– غرفة المدرسات؟!!! لااااا أستحي... لكن إذا كنتِ ستذهبين معنا أذهب، لأن أبلة أمل تستاهل.

ردت صالحة:

– اقلبي وجهك بس.

تستعطفها نشمية:

– الله يخليك يا مني، فقط هذا الطلب ولن أطلب منكِ شيئاً آخر طوال العام.

هزت رأسها في رضوخ:

– والله ابتلشنا فيكم، هيييه...

تُكمل وهي تستحثّهما على المُضيّ خلفها:

سيذكرني قومي إذا جَد جدهمُ
وفي الليلة الظلماءِ يُفتقد البدرُ

* * *

لم تعِ أمّ راشد وشوشة الغيب، حين وقفت أمام بيت أم محمد، مُحمّلة بأسى عميق حفر معالمة على خريطة ملامحها وهي تخرج للمرّة الأولى منذ رحيل عبد الرحمن إلى جارتها، تُشهر طيبتها ويُشهر القدر وعده.

وأم محمد جارتها منذ سنوات مديدة، تجاوزت السّتين وأكبر من أمّ راشد بما يربو على العشرة أعوام، فارعة الطول داكنة البشرة، ممتلأة، ذات شخصية قويّة، ومزاج مرح ساخر على الدّوام، لديها بسطة تسحبها يومياً إلى سوق النساء مع ورود تباشير العصاري، طامحة إلى يوم تتنفس فيه قوانيننا المُعطلة معنى البياض لتحوّل بسطتها إلى محلّ تجاري.

– يُمّه... يُمّه...

اندلق صوت عبد الرحمن مُنادياً. استدارت باحثة عن ملامح تتلامع في مخيّلتها فلم ترَ شيئاً، تنهدت بأسى وأمطرت عيناها، ارتفعت كفّها إلى فمها تخنق شهقاتها، ومسحت مطرها. احتفظت بدفء قلبها متمتمة "الحمد لله".

مرّت ثوانٍ لتفتح الباب منيرة، الحالمة، أصغر بنات أم محمد وقد انتشت حين علمت أنّ أم راشد قادمة فجهّزت الكعك والمكسّرات وارتدت أجمل فساتينها، الكاشف عن مناطق الجمال، فقد تكون عين الأم رسولاً لقلب الابن.

حين دخلت أمّ راشد كان المكان مكتظّاً بنسوة تتوسطهنّ أم محمد وهي تدقّ شفتيها بـ "ديرم" ويرتفع صوتها مرحّبةً بصديقة العمر، مُزيحة من أمامها بسطتها العامرة بكلّ التناقضات: "حنّا... حلويات... ربيان... شوكلاتة باونتي ومارس... مكسرات، سراويل أُم خطين... أرواب... مكياج رخيص".

سلّمت على الحاضرات، وأفردن لها مكاناً قرب أمّ محمد واحتضنتها قلوبهن الحانية وعيونهن التي لم ترها منذ زمن. وحين استسلم الضجيج لبعض السكينة مدّت أمّ محمد يدها ببطاقة تناولتها من طرف الجلسة العربية. دعوة زواج إحدى قريبات أمّ محمد التي رصّت على مخارج الحروف وهي توصيها أن تأتي ولا تفعل كعادتها، تكتفي بتخزين البطاقة.

انتبهت أم راشد إلى منيرة التي شردت في ملامحها، ثم غادرت المكان، دُهشت من نحولها وانطفاء جذوة صباها، فمالت على أم محمد:

– ألا تجدين لك حلّ في ابنتك قبل أن تضيع من بين يديك؟

– سآخذها لـ "مطوّع" يقرأ عليها... اللي مثلها خلّص الجامعة.

تدلو أم زيد بدلوها مستعرضة بفتوّة كعادتها دهاء خبرتها:

– والله دواء الفتيات في هذه السنّ هو الزواج ومرضهم الحب والهوى... وخذوها منّي كلمة.

اختلطت الأصوات وتصاعدت مُحتجّة وكأنّ كلّ واحدة منهنّ تدافع عن ابنتها التي بها شيء من هذه الأعراض. ردّت إحداهن:

– إنتِ يا أم زيد ما عندك إلا قلّة الحيا.

– وه وه وه... والحبّ قلة حياء؟!! آه منكم بس.

أضافت أخرى:

– كان ذلك في الماضي، لا شيء في رؤوس الفتيات سوى الزّواج، أما الآن فهو آخر ما يُفكرن به.

هزّت أم زيد رأسها متحدّية بثقة:

– هذا أنا وهذا انتوا.. وبتقولون أم زيد قالت.

أضافت أخرى:

– بناتنا ليسوا لأمور كهذه... العويذ الله من شرك.

– أقول "عيارتكم"... الحب شر! إلا أحلى شيء في الدنيا، إيييه ما عليه... هيِّن، نسينا ما كلّينا، عفى الله عمّا سلف.

رمقتها المرأة بنظرة إخراس فهمتها أم زيد فاندفعت:

– أيه تعرفوني ما أحبّ النّفاق.

استطردت وهي تتلفّت حولها خشية أن تكون أخطأت الكلمة:

– أيه عدل يا أم زيد... نفاق.

ثم مسحت زوايا شفتيها باعتداد بالنفس وتبسّمت النسوة اللاتي اعتدن على أمّ زيد وعلى تعليقاتها.

وفي ليلة الزواج... جلست المجموعة المتآلفة ذاتها رغم تناقضها على طاولة واحدة. كما حفلت الصالة بالعديد من طالبات المدرسة وأمهاتهن وبعض المعلّمات، حيث جلست أمل في المقدمة مع أمّها التي غرقت في صمت مهيب وكأنها غير مُنتمية لما يدور حولها.

انطلق صوت "الطقاقة" متحدّياً أجمل الأصوات الغنائية في ساحة الغناء، وتفوّق عليهن بعذوبة صوتها، بدأت بموّال:

لّمني في محجر عيونك حبيبي وخلّني أشوف نفسي في عيونك واطمئن

دامك تنسى الهّم بالرمش الظليل تفلّني لعنبو ذا الرمش كيف إني من أسبابه أجن.

تفتحت عوالم مخبوءة في صدر منيرة. شعرت بأنّ هذا جوّها، فتقدّمت منصّة الرّقص التي غصّت بالفتيات الراقصات من الضيوف.

ثم بدأ العزف والغناء:

حبّك اللي تَل قلبي مـن بعد ما تَلّني صدق أنا ميت في حبك دامها عيونك كفن

اجمع اللي باقي(ن) مني شتات وتَلّني شوفني ذاك الغريب اللي يـدور عن وطن.

ويعلو هتاف الطقاقة:... أيوه... اسمع... وراء... عاشوا...

تدخل منيرة المنصّة وتشرع في الرقص بمزاج عاشقة. مدّت يديها

المتعانقتين وكفّاها تحتضنان كلتاهما، تحرّك جذعها وخصرها وهي تطوي بحركات رشيقة منصّة الرقص من بدايتها إلى آخرها، فقط قدماها وجذعها يعزفان بـ "هرموني" تناغماً ساحراً تتوقّف معه أنفاس أمل مشدوهة وهي تنظر إلى تلميذتها بدهشة، كيف تحوّلت تلك النسمة الحالمة إلى فراشة تشي كلّ خطوة من خطواتها الراقصة بفنّ... بالعشق المجمر.

تطوي منيرة المنصّة بحركات رشيقة كأنها لا تلامس الأرض. تتحرك يميناً ويساراً وكأن لا أحد يعلو المنصة سواها.

انفضّ الازدحام وتُركت الساحة خالية لها، الكلّ توقّف عن الرقص وعاد إلى مكانه للفرجة. كالطير يرقص مذبوحاً من الألم هي، توالى التصفيق والصفير من المراهقات في القاعة إعجاباً برقصها. قفز طيفه أمامها فانتفضت كعصفور بلّله القطر. أخذت في الترنّح في خطواتها ثم سقطت في نشيج متواصل.

فزّ الجميع من أماكنهم مبهوتين وتجمهروا حول رأسها، والبعض طفقوا يتلون عليها آيات من القرآن الكريم متوهّمين مسّاً من الجنّ أصابها، بينما رفعت أم زيد حاجبها وعيناها مفتوحتان نصف فتحة مُحدقة بسخرية وتحدٍّ في النسوة حولها وكأن ما حدث تأكيداً لرأيها السابق:

– أم زيد إذا قالت شيء... ختم... يُعتمد من غير نقاش.

امتعضت النسوة الحميمات من تعليقها ولوّحن بأكفهنّ لها باستهتار. ظلّت نظرتها بنصف عين تُحدّق في النسوة بخبث أنثى، ثم منحتهنّ قبلة طويلة في الهواء.

الحوار الدّفين

وفي صبيحة يوم الجمعة.

صحت أمل على صياح طفلها وقد اشتعلت حرارة جسده. سارعت بإعطائه آخر حقنة لخافض الحرارة لديها، فاليوم جُمعة ولا توجد مستشفيات تستقبل حالات إلاّ أقسام الطوارئ، وحتى سيارات الأجرة تركن إلى البيات ويقلّ نشاطها. كما أنّ الجوَ ماطرٌ، وصراخ طفلها يجعلها في حالة عصبية أشبه بالهستيريا تزداد مع بكائه الذي عجزت عن إيقافه كما عجزت عن التحايل على زائرته المُلتهبة الإيقاع.

مضى الوقت يختزل صياح الصغير، وإصغاء أمّه الطاحن لنداءاته المُستغيثة بها وهي في غيابات بئرها السحيق، ينزّ قلبها دروباً موحشةً إلاّ من عواء ذئاب طريدة، ويغمرها ليل اندثرت نجومه.

نظرت إلى الساعة، عقاربها تُشير إلى الرابعة عصراً. اضطرّت للخروج إلى الشارع بحثاً عن سيارة أُجرة تعبر بها إلى المنزل لالتقاط ابنها المُجمر والإسراع به إلى المشفى.

سارت في الجوّ العاصف الماطر، تبلّلت عباءتها، التصقت بجسدها،

تحوّل الكون إلى غيمة ناهدة. سارت ورأسها مُنكّسٌ إلى الأرض، الشوارع خالية، الأفكار تتقاذفها... انفعال... توتّر... جزع.

ظلّت عيناها مُسافرة في الطين الذي غاصت فيه قدماها. وقفت سيارة في طريقها بحركة سريعة.

فتح نافذته:

– اركبي.

رفعت عينيها بينما هبّت ريح باردة دفعتها دفعاً حتى بدت كما لو أنها ستطير. استوعب وعيها أنّ الواقف بسيارته هو... ذاته... راشد!!

بحثت عن مهرب يميناً وشمالاً... عاندت نفسها... ثم لم تجد مفرّاً سوى الهرب إليه. قذفت جسدها داخل السيارة وهي تقطر من الغرق:

– آسفة... وسّخت السيارة.

ورم مُتضخّم في قلبه حدّ الانفجار. حاول أن يخفّف حدة كلماته دون أن يلتفت:

– ما الذي أخرجك في جوّ كهذا؟ لماذا لم تتّصلي طالما لا يوجد لديك من يوصلك؟

– بسرعة روح البيت ولدي تعبان، سآخذه وأمضي إلى المستشفى.

التفت إليها... مدينةُ عينيها مطفأة الأنوار، ذابلة. احتضنها بعينيه، ثم التفت إلى الأمام وقدمه تضغط على دوّاسة البنزين ليزيد سرعة سيره.

طوى الطرقات. وقف أمام شقّتها، فتحت الباب مُهرولة، ارتقت درجات الدور الرابع وملابسها تقطر.

فتحت باب شقّتها، غيّرت ملابسها، غيّرت عباءتها بعباءة أخرى، احتضنت طفلها الذي شعرت بحرارة جسده تفوح وابتلعه الغياب فبات كخرقة بالية.

احتضنته وبكت هامسة دون وعي:

– يا رب... يا رب... يا رب.

تراكضت خطواتها نحو الخارج. فتحت باب السيارة وقذفت جسدها:

– بسرعة الله يخليك... بسرعة... يا رب يا رب.

صمت.

انطلق بأقصى سرعة يطوي الطرقات حتى لا تكاد تُبصر ملامح الأشياء في الخارج. وقف أمام أحد المستشفيات الفارعة. خرجت مسرعة، انفتح باب المستشفى الزجاجيّ، ركضت نحو موظّف الاستقبال:

– الله يخليك دكتور طوارئ بسرعة، ولدي حرارته ٤١.

مدّ موظّف الاستقبال ذو الملامح الصمّاء يده من خلف الزجاج بورقة:

– اكتبي البيانات... ثم ادخلي الغرفة على يمينك.

التقطت الورقة... عبأت البيانات بيد مرتجفة، وغلبتها الأفكار السوداء فبكت، أعادت الورقة إلى الموظف وذهبت حيث أشار.

كتل الدخان الأسود تتكاثف في السماء، يختلط اللون الأزرق الداكن بلون السواد، وفي زوايا متفرّقة تنتشر زرقة مختلطة ببياض داكن، ويزأر الرّعد بقوة مرّات متتالية.

أخرج راشد رأسه من النافذة ونظر إلى السماء. ومض برق لثوانٍ فأضاءت الدنيا. تحوّل إلى نور غامض كأنّ صعقة كهربائية عصفت بالكون.

شعر بالسعادة تغمر روحه فها هو يراها من جديد، وتضطر إلى الركوب معه دون الحديث عن كلّ ما سبق. اتجه إلى باب المشفى. فُتح الباب الكهربائي ليجد نفسه وجهاً لوجه أمامها، تجمّدت لثوانٍ وأخفضت بصرها بسرعة.

لمحت يديه وهما تمتدّان لحمل صغيرها بدلاً منها، فاستسلم بين الحرج من يديه الممدودتين وبين الفهم لسلامة النيّة في فعله.

حمل الطفل هامساً:

– ادخلي بسرعة.

دخلت ولا تزال فاتورة الدّواء بيدها، التقطت صغيرها وهي تُنصت إلى صوته الدافئ:

– أين الفاتورة؟

مدّت يدها بالفاتورة وبما معها من نقود، أخذها وأسرع إلى الصيدلية.

عصف الرّعد بقوة، عاودت الأمطار الهطول بغزارة. أضاء الكون بالبرق، وأسفر عن وجهه وهو يفتح باب السيارة مسرعاً، قاذفاً جسده في المقعد مادّاً يده بكيس الدواء دون أن يلتفت.

داس البنزين، وانطلق.

تبادلا الصّمت والحوار الدفين، وعبرا الغياب.

التفت إلى الطريق الممتدّ فاستحال ربيعاً تفتّقت رماله وأسفلته عن

شقوق تُنبت زهوراً ملوّنة تتنامى بسرعة على الزوايا ويمتلأ الفضاء بأسراب حمام، ويعبق بالأريج.

مدّ حبل الوصل بعبارة يتيمة عن وضع صغيرها، فأجابت وقد تفيّأت أمان حضوره بأنّ الحرارة آخذة في الانخفاض.

احتضنت طفلها بشغف.

تذّكرت أنها دوماً كانت تُحبّ رجولته، وأنها تجحت في أن تهرب من سطوة مشاعرها تجاهه منذ ذلك اليوم الغامض، لكنّه سكن الذاكرة، وها هي مرّة أخرى تشعر بامتلائها به. ترمقه بحبّ وقلبها يكاد ينفلت من أضلعها وقد استعاد نبضه اشتعالته، بينما غاص هو في ألوان طيف وزقزقة عذبة أصاخ لها بسكينة، حين استعاد قلبه ألقه وعافيته، فعَودَتُها منحته مفاتيح النكهة الخالصة للوجود.

الحوار الداخلي ينهمر بينهما ويستفيض:

– وحشتني مووت.

ردّ وكأنّ ذرات الفضاء تبرّعت لتنقل حديثهما الصامت:

– عذبني غيابك.

خاطبته من خلف طيف الروح:

– يا ريتك تعرف.

رد قلبه الظامي:

– ... أعرف.

مشاعرهما تتراكض، تلهث، حاولت أن تُخفّف اكتنازها في روحها، تقلّصت مساحات الصمود فكسرا الصمت معاً:

– آآ...

يصمتان بعدها صمتاً مكتنزاً بالحرج، "آآ..." التي انفلتت في اللحظة ذاتها أعادتهما إلى نقطة البداية. كشفتهما أمام بعضهما بعضاً، وكيف يضجّ صدر كلّ منهما بحديث يوشك على التداعي.

أدخلت يدها في حركة تشاغل في كيس الدواء لتكتشف أنّ المبلغ الذي كان معها أقلّ من السعر وهو كلّ ما كان في حقيبتها تلك اللحظة. وجدت مبرّراً للمبادرة:

– حبيت أقول لك شكراً، حين أراك مرّة أخرى أعيد المبلغ المُتبقي.

– متى ؟

– بكرة العصر سأذهب إلى أُمي.

– سآتيك صباحاً... سأوصلك إلى المدرسة.

ابتسمت و لم تُعلّق.

حين توقّفت أمام شقّتها خرج من موضعه. فتح لها الباب وحمل الطفل عنها حتى خرجت. أخذت طفلها. التقت أعينهما ثواني كأنّها دهراً. تحرك البركان الخامد في كلّ منهما وتساقط الجدار. تلاشت الأسقف والحيطان، ضمّهما عالم آخر ينتميان إليه، بلا فوارق، ولا أعراق، ولا أصول عنصرية.

همهمة مُحمّلة بالنسائم تداعت في الكون:

"كلكم لآدم... وآدم من تراب"..... فقط... روحان وسماء... روحان ووطن من غيم.

تدافعت زخّات المطر بقوة، انتبهت وغطّت طفلها بعباءتها، وسارعت بالدخول إلى شقّتها. ظلّ واقفاً مُطرقاً ونوافذ رحبة حانية شرّعت أبوابها للحياة في قلبه، نسمات مشبعة بالفرح دغدغت قلبه

وعزف غابات ماطرة أصاخت حواسه لها بضراوة، فاتحد مع حلمه وقوي به.

دفقات المطر تدافعت بقوّة سحبته من إيغال شوقه وعوالمه السماوية، ففتح باب السيارة وانطلق للشروق.

النفق

مُحاطاً بحساسيته وتوجسه وقف جعفر مُبحراً في قراءة سريعة لفهرس أحد الكتب التاريخية في المكتبة التي وقفت على ناصية الشارع العام. تصفّح الكتاب على عجل ثمّ رمق راشد بدهشة وعيناه تلمعان:

– هذه معلومات تاريخية مغلوطة، أخطاء فادحة!

التفت رجل محاذ لهما بتحفّز وإنصات، فيما تابع جعفر:

– أصلاً قائد هذه المعركة، ومن أوقع بالمشركين خسائر فادحة هو سيّدنا علي بن أبي طالب! أين المراجعة التاريخية للكتاب قبل طبعه؟!!

تدخّل الرجل:

– إيه... على كيفكم، كل شيء تُدخلون به سيدنا علي بن أبي طالب! كُتب كهذه تراجع قبل طبعها بدل المرّة عشرات المرّات، أم لأنها لم توافق الأكاذيب التي جاءت في كتبكم؟

فارت دماء جعفر وهمّ بالرد لولا أن لوّح له راشد:

– على هونك، هو يُحدّثني ولا يُحدثك.

– وما الذي يجعلك تُرافق هذه الأشكال؟

– يا أخي دع الشمس تدخل غرفك المُظلمة فتنيرها، لتعرف كيف

تؤثر في الآخرين وتكسبهم.

– لا يشرّفني أن أكسبهم.

ردّ جعفر بعصبية وقد تمزّقت أعصابه:

– هذه الأشكال أنتَ لست أفضل منها.

– لسانك لا يأتي على لساني يا "البحراني."

تكدّر راشد من أسلوب الحوار لكنّه حاول تخطي مشاعره، رغبة منه في ترطيب المسافات.

– ترى عيب أن يصدر هذا من رجل مثلك، ثم إنه لم يخطأ في حقك.

– أقص لسانه لو يتجرأ ويفعلها.

– لا يأخذك الغرور كثيراً، من فضلك... روح في حالك.

– أقول لا يكون حاطك محامي عنه.

– أقول أقصر الشر أحسن.

– أقول صحيح إنك ما إنت رجّال ولا تعرف توزن الرجال. شاد ظهرك بهذا! بكره تشوف كيف يغدر فيك؟

ربّت راشد على كتف رفيقه:

– هيا بنا، لنخرج من هنا.

انطلقا نحو الباب، فلحق بهما:

– الكذاب كذّاب طول عمره، سُتريك الأيام ما كنت جاهلاً.

صرخ جعفر وجسده ينتفض من الغضب قائلاً:

– أنتَ الذي سترى، إرادتكم أم إرادة الله في التاريخ ودوران رُحاه.

هوت كفّه على صدغ جعفر وسط ذهول اللحظة التي جعلت الصمت مطبقاً هنيهات. استلب راشد ذاته من غبشتها، وأمسك بالرجل مُحاولاً إيقافه، وردّ ضرباته التي استقبلها بدلاً عن رفيقه والرجل يسبّ ويلعن حتى تدخّل مرتادو المكتبة لفك الاشتباك.

مسح راشد لثّته ممّا علاها من دماء وأنفاسه تتلاحق سريعة وإن كان لا يزال مصدوماً:

- مثل هؤلاء لا يوقفهم سوى قرار سياسي... لا تقل لي شيئاً آخر، ثم كُفّ أنتَ الآخر عن أسلوبك المستفز هذا للآخرين وكأنّ صدرك مليء بحقد لا شفاء له، أو كأنك مريض نفسي.

شقّا طريق سيهات عبر امتداد الكورنيش الأزرق. لم يُعلّقا بكلمة واحدة. ابتلعت كلاًّ منهما أفكارُه في صمت، كأنّ اللغة بينهما أصابها العطب.

* * *

حين فرغ أبو جعفر من صلاته وأوراده، فتر جبينه عن ابتسامة ضاوية برقت من وهج عينيه، فلا يزال القلب ريّاناً عاشقاً للحياة، بروح مرنة مطواعة في تعاملاته مع الكون والناس، لم تُثنِ عوده صلابة الحياة وقسوتها و لم تكسره يوماً أو تهزم قلبه المُحبّ لكل ما حوله. حين لمح جعفر ورفيق العمر وقد سالت الدماء على صدر ثوبه وغطّت ياقته نهض فزعاً:

- اشو صار يا غناتي؟

حبس كلاهما أنفاسه، لفّت الدنيا لثوانٍ براشد، انطفأت الأنوار وغاب عقله الواعي للحظات، واختلّ توازنه، كاد يهوي لولا يد جعفر تلقّفته سريعاً وهو يتمتم مبرراً:

– ربما لأنني لم آكل منذ أيام.

– جاهل أنا تسكتوني... وشو صار!؟

ساد صمت مطبق، شقّ حلكته جعفر حين راح يسرد ما حدث في المكتبة. فزّ بو جعفر من موضعه ليقبّل راشد الذي هم بالنهوض احتراماً له:

– يا غناتي، إنسان حقيقي يا ولد الريّس طالع على أبوك، لكن تعاملوا مع هذه المواقف بقلب أخضر، فالكراهية مُكلفة، وهذه قاعدة.

رفع كفَّه ليضربها بكف راشد. احتضن ركبتيه. "تعالوا أعلمكم." قالها بثقة. استرجع أمسه بعينيه، وسارت به فوق موج من السنين:

الريّس سليمان رجل يمتزج بالدماء وتُكرّمهُ الذاكرة مهما عطبت. أحبّه الأمريكان لتفانيه في عمله ومعاملته المتحضّرة لكلّ من حوله.

لقّبناه بالريّس ولقّبه رئيسنا المباشر الـ "فورمن تريز" بالجنتل، لتهذيبه الجمّ، وتريز الأمريكي الجنسية رجل طويل القامة، مُشرب بياض بشرته بحمرة لاهبة، له أنف كثمرة الباذنجان ترقد على صفحة وجهه، تتقدّمه كرش صغيرة تهتزّ كلما تحرك أو ضحك. كان رجلا طيباً دمثاً، أحببناه جميعاً وأحبّنا.

تريز وجد في شخصية سليمان ضالّته، ربما لجدّيته في العمل التي جمع إلى جوارها شغفاً بالقراءة والاطلاع واحترام الجميع له، فابتعثه مرّات عديدة في "كورسات" لا تتجاوز الشهرين أو الثلاثة إلى أمريكا

لدراسة علم الأنابيب، الذي كنّا نجهل أنّه عالم شاسع.

كان الرّيس سليمان وقتها أكثرنا إتقاناً للإنجليزية. يرطن مثل الإنجليز تماماً، ينطق مخارج الحروف كما ينطقونها إذ يبتلع بعض حروف الكلمات، بل يعوجُّ فمه ويميل شفته السفلى إلى الأسفل بين نهاية بعض عباراته كأنّه أمريكي من ظهر أمريكي، حتى أثار إعجاب كلّ من عرفه، بل حتّى أكتافه تميل وتنثني ساقة اليمنى حين يتحدّث، وإذا سار رفع كتفيه وتحرّك جسده في تناغم في النطق والحركة، وخلف حاجز اتّزانه وتَعقّله ترقد إنسانية باذخة.

أذكر أنّ جيني ابنة الـ "فورمن تريز" الشقراء الفاتنة ذات الثمانية عشر ربيعاً، بابتسامتها التي تتراقص من مُحياها، كانت كلّما أبصرته تبرق عيناها بشعاع ساحر، عشقته إلى الحد الذي كانت تأتي لنا في الصحراء لرؤيته. تظلّ تبحث عنه بنظراتها وسحابات القلق تفترش ما بين عينيها حتى إذا أشرنا إليها عن مكانه ولمحته، حلّ مكان القلق بهجة غامرة تتراقص من كلّ ملامحها، بينما كان هو يعاملها باحترام كبير. لم يحاول استغلال مشاعرها والعبث معها، كنا نراها أحيانا تبكي تترجّاه أن يبادلها المشاعر ذاتها ومن حركة شفتيه وجسده نفهم أنّه يخبرها بتقديره لمشاعرها لكنه لا يستطيع تعاطيها معها، فيزيدها ذلك تشبّثاً به وتولّهاً.

عرضت نفسها عليه فتعفّف، وعرضت الزواج عليه فصدّها برقّة لم أرها في رجل قبله، حتى إنّ الـ "فورمن تريز" ذاته أخبره أنّه لا يُعارض زواجهما، لكنّه تهرّب بكونه متزوّجاً دون أن يجرح مشاعرهما، وإن كان الموقف برمّته... جارحاً، فتركت البلاد و لم تعد.

وفي أواخر السبعينيّات انتقل مقرّ عملنا إلى الظهران، كان عملنا كلّه في البرّ ما بين أنابيب بقيق القطيف وأنابيب القطيف راس تنورة.

وحين أطلّت بواكير الثمانينيات حدث الزلزال الذي عصف بنا. كان ذلك حين امتد في أعمارنا ما اقترفه إخوة لنا مزهوّين بنجاح الثورة الخمينية في إيران، فأقدموا على تفجيرات هائلة دوَّت في سماء راس تنورة. خفقات الحياة غادرت صدورنا، حتى كدنا نغدو طللاً لهياكل درس عليها الدهر وذراها.

كانوا من الموالين لإيران والحالمين في بناء دولة الفقيه هُنا. وكان مُحتّماً ما حدث بعد ذلك، فالتفاحة الفاسدة تعمّ. وإن كان الوطن بالنسبة إلينا غير قابل للمساومة ودولتنا تظلّ سقفاً نهائياً لا يجوز هتكه ولا المقايضة به، الوطن أُمّ، إن قسى لا تقل له أُف، وإن حنّ فشيمته الملاذ.

زفر ما في إناء القلب الموصد واسترسل في ذكرياته بصوت مُتحشرج محروق، بينما لا تزال ذراعاه تطوقان ركبتيه:

بعد تحقيقات الحكومة المُكثّفة تمّ اكتشاف مرتكبي تلك التفجيرات، فتزلزلت الأرض أسفلنا وانتفضت علينا حتى مسامّنا. تبدّدت الأُلفة وتبدّلت سماحة القلوب إلى مقت وتوجّس. كان من يعبرنا متجمعين يرمقنا بنظرات ريبة كأننا نُعدّ لمؤامرة، وحين نتداول شؤون الأشقّاء ومعاناتهم في الجوار من فلسطين والعراق ومصر كان ذلك تأكيداً على اتجاهاتنا غير السلميّة. بتنا جميعاً موضع شُبهة، موصومين بذنب اقترفه قلّة منّا، ندعو الله مع كلّ خفقة أن نبرأ منه. بات قبح ما حدث مُعلّقاً على قسماتنا. فانكسرنا جميعا، منبوذين كالصدق، منفيين كالحقيقة.

ليس سوى الشمس الحارقة والمساحات الشاسعة من الأراضي

اليباس، أُخذ بِلحانا حين أُخذنا بجريرة غيرنا، حتى من العامة التي تطحننا بنظراتها وألسنتها وتعف عن تهمة مصاحبتنا.

انهار كلّ شيء فجأة.

اصطبغت الحياة بلون شديد الجهامة. سُوّرت حتى أنفاسنا، وأُقصي سرب الحمامات عن فضاءاتنا. فـ أرامكو التي شاركنا في أعمالها ونهضنا بها، بعد هذه الحادثة، تم إزاحة البعض من مناصبهم، ذوو المناصب الكبيرة والمواقع الحسّاسة تمّت إحالتهم إلى التقاعد، حتى متوسطو المواقع أمثالي ورغم أنّه ليس لنا شأن بالأحداث ولا بمنفّذيها صدر قرار بحتميّة استبعادنا، وحين أُعلم "الريّس" بإقصائي ومجموعة منّا عن العمل قاتل أشرس قتال لنبقى في أماكننا مُتحمّلاً كامل المسؤولية، مُجترّاً أحزاننا ومداوياً لجراحنا ليزداد اخضراره وتطاول قامته وقد دثّر عُرينا بدفء قلبه.

لم يهنأ ولم يهدأ له بال حتى عُدنا لأعمالنا وعاد بلل الطمأنينة يغازل أرواحنا، لنوغل في الغوص في أتون ظلام الفرقة وقد كان القلب على القلب نتعاطى خضار الصحبة وتمتدّ أيدينا للصحن والمأكل ذاتهما.

جاءت هذه المرحلة لتكون بدايات النفق المعتم الذي دخلنا في منعطفاته فغاب المدى. وليتكم تعلمون أيّ حزن دام كسر "الريّس" والأمور تأخذ هذا المنعطف، وهو الذي ظلّ يردّد حتى غيّبه الرحيل أنّه ليس سنّياً ولا شيعيّاً هو "سنعي"، وأنّ الحُلم الذي لن يغادر أحداقه ولن يتنازل عنه هو أن يُصلّي السنّة والشيعة صفاً واحداً، فعدوّنا هو جهلنا، والعصبيّة جهل نهايته زلزال وتصدع... هكذا كان يردّد.

بمد تنهيدةً ارتجفت في صدره:

ومنذ ذلك العهد وحتى عهد قريب ونحن نلتصق بحوائطنا، نُطَهّر عُروة قمصاننا من ذنب عُمِّم علينا ونقتات عارنا بالتبعية. ما ترونه اليوم هو بقايا العتمة البائدة وحتماً هي مُدبّرة، فنحن في حقبة جديدة وعهد رطيب... رطيب، لكن كلّ شيء يحتاج إلى وقت لاستشراق جماله، علينا أن نضع حقائب الأمس بكلّ أوراقه المُكفهرّة وعبوسه وراء ظهورنا، أما مواقف فرديّة كهذه فدعوها تعبر كالريح ومدّوا بصائركم إلى الشمس.

صهيل

عشرات المرات وقفت على باب البيت محاولة فهم ما يجري. عشرات المرات أطلّت على منازل الجيران ونوافذهم لالتقاط ما يدور من دويّ لم تستوعب أسبابه. وقفت خلف باب الغيم ذاهلة، ما انتشلها من ذهولها سوى اتصال والدتها تنبّهها بعدم الخروج لأحداث دخيلة في منطقة سكنها.

كان اليوم الثالث لحصار الخليّة الإرهابية في "منزل الحمراء" في حيّ المباركية الذاهلة. استمرّت الاتصالات عبر أجهزة الموبايل متعثرة إلاّ لمن سيُفرغ يومه لمواصلة المحاولة حتى يلتقط الخط. ليس سوى سماء ضاجة بالثرثرة وملتحفة بإطلاق نار متقطّع ورذاذ الموت ورائحة البارود، وشيء من التوهان وازدواجية المشاعر، وقد خلت البيوت من رتمها المعتاد، واعتراها شحوب القلق للحدث الطارئ.

معدّات ثقيلة تستخدم عادة في البناء تقترب من موقع الحدث ممّا يوحي بأنّ هناك نيّة لتدمير المبنى بالكامل في حال تواصل إطلاق النار من قبل المطلوبين أمنيّاً الذين قاتلوا بضراوة بعد أن دبّ اليأس في نفوسهم من شدة الحصار الأمنيّ، والطائرات العمودية تُحلّق في سماء

الموقع وقد أُغلق حي الحمراء بالكامل.

سأل يحيى أمّه ببراءة غضّة:

- متى تنتهي الحرب؟

باغتها السؤال! وقبل أن تلتقط أنفاسها للردّ عليه، دوّى صوت انفجار صاعق اهتزت معه أركان البيت، فتقافز أبناؤها في حضنها، وتعالى بكاء إبراهيم وهو يتعلّق برقبتها. استمرّ الدويّ دقائق تبعه صمت مطبق. ودون أن تفهم لماذا... انهمرت دموع من عينيها بلا مقدمات، ليقفز في الشريط الإخباري لقناة الجزيرة:

عاجل: القوّات السعودية تنهي حصارها لليوم الثالث بمقتل جميع الإرهابيّين.

حبست أنفاسها وامتدت يدها لالتقاط جهاز التحكّم لرفع الصوت وسط ضجيج الصغار. انتبه يحيى لإنصاتها فنظر إلى الشاشة قائلاً:

- من فاز... المسلمون ولا الكفار؟

نظرت إليه بحنان ثم أغمضت عينيها وفتحتهما بوجع وقبّلت رأسه. طافت أصابعها تتحسّس ملامحه، ثم احتضنته وهمست في أذنه:

- أنتَ تحبني؟

- أيه. أحبك ماما.

- إذا تحبني، حب وطنك. حب ترابه... وفديه بعمرك.

- ليه ماما؟

- لأنه كرامتك.

- يعني إيش كرامتي؟

– يعني راسك فوق، مرفوع، ويطاول الشمس.

انسلخ من صدرها، وقف وقفة عسكرية، حيّاها تحية العسكر وهو يضرب قدمه اليمين في الأرض، فصفّقت باشّةً، وعاودت احتضانه.

وفي اليوم التالي، ابتدأت يومها بحماسة وبهجة. حين لمحت سيارة راشد أمام الباب، التقطت ضوء ابتسامة في عينيه، فابتسمت. وببساطة شديدة اقتحم يحيى الصمت:

– يوم صارت الحرب كان ودي تجي أروح معاك اتفرج... بس ما جيت؟

فهم مقصده بكلمة الحرب، فصمت قليلاً ثم أجاب:

– لأني ما أحبّ الحرب... أحب الزرع... أنتَ تحب الزرع؟

– إيه... من يوم أني صغير أحب الزرع... من زمان أحبه.

ابتسم على إجابته، ووقف به أمام مدرسته القريبة من منزلهم. وقبل أن يغيب التفت نحو راشد وهو يهزّ سبابته مُحذّراً:

– الساعة ١١:٣٠ لا تتأخر، ما أحبّ أوقف... أكره الانتظار.

بابتسامة غامرة ردّ مؤكداً: – إن شااااء الله.

وارتعش خلخال قلبه عندما التفتت وقت الظهيرة تسأله هل أعاد يحيى إلى البيت؟ أومأ بالإيجاب وتاه في فكرٍ متلاطمة. حواره الداخلي لا يتوقّف عن التدفّق وتحريضه على الانفلات خارج أعماقه.

إصغاؤه إلى صوته الداخلي يشحنه توتّراً يتألّق في عينيه حتى شعر بماء دافئ رطيب يشرّ من كفّيه، ارتبك معه تناغم أنفاسه واحتقن لونه:

"حين نُحب... نُسلم قلوبنا لمن قد لا يكون بلا رأفة بها ولا

بأحلامنا فيدميها!! لا يُدركون أنّنا نُؤَمنهم عليها ونحن لا نعرفهم بالقدر الكافي؟

قلوبنا وأعمارنا أمانات في ضمائر من نهوى. وحين ينكسر القلب ينكسر العنفوان، وتغدو ندبة غائرة في الروح لا يزول أثرها، بينما يمضي الآخرون إلى أقدارهم دون أن يُدركو ماذا خلّفوا وراءَهم من دمار.»

يأخذ نفساً عميقاً ويهمس محدّثاً نفسه:

– آااه يا عبد الرحمن.

شعر بالراحة لفكرة التراجع عما انتواه على أعتاب منزلها للحظات، لكنه تحدى تردده وقبر الضعف الذي راق لذاته، فحين همّت بالسير نحو شقتها، اندفع بهدوء وهو يمدّ يده لإيقافها حريصاً على ألا يلمس لها طرفاً.

لمحت حركة يده، فالتفتت. خرجت من شفتيه واثقة، متحدّية، تتسارع ضربات قلبه كأنه يجري في سباق الماراثون:

– أحبك.

ارتجّت، اهتزّت قلاعها وكأن زلزالاً عصف بأرضها فتهشّمت أعمدتها. أغمضت عينيها وفتحتهما وعجز عن البوح، يُصرّ إلاّ أن يفز حتى في اللحظات الاستثنائية. طفر دمع شفيف ومض من شرفات عينيها.

همست مُطرقة:

– مع السلامة.

بلغه احتضان روحها لكلمته من وهج نظرتها فرست سفائنه

واطمئن. كما الطيور هو، مُحلّق... ممتلئ نشوة... ليس سوى لحظة البوح، وارتعاشتها، وعيناها تتكرّر كفلاش باك سينمائي في وعيه. أبّد اللحظة... كما أبّد بريق الحب الذي أضاء في شرفات عينيها ناطقاً.

هو سعيد... سعيد... سعيد.

فقد أدرك في لحظة استثنائية معنى أن يُحبّ، أي أن يُصاحب الفراشات الزاهية، ويتحوّل الطين المسنون إلى ماء وضوء باهر. أن يُحبّ معناه أنّه ارتقى منزلة عن الأرض وعانق السحاب والبرق والتحم بالبياض... حتى التراب بات دقيقاً حانياً.

بينما وقفت في غرفتها وفكرها يعيد الكلمة السحرية بصوته الدافئ وعينيه الرائقتين وكأنهما حضن وطن:

– أحبك.

استنشقت هواءً عميقاً بابتسامة تملأ وجهها، وصوت السندريلا يتردّد في وعيها:

– بمبي... بمبي... بمبي... بمبي بمبي بمبي... الحياة بقى لونها بمبي...

تمرّغت في الضوء العذب، بنشوة عارمة أخذت... تدور... تدور... تدور:

– بمبي... بمبي... بمبي...

وفي وديان الشغف سار محلّقاً صوب مجمع الصحبة حيث يُفضل جعفر أن يلتقط زبائنه. قرأ الفرحة في ملامحه:

– الوجه يضحك... شالسالفة؟

– أحب... أنا في حالة حب.

- يا ليتك ما قلت الأخيرة... دائماً المثقفون ومن تجربة، إذا قال أحدهم أنه في حالة حب، وسألته بعد فترة قال لك... لا... والله ما كان حبّاً... كان وهماً.

- أنتَ تعرفني، وتعرف أني لم أُسلمك مفاتيح قلبي وبحت لك إلا لأنك نفسي الأخرى، فهل سبق وأخبرتك أني في حالة حب؟

- لا يا فنان... بس من تكون؟ يالله... اثقب جرار الصمت.

- أوّل مرّه أشعر بأن في هذه الدنيا إنساناً جعل للحياة طعماً ولوناً ورائحة غير أمي... كأنّه الماء بالنسبة إليّ.

- يا حبيبي يا فنان، لكني أريدك أن تتذكر أنّ الماء ليس له طعم ولا رائحة.

- له، حين يبلغ بك الظمأ مبلغه. يغدو للماء في روحك طعماً ورائحة. عموماً ما راح ابتذل مشاعري بتفسيرها لكن...

أشرع نوافذ البوح، وحين دلف إلى الجذور، ومن هي؟ ومن أيّ قبيلة؟ علت تعابير الحذر وجه جعفر الذي قال باحتضان حميم:

- هذا الحب موؤود سلفاً، يا ليت ما تبحر، مثلك حين يحب... يحب بعنف... البياض الفادح داخلك حرام أن يُنتهك بقسوة الواقع.

- أنتَ ما تعرفها، أوصلتها بضع مَرات صحيح، لكنك لا تعرفها، امرأة استثناء، حُلم.

- هذا عذاب مجاني، أتمنى أن تظل حتى النهاية استثناءً، وتظلّ أنت.. أنت.

كافور

ما عاد هناك أمر قادر على إحالة النشوة التي اجتاحت نشمية إلى فتور، وإحالة المصابيح التي استضاءت في قلبها إلى عتمة بعد أن اقتنصت لحظة ضوئية كانت أمل خلالها في حالة تجلٍّ بعد الكلمة السّحرية التي لامست روحها بالأمس.

حالة شفافية مُطلقة، تحوّلت معها إلى قطرات مطر عذب، مُترعة بالضياء والبهجة والغناء. حين طلبتها لتحدّثها للحظات، فمدرّسة الجغرافيا غائبة ولديهم فراغ، خرجت وكأنّها فراشة تُحلّق. وحين أشارت إليها أن تسيرا قليلاً في ساحة المدرسة. كانت في حالة استلاب روحيّ وسعة صدر طاغية.

أسرّت لها بكلّ ما احتقن في داخلها من هموم صغيرة ومعاناة صوّرتها لها بفاعة العمر بأنها مأساة الحياة وقتامة أيامها وهي تُنصت برحابة صدر محاولة فكّ الاشتباك بينها وبين ذاتها، وإيجاد مساحة من الفهم للضائقين حولها بحياتهم وأوّلهم والدتها المغلوبة على أمرها.

تجاوزتا الفصول. انطلقتا خلفها حيث الساحة الخضراء خلف الفصول الدراسيّة، وابتعدتا عن الأعين، ليس سوى العشب الأخضر،

أشجار النخيل والأثل والسماء الزرقاء المُكتظة بالغيم. وما إن سارتا قليلاً حتى هطل رذاذ خفيف، أرادت نشمية من خلاله أن تُبدي مشاعر الخوف عليها وشيئاً من النّديّة والقيادة، فرفعت كرّاسة الرسم البيانيّ فوق رأس أمل كي توقف هطول الرذاذ على شعرها، لكنّ الأخيرة رفضت والتجأت إلى أحد الأركان التي امتد سقف الفصول منها، فتَوارت تحته حتى توقف دفق الرذاذ، فعادت بضع خطوات تحت سقف السماء النادي ونشمية موغلة في الحديث عن وضعها العائلي وكم صارت تعشق المدرسة، وأنّ حياتها انقلبت منذ لحظة الاهتمام التي شعرت بها في أوّل لقاء جمعهما في أوّل يوم دراسي لها في المدرسة، حين لمست كتفها بحنان ومسحت عليه وهي تعبر الطالبات لتتأكّد من حلّ الواجب.

عاود الرذاذ تدفقه فلاذتا بالسقوف الناتئة من الفصول كمظلّات، ثم اعتذرت أمل أنّ المطر سينهمر بشدّة وعليهما العودة إلى الفصول خشية البلل.

كان هذا اليوم أسعد يوم في عمر نشمية كما أحسّت لحظتها وسجّلته في مذكراتها بأنّ دفقاً هائلاً من المطر اللذيذ اجتاح روحها.

عادت إلى منزلها وزعيق أمّها يعبر أمام أسماعها ويرتدّ دون أن يُلوّث صفاءها الروحي. عادت وصورة والدها الجاثمة على صدرها كوحش من العصر الحجري قد تجمّدت وغدت صورة باهتة مُعلّقة في حائط ضبابي.

عادت لتُلقي بملابسها فوق سريرها وتهرع إلى المطبخ تُنظّف أطباق

الطعام، وتحتضن والدتها التي لا تكفّ عن التبرّم، وتُنظّف إخوتها. عادت لتنظيف المنزل غرفة غرفة وزاوية زاوية دون أن تشعر بملل أو تبرّم.

عادت وهي تشعر للمرة الأولى بأنّها تحيا، وأنّ قلبها مُفعم بالدفء، وأنّ الحياة رائعة وجميلة وأنّها نظيفة وأنّ أعماقها اخضرّت واستطالت أمتاراً.

* * *

مثل طفل ولد للتوّ استشعرت قلبها.

حين أحبّت... انكشفت على عوالم الأنثى المختبئة في صدرها وانطلقت عصافيرها لتمارس تغريداً متواصلاً، تبدّت رقّتها كما لم تعرف في نفسها يوماً، تطاولت مشاعر أنثى موؤودة في صدرها. شَفّت روحها حتى باتت كأنها فراشة... تسير على الأرض.

راحت تستعيد تفاصيل ما قبل خروجها من المدرسة، حين تراكضت صالحة ومنى باتجاهها بعد خروجها من الحصّة الأخيرة. التقطت منى لمعان عينيها، وبخبث مُراهقة تحاول استباق عمرها سدّدت مديتها:

– أبلة تحبين؟

لكزتها صالحة في خاصرتها على جرأتها، بينما فتحت هي عينيها على سعتهما دهشة مزدوجة، لجرأتها أولاً ولاستنتاجها الذي هو في محلّه ثانياً، لكنّ قلبها لم يكن ليكفّ عن الرفرفة، يتراقص كما راقصة

باليه لا تتجاوز السادسة عشرة تؤدّي رقصة الفراشة في الربيع، ولأنها لامست الحقيقة فلم تستطع عينا أمل أن تلامس عينيها مباشرة، أجابتها من طرف عينها بغضب مصطنع:

– يا ليتك تحطّين راسك بدروسك بدل هالكلام الفاضي... قلّة أدب صحيح.

نكست مني بصرها ولاذت بالصمت، وما إن تجاوزتهما أمل حتى عاودت شقاوتها ببرودتها المعهودة وهي تضع ذراعها في ذراع صالحة وتسير بلا مبالاة مُترنمة:

ما دام تحب بتنكر ليه

دا اللي يحب يبان فـ عنيه

اللي يحب يباااان فـ عنيه.

عضّت على شفتها السفلى حرجاً من ملامحها التي فضحت السّر الخفيّ. احتقنت دماء الغبطة في وجنتيها فالتقطت إبراهيم القابع جوارها تحتضنه ثم تقذفه في الهواء وتتلقّفه، أعادت قذفه في الهواء وتلقّفته من جديد، ويحيى يتقافز حولهما :

– وأنا وأنا؟

رنّ الموبايل الراقد بقربها فسحبها من مداعبة صغيرها. التقطته حين رأت اسم راشد يرتسم على الشاشة.

– حبيت اطمئن عليك... وعلى مشاعرك؟

البياض والرفرفة والصمت هو ما انتهت إليه مكالمتهما التي انتهت باختلاس الفرح بحجة حاجتها للتبضع.

قفز من مكانه بحيوية، نزع ملابسه على عجل ودخل الحمام. الماء

يتدفق على جسده لكنّ عقله مُغيّب، لا شيء اللحظة سوى حضورها. أغلق دشّ الماء وسارع بارتداء ملابسه. مثل شخص هارب من جحيم، كان يطوي الشوارع دون أن يُميّز ملامح الأشياء التي يعبرها، وما إن رآها حتى بادر باندفاع:

– كنت ملهوفاً لرؤيتك.

لم تعلّق إلا بغمغة أُحسّها فرحة خجولة، فانتعش. حين أنهت تبضّعها انتبهت أن الغيم ازداد تكاثفاً في السماء. النسمات ندية... شبه باردة... الأزرق يلوّن الفضاء... يعبران أمام الكورنيش... زرقة البحر تختلط بزرقة السماء الغائمة... ودون أن يلتفت ألقى عبارته:

– نقف قليلاً عند البحر؟

بعفوية... وبشعور مُبهم وغير مفهوم شعرت بأنهما لا يفعلان سوى الصواب، ردّت بتلقائية وهي تتنفّس جمال الكون وروعة الخالق:

– الجو روعة... أوكي.

وكان بالرابط الروحي بينهما يدرك أنه سيكون – أوكي – حين استعدّ للوقوف قبل أن تجيب. هبطا حيث التراب وفتنة البحر وزرقته الصافية. نظر إلى منطقة قريبة تلتقي فيها زرقة البحر بشكل خرافي مع الغيم وكأنّ السماء تشارف فيها على الالتصاق بالبحر:

– تعالي شوفي!

وبالشعور ذاته بأنّ ما يفعلانه هو حقّهما الطبيعي. فعل روحين أصلهما واحد وفرعهما في السماء، تحوّلت إلى طفلة يُدهشها لغز الغيم وتتوه في خطوطه وفك طلاسمه:

– الله... الله... ياخذ العقل.

وقفا يتأملان بصمت، ابتلعهما الغيم، باتا في قلب الغيمة. رمقها بنظرة باسمة ورائحة عطره يعبث بها النسيم وتملأ روحها. رفع بصره إلى الأعلى على صوت سرب نوارس يحلّق في الأفق وزعيقه يتعالى. ضرب يده بالأخرى وهو يرفع ركبته اليمني ثم يعيدها إلى الأرض:

– ناقص "كيتارو"... ناقص موسيقى "كيتارو" في لحظة كهذه.

شعر بأنّ له أجنحة، وأنّ السماء استضافتهما، وأنّ الكون يضحك بلا توقف، فالتفت نحوها:

– تعرفين، لا أُصدق أنّي معك في لحظة كهذه!

– ولا أنا!

عادا إلى عالمهما الذي ينتميان إليه، روحان لا علاقة لهما بالأرض، روحان وقلب... وحب، احتوتهما اللحظة، واحتضنهما الغيم. نظر حوله حيث عشرات النوارس محلّقة:

– خلاص... ماني قادر.

خرجت زهورها الذابلة من شرنقتها، وبغنج الأنثى أجابت:

– مَنت قادر إيش؟

مشاعره تهفو لاحتضانها، لعصرها بين أضلاعه، وبقوّة شخصيته وصراحته خرجت الكلمات ترتعش:

– مشتاااااق.

زهورها ترفع رأسها وتتفتّح، تستيقظ مدائنها النائمة. تنهّدت بعمق وكادت أن تسقط إغماءً من فرط الحرارة التي نطقها بها، فانفلتت من

بين شفتيها عفويةً ساخنةً، حيَّة، رخيمة:

- أحبّك.

رفع عينيه نحو السماء، ثم أعاد نظره. اقترب منها وقد تفتّحت كل أبواب الظمأ في قلوب عذّبها اليباس. اقتربت وكلّ نبضة في خلاياها تدفعها إلى الأرض العطشى... شغف احتضان يكاد يحدث في لحظة تلاشٍ للكون كلّه.

رنّ الموبايل في يده فارتجف. تراجعت خطواته وهو يتباعد وفي عينيه فزع شابه ظمأ روح تهفو إلى التوحّد. نظر إليها بشوق، وهو يستحثّها برجاء:

- عيديها... قوليها مرّة ثانية... بتذوّقها.

اجتاحها الخجل... طفت ابتسامة فوق ملامحها:

- يالله عاد... كوكوكوكو... وأدرك شهرزاد الصباح... فسكتت عن الكلام المباح.

- طيّب غير المباح...

نظرت إلى الأرض بحياء ثم رفعت بصرها بدلال أنثى تتقن مواعيد الخجل:

- ....

- ....

تاهت نظراتهما في ضجيج المعنى الصامت ثم انحرفت نحو الأفق. مشاعر حيّة دافقة... السماء تعزف لحناً لا يعيه سوى العاشقين بطهارة وصدق.

صمت وحيرة... صمت وخوف... صمت ولهفة... صمت

وموروث اجتماعي تحمله في جيناتها الوراثية... وترفضه.

نظر إليها بعمق قرار لا بد من مواجهته مهما كلّف:

- لازم نتزوّج.

وقع العبارة أوقظها من نشوتها، أعادها إلى الأرض... الخوف... الواقع الذي لا تقوى على مواجهته.

قرأ الفزع والألم في عينيها وفي تراجع خطوتها إلى الوراء، قرأها جيّداً... انتقل إلى روحه ما ألمّ بها من وجع ورعب، وازداد تكاثف الغيم واشتدّت زرقته حتى قارب السواد، وأخذت السماء في رشقهما بلؤلؤها.

وبرجولة امتزجت بحنان همس:

- لازم نتصرّف صحّ. الذي لا أرضاه لأخت لي لو كان عندي أخت لا أرضاه لك...أنا رجل أخاف الله، هذا هو الصواب فلماذا أنتِ خائفة؟!

وقع العزف السماويّ يزداد. هطل المطر بعنف محمّلاً بريح باردة تثنّت معها أغصان الأشجار المنتصبة على أطراف البحر ومالت، وعبثت بعباءتها ونقابها وتبلّلت ملابسهما فامتلأت روحاهما برائحة المطر التي امتزجت بالتراب والأشجار.

ازدادت زرقة السماء واحمرّت، لتتداخل ألوان الغيم الشاسع الاتساع، أزرق غامق بأسود بحمرة، بدت معها السماء داكنة الزرقة، وتحركت أمواج البحر بهدير عاصف قذف مياهه معها إلى الشط. فغمر البلل العاشقين، وشربت الأرض العافية.

انقلبت ملامحها إلى عتمة وردّت بانطفاء:

– خلينا نرجع.

احترم رغبتها، وانطلقا إلى السيارة صامتين.

تتبعهما رائحة الزمن والفقد بما فيه من نكهة السّدر والكافور وظلال المكتوب.

ريح تهبّ

استمرّ هطول المطر يومين متتالين.

تقلّب بعدها احتضان الغيم للغيم، كما تقلّبت تدرّجات ألوانه، وباتت الشوارع معجونة بالطين الذي غاصت فيه الأرجل، كما غاصت فيها روح جعفر، حين سحبه الواقع يقلّبه ذات اليمين وذات الشمال.

دخل رجل في الخمسينيات سيارته وتبعته زوجته. سلمّ ثم حدّد وجهته. تأمّل المحتويات القابعة في درج الأشرطة، امتدّت يده دون استئذان لتقليب عناوينها، محاضرات دينية ولطميات حسينية!؟

نظر نحو جعفر بريبة! وبفكر معطوب انتفض كما لو أنه ارتكب خطيئة وعليه التبرّأ منها، التفت إلى زوجته في نظرة آمرة:

- أنزلي أنزلي...

وخرج صافقاً الباب.

صمت جعفر صمتاً ثقيلاً، وبنات آوى بصوتها الجنائزيّ تعوي في جوفه. مسافات لا نهائية بينه وبين ذاته. غرق في موج أفكار متلاطمة لم يسحبه منها سوى دخول سيّدتين إلى سيارته بادرته الكبرى بتحديد

وجهتهما بعد أن انزلقت قدمها في الطين وكادت أن تسقط لولا تشبّثها برفيقتها.

لزم الصّمت دون أن تبدو منه إشارة الإحساس بهما فقد علاه طين آخر. أعادت المرأة تحديد وجهتها، فانسحب من عوالمه الغائبة واعتذر بانطفاء متحجّجاً بنفاد البنزين.

خرجن بصمت. قاد سيارته متجهاً إلى سيهات والطريق بلا طريق. جذور الانتماء تعصف بها رياح الواقع وتجتثّها مُخلّفةً رياح غربة هادرة. كان ينتوي العودة إلى البيت لكنّه شعر بأنه حتى البيت لم يعد ملاذه، فعرج على البحر يطويه بسيارته ذهاباً وإياباً، باحثاً عن درب مختلف.

وفي المساء كان هناك. شعر راشد بأنّه سيجده هناك، حين افتقده. قرب دكّة الأشرطة بجوار مقبرة سيهات. جلس جواره صامتا، بينما ارتفع صوت باسم الكربلائي في لطميّة عراقية:

اتأخرت... يالمهدي...

تشان اظهرت... يا لمهدي لو عندك أنصار.

بصوت رخو خرجت كلمات جعفر. اش وقت جيت؟ من شوي. نتمشى؟ بَلي.

سارا في الشارع الممتد وصوت الكربلائي يتبعهما. استحثّه راشد على الفضفضة. ظلّ مُطرقاً ثم أناخ الحذر وأسقط الموانع وُشرع قلبه، حتى إذا انتهى، صمَت راشد طويلاً مفكراً كيف بات جعفر يمسرح كلّ ما يلتقيه! هو يؤمن بأنّ نظرة المرء لما حوله تنعكس بالضرورة على عالمه الداخلي، كما يؤمن بأنّ موقف الرجل الذي خلّف كل هذه المرارة في داخل جعفر يُمثله ولا يسقط على العموم:

– تعرف؟ أنتَ صنعت من مشكلة موقف حياتيٍّ مشكلةً بحجم قصفٍ جوّي على مدينة سكّانها عُزّل. تذكر تشيخوف؟ أنتَ تذكّرني بشخصياته حين كتب عن تفاهة الحياة اليومية، وكيف تتضخّم هذه التفاهات لدى شخوصه. صحيح الحياة مجابهة لكن ليس كلّ شيء يجب أن يكون صداماً معها، أحياناً يلزمنا شيء من التغافل. ألم يقل عليّ ابن أبي طالب: "تسعة أعشار الخلق في التغافل!" ثُم إن الحياة وجيزة، تأتي برّاقة ثم يتضاءل النور إلى أن ينطفئ. لا تضيعها في حرقة الدم!

بغضب، وحساسية مفرطة شعر بإهانة في غير موضعها وُجّهت إليه:

– طيب، أنا غلطان اللي أفضفض لك، انتَ أصلاً ويش شفت من الدنيا! لهذا تتحدث بأستذة!!

تسلّل شعور قاتم لروح راشد. صمت إثره ثم أجاب وسحابة حزن تعلو صوته الذي احتفظ بهدوئه:

– لا شيء شفت من الدنيا، فقط أبصرت أختي ذات الأربعة أعوام تموت بين ذراعي وأنا أُلقمها "الزلابيا" التي تهواها، ومات والدي وأنا لم أتجاوز الخامسة عشرة، ورأيت أخي يحترق أمامي ويسيح جلده على الأرض كما الشمعة... ويتركني وحيداً.

أجهزة الاستقبال لدى جعفر كانت مُعطّلة، وفي حالة بيات، فردّ بقسوة لم يَعِها:

– بكرة حين تشهد نهاية قصّتك مع أمل ستعرف وقتها إذا فيه عنصرية ولا لا!

طعنة سكين انغرزت في قلبه فألجمته عن الردّ لثوانٍ، ثمّ وكأنه يُجمّد السكين في موضعها دون نزعها ردّ بالهدوء ذاته:

- حتى وإن حدث هذا فأهل أمل يمثّلون ذواتهم لا العالم كلّه. يا أخي الحياة فيها أحداث ضاجّة أكبر من هذه المواقف. فيه وجه شديد الجهامة للحياة. عبوس، اش صاير فيك؟ أعرفك مستنير ومخك حلو!! أخلع النظارة القاتمة التي وضعتها على فكرك ويمم جهة الشمس.

استدارا راجعين، واستطرد راشد:

- ما رأيك أن تذهب معي غداً إلى سوق الخميس، أرغب في شراء قط سياميّ كي أزوّجه لقطة المرحوم؟

- ولماذا سياميّ تحديداً؟

- أريد لها أجمل وأرقى أنواع القطط، وأيضاً كي تُنجب قططاً جميلة من سلالة مُتحضّرة؟

حدّق جعفر في عينيه بنظرة ذات معنى:

- هل تعتقد أن هذا هو ما تريده الدلوعة؟

- والله لا أعرف، لكني أشعر بأنها تحتاج لأنيس وصغار تحتضنهم.

- حسناً سأذهب معك فأنا ذوقي راق في الشراء و"شاطر" في إنزال السعر مع الباعة، أخسف فيهم الأرض.

عرجا على طاولة الأشرطة الدينية، فامتدّت يده إلى أحدها يبتاعه وقدّمه إلى راشد. اسمع الأكرف... حسين. تناوله ووضعه في جيبه صامتاً حتى إذا بلغ سيارته وجعفر بجاوره، مدّ له هو الآخر يده. هذا القارئ ياسر الدوسري استمع له في سورة "تبارك"، أنصت لإحساسه بكلمات الله كيف يتلوها حد الذوبان، أو أقول لك... مد يده بشريط

آخر. استمع لمشاري العفاسي في سورة "ق"، كيف يُجسّد بصوته مشهد الموت منذ بدايته حتى الانتقال إلى عالم البرزخ، إلى درجة تشعر معها بأن الوجود المادّي تلاشى وأنك صرت حاضراً في عالم الروح.

قرفصا عن يمين أوّل طاولة ممتدّة تعلوها الكتيّبات والألبومات، وهبَّت ريح باردة من بعيد، بينما لا يزال صوت الكربلائي يملأ السماء بلطميته الطويلة "يالمهدي... اظهر".

الثعلب والمتاهة

بما يليق بخيبته حاول إعادة ترتيب المعلومات التي جمعها. تخيّل مطلق ولده، ووقع في الفخ ذاته. امتدّت يده لكأس ماء ترقد عن يمينه، وليس بين عينيه سوى مصلح لمفاوضته في فدية تعتق رقبة مطلق.

هجس أنّ مصلح سيحول الأمر إلى مضاربة تجارية يستفيد منها، ثم فرك جبينه بضيق كأنه في متاهة. استعاد قراءة حديث جار حميدان من خلال المحضر أمامه:

حمود باع بيته الذي يسكنه حالياً فهاد بعد طلاق حميدان من زوجته مباشرة، وبعدها اختفى، لكن من هلوسات حميدان عرفنا أنّ أخاه تزوج زوجته... أقصد طليقته... وأيضاً من كلام النسوان.

– وحميدان؟ كيف عرف أنّ أخاه تزوّج زوجته طالما أنّ حمود اختفى مباشرة؟

– من الكلبة زوجته يوم أخذت عياله. قالت له إنهم سيتربّون عند أخيه حمود وألا يخاف عليهم، وهدّدته ألا يتبعهم.

– بس هذا كله، ليس دليلا على هذه الرواية!!

– هذا ما نعرفه. حمود النذل خان أخاه وتزوّج زوجته. التفاصيل

في قلب حميدان وعقله الذي غاب بعد فترة من الحادث.

– ومصلح كيف كان موقفه؟

– مصلح لا يحب سوى نفسه ولا يعنيه سواها، حين غاب عقل أخيه ذهب إلى بيته وأخذ كلّ ما فيه ثم باعه. ترك له مكيّفاً واحداً، جاءت الحرامية بعدها وأخذت حتى هذا المكيّف... وعاش حميدان حتى مات... على البلاط.

رفع الضابط المحقّق عينيه من بلادة الأوراق، ثم أجرى اتصالاً هاتفياً بمصلح يطلب منه الحضور صباح الغد.

حين قدم مع تباشير الصباح، لم يستعر وجهاً آخر ليتدارى خلفه، والهاجس الذي يشغله هو "الفدية"، فخبرة الحياة التي جعلت منه ثعلباً قنّاصاً للفرص، حتى وإن كانت لا تحلّ له، روّضته على مواقف كهذه يعرف متى يمدّ يده لقطافها.

ومصلح رجل يحيا على أسطح الحياة. لا يُحبّ أحداً ولا يسكن صدره سوى وجهه. مُجوّف القلب. رجل حادّ الطباع مُنغمس في ملذاته، ذو قامة مربوعة بجسد مترهّل رغم عدم تكرّشه. إذا تحدّث تطاير لعابه رغماً عنه في وجه محدّثه، ثعلب ماكر ونَفَسه طويل، إذا شاء، لذلك رأى أنه من الغباء القبول بالفدية مباشرة لأمر يراه في فكره، جعله يقتعد له زاوية في المخفر ويتكوّر في ركنها كما لو كان قنفذاً لا ترى منه سوى أشواكه النابية. لم يتبرّم من هدر الوقت الضائع في الانتظار، فالضجيج الصاخب في دماغه شغله عن الشعور بالزمن المطويّ عبثاً، حتى إنه لم يرى الضابط وهو يدخل مكتبه مُلوّحاً له بالتحية.

انتفض وهو يسمع اسمه يتردد على لسان الجندي يستحثه على الدخول. قفز من مكانه وهو يرسم الفجيعة والوقار الزائف على ملامحه. تناثرت عبارات العزاء في فضاء موات، رتّم الضابط بها مقدّمات الحديث بولوج الموضوع مباشرة، بملامح جادّة حتى لا يعطيه فرصة المضاربة التي يُدرك سلفاً أنه سيخوضها، لكن احتمال حدة الذكاء لم تطرأ على باله لتتكشّف له، ومصلح ينتفض مُقسماً أنه لولا احترامه للضابط لكان له شأن آخر، فالعين بالعين والسن بالسن وهذا شرع الله الذي لا يحيد عنه ولا بكنوز الدنيا، فدم حميدان ليس رخيصاً كي...

قاطعه الضابط بصوت مطعون كالرحيل:

– بس الولد جاهل وغلط، أهله مستعدين...

فزّ من موضعه بشراسة مقاطعاً الضابط أنه لو كان يدرك أنّ هذا ما طلبه لأجله لما حضر. استدار خارجاً مؤكّداً أنّ لا مطلب لأهل حميدان سوى القصاص وتنفيذ شرع الله.

تبعته نظرات الضابط الذي امتدت يده إلى علبة السجائر الراقدة على مكتبه، أشعل سيجارة وهو يفكّر بعمق، ثمّ امتدّت كفّه إلى قلم وراحت تخطّ دوائر وسط دوائر وسط دوائر... ونفث دخانه.

* * *

الضوء الخافت يسقط على الجدار الطيني البنّي اللون والمشرب بحمرة نحاسية باهته. ترتسم على الجدار ظلال يد قابضة على سيف. سار في

الغرفة الضّيقة ببطء وتحرك ظله على الجدار.

تأملّ ظلّ يده التي فتحها على شكل رقم خمسة إشارة إلى الرفض لتغطّي السيف. رفع بصره لكوّة نور أعلى درج حجريّ في إحدى الزوايا، بمربّعات البلاط المتباعدة بعض الشيء، والتي جلس في منتصفها دبّ قطنيّ مستنداً إلى الجدار. حدّق في ساعة منبّه ارتكزت الأخرى على الجدار وقريباً منها إناء للشرب فارغ.

هبّت ريح، فانحدرت وريقات شجر شبه جافة. صعد الدرج بخطوات ثقيلة، وأثناء صعوده، استدار المشهد لصحراء تذروها ريح عاصفة. التفت مذعوراً وصوت عواء يطرده. جرى دون هدى. قدماه تغوصان في الرّمال المتحرّكة وذرّات الرمل تطرق وجهه كمطر مسنّن الرؤوس، التفت خلفه واليأس يعصف بروحه أن لا مفرّ من الوقوع، تعثّر في ركضه وسقط.

صوت حميدان يتردّد صارخاً في الفضاء الحارق:

– أبغى حمود قلّه يطلع لي... أبغى حمووود... يا حموووود... حموووود.

دوّى صوت طلق رصاص، وقفزت قطّة مرعوبه بمواء حادّ، وأخذت تجري، لتسطع أشعة الشمس مباشرة فوق رأس مطلق وتدور به الأرض وعيناه على شعاع الشمس. لفّت به الرمال وغاصت قدماه... غاص جسده، وصرخ صرخة هادرة... انتفض معها جسده لينهض فزعاً، وعيناه تتفقّدان المكان.

أسند ظهره إلى الجدار وقد استعاد وعيه. احتضن ركبتيه وهو يشعر بعظام حوضه قد وثبت من شدة النحول، فتذوق أنّ لليتم

معنى آخر، ونكهة أخرى!

– يعني مصلح معَّزم... قصاص... يا الله... كم هو مُرّ أن تشعر بانك مسكين، بتُّ أشعر بأنني مسكين إلى درجة الرغبة في التقيؤ. ليتني أتقيأ عمري كلّه وانفضه عن روحي فأخرج من جلدي، أيّ عذاب هو هذا؟.. جحيم... جحيم.

تاهت عيناه في الأفق، في يد السيّاف، وتحسّس عنقه.

دواعيس

ويبقى الملح.

حين حدّق البحر في عيني راشد، وشوش له بضياعات وتقاطعات قادمة فلم يفهمه. استدار شارداً في وجه الغلاف الذي أهداه جعفر وقبضة في صدره.

أوقف جعفر سيارته خلف سيارة راشد حين لمحه مُنكّس الرأس غارقاً في تأمل الغلاف. ابتهج وبحماسة مفرطة بادر بسؤاله عن رأيه وبماذا شعر عند سماعه؟

– مَرضت يومي كُلّه.

– حرام عليك، حسيـ...

قاطعه:

– حسين الأكرف ما عليه غبار... الأكرف ما هو صوت ولا رادود لا... صوته تاريخ، بدفئه وعذوبتة وعمق إحساسه... صوت... زمن، وسبق لي أن سمعته في "صلاة الليل".

– حقّاً؟!

– نعم فعلت، رائع هو... لكنّ كمّ الحزن الهادر هو الذي أمرَضني!

– طول عمري أقول عنك فنّاناً... هذا فقط لأنك شاعري.

– تُريدُ الصدق، لطميات العزاء كمّ الحزن فيها يُغلق كلّ منافذ النور.

أحسست بأنّ طعنة سكين نافذة في قلبي وأنا أسمعها، وجرح الطعنة ظلّ ينزّ دماً ساخناً يومي كُلّه، نحن الآن لا نختلف في جمالها... لكنها بجد... تُمرض، لكن ماذا عنك؟ هل سمعت ياسر والعفاسي؟

صمت للحظات ونظراته تداري شعاعاً غامضاً تَشي به:

– نعم، لكني لم أشعر بما قلته، عادي.

احتمى راشد بذكائه وحدجه بنظرة تعجّب تعني إما أنّه لم يستمع لهما أو أنّه غير مُنصف، التقطها جعفر وردّ بصوت رخو:

– حين أجد وقت فراغ سأعاود الاستماع.

أوغل راشد في عينيه بنظرة ثاقبة ومعنى دفين لم يسعَ لإخفائه، فسارع مدافعاً:

– ما بك؟!

– من غير زعل... فيكَ جاهلية!!

لوّح كل منهما للآخر، وانطلق كلّ في اتجاه.

لم يكن هناك سوى خذلان العمر، وقلق الخوف والهويّة حين بلغ حيّ الباطنية، بمبانيها المهترئة ورُكام القاذورات الذي ملأ الطرقات. برائحة القاذورات التي تملأ الهواء وتمنع القدرة على التنفس، حيث تتكدس الأوساخ وقد تساقطت من الحاويات بعد أن عبث بها الأطفال والقطط وسكارى منتصف الليل فباتت تفترش الأرض.

طافت نظراته تتأمل الجدران التي علاها سواد الوقت والقدم واهترأت في بعض جوانبها بينما نامت الرسومات والعبارات الخارجة.

مرّت حياة كاملة حين قفز أمامه طفل لم يتجاوز العاشرة يمسح أنفه بذراعه:

- تبي عَرق... كم وحدة؟

قلبه الذي لم يتعافى من الصدمات ألجمه الذهول، فاستطرد الفتى:

- الوحدة بثلاثين ريال ولا تبي سيديَّات...!!

لوّح بيده في قرف، فتجاوزه الصبيّ دون اكتراث، وأكمل تنطّطه إلى عابر آخر:

- أفلام... ولا جوّالات... ولا...

اختفت صورة الغلام وصوته، حين ارتحلت عيناه في هيئة مسنّ تسكنه خيبة وهمّ، تمدد في رواق بيته وترك الباب على مشراعيه. يمرّ كل شيء حوله دون أن يرفع رأسه، كأن العالم في الخارج جزء مكمل لمشهد حياته اليومي.

انثال عواء ذئاب في ضميره، حين استدار نظره نحو الزوايا الضيقة حيث مجاميع يقطر البؤس والضياع في ضجيج العيون. حدثته نفسه أن هؤلاء حتماً باعة المخدّرات... سيماهم في وجوههم، وفي ركن محشور انتصب رجلان بديا وكأنهما يتفاوضان.

ومرّت من جوف أحد الدواعيس فتاة داكنة اللون بمكياج فاقع، درجات أساسه أفتح بمراحل من لون بشرتها، وطريقة المكياج ونوعيّته توحي بأنّه من النوع الرخيص كما توحي أيضاً بأنها الأخرى... من النوع الرخيص.

يكمل رحلة عينيه في الأزقة الضيقة... عمال آسيويّون... قطط جرباء نحيلة ملبّدة بالأوساخ... قطط سمينة. فجأة يخرج طفل لا

يتجاوز الثانية عشرة، حنطيّ اللون بدين بعينين شهباوين، وبلوزة بيضاء غشيها صفار الأوساخ، و"درينغ سوت" برتقالي اللون رفع أطرافه حتى ركبتيه، وقد استغنى عن جزئه العلويّ واكتفى بفنيلة علاّقي. انزلق مسرعاً وهو يدندن:

- رَجب... حُوش صاحبك عني... رَجججببب.

فرمل جعفر بسرعة بعد أن كاد يدهسه:

- يلعن أمك... فتّح عيونك... مفُهي!

ثم أعطاه ظهره ورفع مؤخرته استخفافاً واحتقاراً له، وأكمل دربه وجسده يتراقص في المسافة الضّيقة بمساحة أحلامه:

- رَجب... حُوش صاحبك عني... رَجب...

استعاد جعفر توازنه وأكمل رحلة عينيه في أشهر حيّ في المنطقة، مُحدّثا نفسه أنه لو كان يعلم أنّ هذه المنطقة بهذا القدر من القذارة ما كان وافق رفيقه عليّ الذي انشغل في أمر مُلحّ ليأتي إلى عميلته بدلاً منه.

عرج على منعطف ضيّق وقف أمامه عمود كهرباء كما أفهمه عليّ. اتصل بعليّ ليخبره بوصوله وأطفأ السيارة منتظراً. كان قلبه غائباً كنورس غاف حين فتحت الباب وأشارت له أن يتحرك لـ (المشغل النسائي) يسبقها عطرها الشديد التركيز.

أشارت إلى الشمس التي أشرفت على الرحيل تستعجله على أن ينتظرها حتى تنتهي، فمد ظهره ثم أسنده شاعراً بأنّه مُقبل على اكتشاف لم يمرّ به.

حين خرجت سارع بفتح النوافذ كي تزول الرائحة. لولا أنها

حين عادت كاد أن يغشى، وقد أضافت قدراً مضاعفاً من العطر قبل خروجها من المشغل، إذ تضاعفت الرائحة حتى ما عاد قادراً على التنفس وأخذت أعصابه في التوتر.

وتداعى الليل حين طلبت منه الاتجاه إلى أحد الشاليهات. سار صامتاً محاولاً إعادة ترتيب مسائه، يداري هواجسه وقلقه. أشار لرغبته في المغادرة بعد إيصالها وأصرّت على بقائه لعزلة المنطقة، ولا مانع لديها من مرافقتها أو انتظارها.

غاب في هواجسه، وحضر منها حين امتدت يدها من خلفه نحو مفتاح السيارة الذي التقطته لتوجّسها من مغادرته.

كان الايقاع سريعاً، فما إن فُتح الباب حتى تسرّب صوت موسيقى صاخبة ولاحت ظلال رجل يعاقر كأساً احتضنها بعجالة وانزلقت إلى الداخل. علق في شرك لم يعرف كيفية الفرار منه، فمدّ يده إلى الموبايل، وما إن همّ بالحديث حتى انطفأ.

تذكر أنّه كان ينوي شحنه في الصباح حين لاحظ أنّ البطارية قاربت على الانتهاء، لكنّه انشغل فنسي. بلّل شفته السفلى بلسانه والأفكار تتخطّفه وقد احترقت خرائط العودة ولا سبيل له سوى الانتظار الذي تآكله حتى نعس ونام.

فتح عينيه على صوت الباب والمرأة تفتحه وتمدّ يدها بالمفتاح، بينما رائحتها تودّكت. خليط من العطر والخمر والسجائر وشيء من تتانة العرق. كانت في فوضى عارمة، عباءتها مفتوحة من المنتصف ويبدو جسدها شبه مكشوف عن بلوزة سوداء واسعة الصدر تضيق عند الخصر وبنطلون من جلد أسود يعلوه حزام ذهبي أشبه بالحلقات.

التقط المفتاح بسرعة وداس البنزين غاضباً مشمئزاً.

دخل المدينة النائمة إلا من أضوائها. تفرّست تقرأ ملامحه ثم فتحت حقيبتها لعدّ ما كسبته. لوت شفتيها حين لم يشبع طموحها وسيتناقص إذا أعطته أجرته.

احترق بالتيه حين اشتعلت سيجارتها ونفثت دخانها على امتداد رقبته. التفت مفجوعاً واستكان حين قرأ الغواية في نظراتها.

– أنت ما تحس؟

مسّه الفزع وتقلّبت نظراته ذات اليمين وذات الشمال خشية أن يراها أحد. وبارتباك كطفل يتخبّط في بدايات خطواته الأولى في الحياة وصوته يندلق مرتبكاً مُتلعثماً نظر إليها ثم التفت يمنة ويسرة:

– طفي السيجارة من فضلك... طفي السيجارة بسرعة.

مدّت رقبتها نحوه ونفثت دخانها، ثم مصمصت شفتيها، وعيناها سهام أخطأت مرماها.

– وييش فيه... طَفي السيجارة؟

أوقظت براءته شياطينها، فأطلقت ضحكة مجلجلة:

– يووووه... عليمي... دادا.

بروح نائية نظر نحوها مرعوباً ولعنها في خياله. كأن عقله أصابه الشلل بينما شعرت بأنها ليست على الطريق الذي يؤدي إليه، فأطرقت محاولة العثور على مفاتيحه. اقتربت منه وهو ينظر إليها حيناً وينظر إلى الطريق المُعتم حيناً آخر.

– الكبر لله!

كادت تتقيأ من نفسها ومن الدور الذي عليها أن تؤديه وهي مُتعبة.

حاولت أن تستعيد الدخول إلى عوالمها التي ألفتها وبصوت يبلغه كفحيح أفعى همست له أن يلتفت نحوها. وكي ينتهي من إلحاحها الممضّ فعل. كانت قد أشرعت بلوزتها حتى أطل نهداها في شموخ.

صرخ واضطربت حركة السيارة وتمايلت:

– يا قذرة... يا حقيرة... انزلي انزلي...

أثارها بكلماته وصراخه الهستيري وعجزت عن إيجاد طريقة تعيد له هدوءه، ليفاجأ بسيارة دورية خلفه لمحت تخبط سيارته فأشارت إليه بالتوقف. حين التفت خلفه، التفتت وسارعت بارتداء غطائها وترتيب فوضاها بهدوء وثقة بالنفس وهي الخبيرة التي ألفت مواقف كهذه. وحين بلغهم رجل الأمن ألبست الحق بالباطل وانخرطت في بكاء متواصل ورجل الدورية يسأل جعفر عن سبب تخبّطه في سيره. كاد أن يشلّ حين سبقته تتّهمه بمحاول الاعتداء عليها، وأنّها تأخّرت على بيتها ولا بد أن تعود لعائلتها.

وحيث الليل مغسول بالصمت، حدّق الشرطي في الاثنين مرتاباً، بينما ارتفعت ذراعا جعفر على رأسه ذاهلاً من سرعة التمثيل وإتقانه، فخرج حديثه مرتبكاً مبتوراً:

– الله أكبر... هذه عاهرة خيوو!

قاطعه رجل الأمن الذي شكّ في الاثنين دون أن يُصدّق أحداً منهما:

– انتوا الاثنين معاي للمخفر.

سحب رخصته وبطاقته، ولوحّ له أن يتبعه.

دلوعة

منحت كامل نفسها للوهم وغدا واقعها. أدمنت مشاهدة الأفلام الأجنبية حين أرادت أن تكتمل كما ظنّت، كما أدمنت مذاكرة مادّة اللغة الإنجليزية كأنّما ليس في المنهج سواها. فتحوّلت لأفضل طالبة في المدرسة تتقن الإنجليزية من أجل عيني أمل، وأفضل دفتر واجبات كان دفترها، وأوّل من ترفع رأس المدرسة فخراً بفهم المنهج أمام المشرّفات كانت هي.

تفوّقها في اللغة الإنجليزية دفع النميمة أن تأخذ طريقها حتى بين المدرّسات اللاتي لم ينلهنّ شيء من هذه الحظوة، وباتت تعليقاتهنّ الساخرة تتوارد عليها، فمن تتفوّق في مادة كالإنجليزية عليها أن تكون كذلك في جميع المواد وهي ليست كذلك، حتى إنّ إحداهن لمحتها في أحد الأيام تقف خلف أمل في ساحة المدرسة وقد تجمهرت الطالبات حولها يسألنها عن بعض ما صعب عليهن.

لم تنتبه أمل إليها وقد أكل منها الحرج كلّ وريقات الصمود فحارت في أمرها تقترب من ظهرها حيناً ثم تبتعد وتجول عيناها في الفضاء حيناً آخر. تضع يديها في جيوبها حيناً ثم تخرجهما وكأنها

تمسح تراباً علق بمريولها. تُطرق حيناً وترفع رأسها قاضمة شفتيها حيناً آخر. كلّ ذلك وأمل لا تعلم أنها في الخلف تنتظرها، وحين انتهت من الإجابة عن أسئلة طالباتها عادت إلى غرفتها دون أن تنظر خلفها، لتبقى نشمية في موقف يرثى له بعد طول انتظار. فلذ لقلب المدرسة المُجمر غيرة ما رأت وهي تترصد الموقف. تعمدت أن تعبرها فترمقها بابتسامة ساخرة هامسة.

- يضرب الحب شو بيذل.

مضت وضحكتها تجلجل في الهواء، ثم عاودت الالتفات مرة أخرى إلى الخلف لتطمئن أنّ طعنتها نفذت وعندها أكملت طريقها، لتقف عبرة مخنوقة في حنجرة نشمية وملامحها غارقة في الوحدة الموجعة، وقد أحالها الموقف إلى رماد.

طفت دموعها سابحة في أحداقها ثم جرت راكضة نحو فصلها وبقيت تبكي يومها كلّه. لم تستعد هدوءها حتى حظيت بنظرة باسمة من عيني أمل في صباح اليوم التالي محت كلّ ما علق بروحها من غبار ثقيل.

* * *

وانحنت أم راشد للريح وتمادت في الغياب. ظنّت أنّها تكتب وصيّتها الأخيرة للنهار. هو كفنها أعدّته حتى إذا فاجأها الموت تكون قد أعدّت له عدّته. أشارت لراشد بموضع السدر والمسك والعود وهاجر في حدقتيها محاولاً إشعال فتيل للصباح. حفّ به ألف جناح وقذف

حجره في مائها الراكد:

– ألن تزوجيني؟

اشتعلت في أطرافها حياة، وتاهت في ملامحه تبحث عن الصدق من الهزل:

– ودي... أنت اللي راسك يابس.

– أنا الآن ودّي... إنتِ اللي راسك يابس.

انتعشت... عاودت دماء الحياة التدفق في وجنتيها، لولا أن المحطّات بينهما كانت بعيدة. مضت تُحصي عليه الأسماء التي ترشّحها، وتكاثفت المساحات الفارغة حين راح يصف لها من اختار.

– أرملة!؟

امتعضت ملامحها وانطفأت شُعلة الفرح. ألقت غطاء الصلاة على رأسها إشارة إلى نهاية الحديث وردّت بفتور:

– لا تصلح... البنات "ترس" البلد.

ظنّ أنّ الدروب قريبة والمسافات قابلة للاختصار وكان واهماً. لم يكن يفكّر في معنى مطلّقة أو أرملة في مفاهيم أمّه، التي هي مفاهيم مجتمع يُثمّن المرأة ويقيّمها بقطعة غشاء. هي الحياة... والموت، السعر الأغلى والسعر الأدنى. مطلّقة أو أرملة تعني امرأة تم استهلاكها... وفقدت صلاحيّتها لفرح غامر.

سأل وشمعة انكسار في عينيه:

– لماذا لا تصلح يُمّه... أنتِ لا تعرفينها؟

– "مُب لازم"... ما الذي ينقصك كي تتزوج أرملة؟

– وزواجي بأرملة نقص!؟ يمّه... الزاوية التي تلمحين لها لا تهمّني... أنا أحبها.

شعرت بأنه حديث لا يستحقّ هدر الوقت معه فنهضت. وحين لمحت نظراته معلّقة بها استطردت:

– تصوم تصوم... وتفطر على بصلة... ماني موافقة.

ومضت مخلّفة وراءها ذرّات بُعد. من أين يأتي شعور البعد لا يعلم... لكنّه يشعر به وقد تطاير الفرح من روحه، وبات يشعر بأن عليه أن يدخل معركة شديدة الرهافة... معركة تعتمد على الأسلوب لبلوغ الهدف دون تشنّجات... لأنها ستكون مع أغلى الناس... أمّه!

اتجه إلى غرفته طارداً شعوراً بالضّيق سرعان ما تجاهله، وفي اندفاع النّهر مدّ يده إلى الموبايل. تنزّه في الأمل وهو يخبرها برضاه عن نفسه، وأنّه ابتدأ أوّل خطوة في أن يكون معها. شعرت بالدائرة تضيق عليها، شعرت بالحصار... وأنّها لا بدّ أن تُصارحه باستحالة اجتماعهما كزوجين.

ارتأت أن تناوشه من بعيد لتقرّب المعنى بسؤاله عمّا إذا كان قد هيّأ نفسه لأيّ احتمال يرد في خطوة كهذه وعن استعداده لمواجهته، فأجابها بثقة من استعداده لأيّ احتمال يقرّب بينهما ويجمعهما معاً في بيت واحد.

– يعني لو ما أمكن نكون في بيت واحد، خلاص ما تُحبني؟

بلغته رسالتها المُبطّنة، فشعر بوخزات تخلٍّ. غبار يستيقظ من سقف الزمن ويعلو أفقه.

– إذا لم تشعريني بأنّك متمسكة بي... أصلاً حبي هذا أدوس عليه

وأمضي... وأضرب قلبي بمليون جزمة ولا إنه يتألم ساعتها.

حاولت أن تلوذ بعكاز التاريخ وتتوكّأ على ما بلغها من حكايا عشاقه؛ قيس وليلى وروميو وجولييت، وجميل بثينة، وعنتر وعبلة. حبّهم عاش وبات مضرباً للأمثال... رغم أن التاريخ لم يورث لنا حكاية حب واحدة منها انتهت نهايه سعيدة.

بتحدٍّ واندهاش من ردّها صحّح معلوماتها:

– إيييه... فهمت، بس ترى عنتر تزوج عبلة، وعبلة لم تتركه و لم تتخلى عنه... بعدين حبيبتي زمن الهذيان هذا انتهى.

شعرت بأنّه يقسو ولزمت الصمت.

استطرد:

– المرء منّا حين يصدف ويجود عليه الزمن بحب حقيقي، عليه أن يتشبّث به بكلّ قوة لأنّه استثناء ونادر، وأنتِ تريدين منّي أن أحيا على ذكرياته وعلى حبّ امرأة لم تتمسّك بي، حياتي ومشاعري أغلى من الوقوف على أطلالك إذا لم تقاتلي كي يحيا هذا الحب... بعدين إن خذلتني إنت، فلستِ مركز الكون، حتماً هُناك من ينتظرني في ضفة أخرى، والحياة عمرها ما كانت رجلاً واحداً أو امرأة واحدة، نحن في زمن صعب، وقيس هذا والله مسكين، والله أضاع عمره... لكنّ عزاءه في قسوة زمنه، عزاءه في استحكام العادات والتقاليد الصارمة التي عاشوا بها...

سارعت بالتقاط عبارته: استحكام هذه التقاليد لا نزال نحياه.

وكأنه ابتدأ يقترب ممّا تحاول التّلميح إليه... بدأ يغزل أبواب دائرته ويستوعب، لكنّه ردّ بثقة بأنّ الوضع مختلف، فنحن على الأقل

بإمكاننا أن نحاول حتى وإن لم تنجح، نحن على الأقل تعلّمنا ووعينا واطّلعنا على قصص وروايات وحتى من لا تستهويه القراءة، من خلال الأفلام، حتى الكارتونيّ منها... في عمر الطفولة كان فيها دعوة إلى الانفتاح على عقول وتجارب آخرين.

اتكأت على غنج الأنثى للخلاص:

– أحيانا تغدو صعباً، ما أحبك وأنت مش رومانسي.

– الرومانسية التي تتكلمين عنها أكبر كذبة يكذبها اثنان مراهقان على بعضهما، بوعي أو من غير وعي، وهي أول طريق لقتل الحب الحقيقي، وأزعم وأتمنى أنّ الرومانسية الحقيقية هي التي أمارسها... الفعل... السلوك...أما الرومانسية التي قرأتِ عنها في الروايات والأدب الغربي الذي درستِه فهي شخصيات غير حقيقية.

– يعني مُصر على رأيك؟

– مُصرّ على عقلي... أحترمه ولا ألغيه... أنا رجل فعل... رجل حلال... وليس تليفونات وأوهام... لازم تعرفين أني قادم أخطب.

– لأ...

خوفها يشلّ تفكيره، تردّدها يجرحه... يسأل:

– ما هي المشكلة...؟

– دعني أمهّد للموضوع... أمهلني... ولا تستعجلني.

– يجب أن تدركي أنّي حين أكون معكِ، أشعر بأنّ كلّي حاضرٌ، متيقّظ... منذور لأمرٍ واحد اسمه الإحساس بالتوحّد، الانسان حين يُحب... يغدو كلّ ما فيه حاضراً، كلّ خلاياه تستيقظ... كلّ شيء يكون قادماً من أعمق موضع في روحه... كلّ شيء يشدّه إلى الانصهار

في الآخر... للّمس وللذوبان... أنا بشر له كلّ هذه الاحتياجات، يعني إما أن أتصرّف كأيّ رجل حقيقيّ... ونتزوّج، وإما أن أبتعد.

ترتعب من كلمته الأخيرة...، لكنّها تدرك أنّ كل الطرق تؤدي إلى روما...، فتحاول إمداد الزمن بمراوغته، تحاول كسب الوقت لأخذ أكبر قدر من القُرب:

– حالياً سيكون الأمر صعباً... اترك الموضوع قليلاً.

بإحساسه يشعر بأنّ هناك شيء لا يريح... لا يستطيع تحديده لكنّه يستشعره:

– أنت لا تحبينني... أنتِ تُحبّين نفسك.

تصمت... يطول صمتها حتى ظنّها أغلقت الخطّ لكنّها ردّت بعد تفكير:

– صح أنا أُحب نفسي... ولأني أُحب نفسي... حبيتك. لم أختر أن يُعاد تكويني، وتترنّم شروخي برمح مسنّن يخترقني كي يعيد صياغتي من جديد... هذا الرمح اسمه راشد اجتاحني إلى النخاع. حين تشعر ذاتي بهذا القدر من الحب لشخص مثله، فهي بالتأكيد تستحقّ أن أحبّها. حبّ نفسي لشخص مثلك نوع من الإحساس العالي الذي يدلّ على جمال روحي، أنا أحبّك لأنّ نفسي جديرة بحبيب مثلك. قد أكون رأيت في نفسي جمالاً أكافئها عليه بهذا الحب، أن أحبّ شخصاً بجمالك هو نوع من حبّي لنفسي الذي أعوّضها فيه عن القدر الكبير من الوجع الذي رأيته في الحياة... وليس بمعنى الأنانية.

أرضت كلماتها غروره فهدأ ولاذ بالصمت.

وفي المساء أخذ أثراً من رمل قلبه ونثره، لعل الريح تأتي بالمسرّات. دخل مبتهجاً، نادى والدته التي أطلّت من غرفتها محمّلة الأنفاس بذكريات رطبة لا تبرح قسماتها. علت ملامحها الدهشة حين رأته يحمل قطّاً سياميّاً كثيف الشعر.

– أين الدلوعة لأريها المفاجأة التي انتظرت أسابيع حتى وصلت؟

بروح معطوبة فقدت القدرة على الدعابة والمرح أجابت:

– في المطبخ نائمة كعادتها.

اتجه إلى المطبخ وعباراته لا تجد صدى على عتبات أمه:

– يلّه... بالرفاه والبنين، يتربوا في عزّك.

ولج المطبخ مبتهجاً مُتّجهاً إلى القطة التي فتحت عينيها بتكاسل مع فتحة الباب لتتّسع حدقتاها مع رؤية الزائر الغريب الذي وضعه راشد على الطاولة ذاتها التي رقدت عليها، فنهضت في دفاع غريزيّ عن مملكتها، وكأنما انتُهكت حرمة سكنها، بينما جمد القطّ ساكناً في موضعه أشبه بالغريب الأعزل الذي قُذف به في ساحة حرب دون أن يدرك سبباً لاختياره لتلك المهمّة، وما إن خطى أولى خطواته الوادعة وهو يرفع أنفه متشمّماً الهواء حوله حتى انطلق صوت الدّلوعة في غضب وثورة:

– خخخخخخخخخخ...

وسط ذهول راشد التقط القطّ النّبرة العدائيّة واستعدّ هو الآخر للدفاع عن نفسه. اندفعت نحوه ودخلا في عراك لم يكن مُهيّأً له وليس من روّاده، إذ يبدو مسالماً راقياً. أخذ يوقف ضرباتها دون أن تحمل ضرباته سوى تربية عالية لبيئة نشأ فيها، ممّا استفزّ الدّلوعة من

بلادته وكالت له الضربات العنيفة، فاضطرّ راشد لمعاودة حمله شفقة عليه.

كان بثر غضبها عميقاً، فلاذت بركنها وسط همهمات غضب مكتومة، غارزة حدقتيها اللتين اتسعتا على آخر مدى وتقافز شررهما في عيني القط الدخيل.

دخلت أمّ راشد وقد بلغتها حدّة الصوت لتقف على بقايا المشهد الدامي الذي تطايرت معه بعض شعيرات القط في الهواء.

قال راشد متعجّباً:

– ما إن رأت القط حتى ثار غضبها... لا أعلم ماذا ألّم بها؟

– ربما كانت تظنّنا سنستغني به عنها... أعطنيه واذهب لتهدئتها.

أغمضت عينيها وفتحتهما بنظرات عدائية حين اقترب منها. وحين همّ بوضع يده على ظهرها ضربت يده بحدّة وعاودت المواء بغضب أخذت حدّته في الانخفاض مع معاودته محاولة الرّبت بحذر على رأسها حتى ظهرها، وقد وقفت نظراتها على القطّ الغريب وكأنها تتفاخر عليه بهذا التدليل، بينما لم يفقد صوتها حدة موائه وإن كان أخذ في الانخفاض حتى استكانت.

اختزل حيرته في سؤال طوّحه الهواء:

– ماذا نفعل الآن؟ نتركهما معاً ونخرج ليتآلفا بطريقتهما أم...

قاطعته:

– دعهما يتفاهما بطريقتهما ولنخرج نحن.

وضعت القطّ على الأرض متّجهة إلى الباب ولحق بها. وما كادا يبتعدان حتى بلغهما صوت حرب ضروس أوقد أوارها في ساحة

المطبخ فسارعا بالعودة. وما إن فتحا الباب حتى أبصرا شعر "الجنتل" يتطاير بفوضى وكثافة في الهواء بينما غرزت الدلوعة أنيابها في ظهره وباتا يتقلّبان على الأرض.

ارتفع صوت راشد حادّاً ، فنظرت له الدلوعة بحنق وثورة، ثم قفزت راكضة جهة نافذة المطبخ التي اعتادت الخروج والعودة من خلالها على الدوام.

خرجت من النافذة نحو صهريج الماء الذي يعلوها ثم قفزت إلى جدار الجيران الممتد، ثم الجدار التالي للجار التالي واختفت وسط صدمة راشد وحسرة أمه على هروب الدلوعة وهي جزء من رائحة المرحوم، بينما القط "الجنتل" ينظر نحوهما في براءة مُطلقة ثم استكان جالساً ليلتقط أنفاسه التي فرّت في حرب لم يعتد خوض غمارها.

* * *

ومضت أيام ترتّل حماقاتها، زمّت كفّيها وأطلقت يماماتها محاولة ترطيب مسافات الغياب بالعبث البريء. استعارت هاتف إحدى الزميلات لمهاتفته.

– "خفّف الوطءَ ما أظنُّ أديمَ الأرضِ إلاّ من هذه الأجسادِ".

– ألو...

– ولّما كانت الليلة الثانية والسبعون...

أعاد بدهشة من لم يتعرّف على الصوت:

– ألو؟

بغنج الأنثى:

– اعلم أيها الملك السعيد، ذو العمر المديد أنّ صاحبك فلان... كان يومها تعبان... وهو يعاني الآن من غيابك وندمان ويناشدك الصفح والغفران.

ابتسم من اسلوبها في مراضاته فردّ ببهجة:

– طيب يا شهرزاد قولي له أنّي لا أزال منه زعلان، حتى يعتذر ويبدي الأسف بكلمة حب وحنان.

– لكنه اعترف بأنه غلطان، ويسألك الأمان... فاصفح يا ملك الزمان.

– ليس قبل أن ينطق بكلمة حنان.

– مولاي... وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح... كوكو كوكو.

– سأذبح هذا الديك... هل هذا وقته! دائماً يصيح في الوقت الخطأ... يا "مُرجان" أين السيّاف؟

قهقها بقلوب بيضاء وابتلعهما الغيم:

– وحشتيني... لكنّي كنت أُكابر كي لا تشعري بضعفي... غيابك ذنب لا أغفره.

– خلاص رضيت؟

– لا أستطيع أن أغضب منك حتى وإن حاولت... لكنّك استفززتني.

– طيب ممكن ألا نتكلم في الموضوع حتى لا نزعل مرّه أُخرى؟

– يعني فعلاً فيه موضوع... يعني إحساسي صحيح... وليس مجرّد

حساسيّة وعزّة نفس زائدة؟

صمتت... ثم ردّت بهمس:

– راشد يجب أن تعرف أنّي لست جان دارك ولا فدائية... أنا إنسانة عاديّة بكلّ المقاييس لكنّي أحببت بصدق. لا يغرّك الأدب الإنجليزي وقراءاتي لراسين وموليير وتي إس إليوت... أنا جئت من هنا وانطلقت من حيّ العشاير، شايف الخليط... دمّاميون، حساوية، نجادى، من الجنوب، لا أملك تغيير مجتمع... أهلي ضحيّة مجتمع... ضحيّة فكر... مثلما أنا وأنت ضحية.

– وفيه مثلنا أم تُراكِ لا تعرفين؟

– فيه... لكن لا تصل بيننا وبينهم للزواج إلا في حالات خاصة... أنت تعرف أنّ المسألة ليست لوناً... المسألة... أصيل وغير أصيل. أنت ذاتك لو أنّنا تحدّينا كلّ شيء فلن تستطيع تجاوز نظرة الناس... كما أنني على استعداد أن أُحرم من روحي... ولا تمسّ أهلي لحظة خزي أو ألم.

– ارتباطي بكِ يخزيكِ؟

– ارتباطي بك يرفعني... لكنّهم لا يفهمون.

– نظرة الناس لا تهمّني لأني أرى نفسي كفوءاً لك، وإذا كانت نظرة الناس ستُشكّل لي همّاً، فمعنى هذا أنّهم على صواب ونظرتهم في مكانها... أنّي أقلّ... لكني أرى نفسي جديراً، كونهم لم يستشعروا هذه الجدارة وقاسوها بمقياس الأصيل وغير الأصيل، كما تُقاس أمور عديدة في حياتنا لا تُمنح من قبل المجتمع إلا كلّ تهميش رغم أحقّيتها. تُريدين الاستسلام لهذه النظرة، فمعنى هذا أنّك لا تختلفين عنهم ولا

تستحقّين مشاعري، شاعرة أنّ بإمكانك الحياة بدوني فالله يسهل لك. لكن عني لازم أحاول... أنا رجل صادق، أحببت وأشعر بحاجة مُلحّة أن أتّحد مع الإنسانة التي أحببتها... غلط؟!

– لو كنت غير ذلك ما أحببتك... لكنّي أشتري سكينة أهلي، ومشاعرك من الجرح أو ذرّة إهانة.

– أنا متأكّد أنّك تبالغين... نحن مسلمون... وكلّنا سعوديّون... الموضوع لا يصل إلى هذا الحد.

– هذه عوائل... وقبائل... وعادات وبيئات... هناك عوائل تجاوزت هذا الأمر بالفهم الصحيح للدين، لكنّ الغالبية ارتباطها بالعادات أعمق من مفهوم الدين... ساعات أشعر بأنك لست من هذه البلد!

– لا أستطيع أن أخسرك.

– ولا أريد أن أخسرك لكن... فيه واقع.

وبتحريض مُبطّن استفزها بسؤاله ربما لأنه احتاج أن تُدميه:

– ألم يكن زوجك المرحوم من الأحساء؟

– نعم، لكن...

– لكن؟

يستحثّها على الإكمال بتحدٍ وكأنه يوجّه الطعنة التي ستكون بردّها إلى صدرها، وحين لم تردّ... باغتها ساخراً:

– لكنه أبيض.

– المسأله ليست لوناً... أنتَ...

– أسود.

– أرجل السود، وأوسم السود، و...

وقلبه يوشك على احتضانها رغم حساسية اللحظة ورهافة الموقف:

– و...

– وأعمق، وأصدق المشاعر في قلوب السود.

انتعشت روحه، فداعب غزلها بتعقّل لا يخلو من عبث طفولة:

– ليس كلّ السود، بس أنا.

بلغ عبثه البريء انكسارها، وهمست:

– بس أنتَ.

وصمتت. عضّت شفتها السفلى في تردّد ثم همست بتوتّر ضلّ مراسيه:

– قبل أن يفد جدّك إلى الأحساء... من أين أتى؟

كان السؤال بالنسبة إليه طعنة... اتسعت أثناءها حدقتاه بفجيعة... وانكسر ضوؤهما... ظلّ يرمق طيفها بعتاب توأم روح ممزوج بالكبرياء وأنهى المكالمة.

انكسر حلم في قلبه وانطفأت شمعة في روحها.

ورطة الحُبّ

وحين أغمضت عينيها انتبهت.

كانت في متناول الوهم حين فتحت باب المطبخ إثر سماعها دبيباً في الحوش الخلفي. راودها هاجس عودة الدّلوعة فخرجت لاستطلاع الأمر وما وجدت سوى الغبار.

على حافة دكّة جلست متكتّفة وفي عينيها شطح بعيد. بينما تمدّد راشد في غرفة نومه، يكابر جرحه مُستسلماً لمراودة الحلم المُشتهى.

طالما حلم بليلة حب واحدة، يكتسي قلبه بالخضار فينام. يتماهى ضوء الشمعة الراقص أمام عينيه ويتحوّل اللهب الأبيض إلى ثوب نوم أبيض شفاف فوق جسد أمل. أغمض عينيه إثر رعشة اجتاحت جسده.

عُريها في متناول وجعه، هي أمامه وخلفه وكيفما استدار. أصغى لصوت ذاته، بات حين يراها يشعر بالخطر، حين يتحدّثان يتحوّل الحديث إلى مناغاة يشتعل بعدها حريق في جسده كلّه.

هاتفها، وما إن أبصرت شاشته الهاتف المحمول مضاءة (راشد

يتصل بك) حتى سارعت بتقبيل اسمه على الشاشة عدّة مرات ثم أجابت.

جاء صوته خاثراً رطباً:

– ... أريدك معي.

– راشد ما بك؟

– تعبان... علاقة التيلفون أتعبتني... متى ينتهي هذا الاستنزاف للطاقة؟

غرزت إبرتها في لحم قلبة بحنان قليل الحيلة:

– الموضوع يحتاج إلى وقت... اهدأ قليلاً.

– يا أمل الله يخليكِ افهميني... الحب حين لا يمنحني السعادة فما قيمته، حين يغدو مصدر ألم دائم لي واستنزاف لطاقتي الذّهنية والروحية... فلا داعي له، أنا لا أسعى إلى أن أكون أسطورة في حبّي... أريد فقط أن أكون إنساناً عاديّاً بكل احتياجاته البسيطة والمشروعة والتي أبسطها أن أكون مع الإنسانة التي أحبّها في لقاء نظيف تحت سقف حرّ، دون خوف أو إحساس بأنّني أرتكب خطأً... الحبّ له سلطانه واحتياجاته التي كي أُشبعها فلا بدّ من شرعيّة... ألا ترين كيف تغدو العلاقة هكذا مشوّهة؟! ألا ترين أنّنا نُهدر أجمل المشاعر وأصدقها في سماعة تليفون؟! نحن نحب باللاسلكي.

– راشد أنتَ تعطي الأمور أكبر من حجمها، تعامل مع العلاقة بشيء من الهدوء ولا تفكّر كثيراً.

صمت طويلاً وهو يفكّر في عبارتها الأخيرة، ثم وبغضب ينزّ من شفتيه اندلقت كلماته كالرصاص:

- الحمد الله على السلامة، يبدو أنّ الحب عندك مرحلة عابرة... رفاهية ووساعة صدر، والحب الحقيقي ليس هكذا... كأن ما عشته معي نزلة برد وشُفيتِ منها، إنفلونزا... وخلاص، عُدتِ لعافيتك.

فَجَعَتها القسوة التي تحدّث بها فلاذت بالصمت. تطاولت الجسور، وتعطّلت شبكة الاتصال بينهما.

- أحس بأني مخنوق... نتكلّم في ما بعد.

- أنت زعلت!... حسّيتك زعلت... أنا لم أقصد شيئاً.

- أنتِ قصدتِ كثير... فكّرتِ في شيء لا يريحني... صدقيني لم أشعر بحاجة لأن أتزوج قدر هذه اللحظة... أريد أن أتزوج.

- طيب تزوج، أنا لن أغضب لأني أعلم ظروف...

أغلق الخط. توقّع أيّ ردّ إلا هذا الرّد اليائس اللامبالي. هناك حاجز انسدل بين الروحين ما كان يجب أن يكون، لكنّها بالنسبة له أصابته في مقتل دون أن تعي ما تومض به أنفاسها وخواطرها ولا تملك حتى جرأة البوح به وتكتفي بحلول الجبناء بقتله.

كيف يجتمع الحب... والجبن؟ الإيمان بأمر وقبول التخلي عنه دون حتى شرف المحاولة، كأنّها تتعامل مع حشرة... ذبابة... أطلقت عليها "بخة" من مبيد الحشرات... فلا هي قتلتها تماماً وأراحتها ولا تركتها معافاة... علّقتها بين الحياة... والموت.

تنفّس بعمق وأفكاره تبحر به صوب هذا المنحى. شعر بأنّها غريبة عنه... ولا يعرفها... تذكر أنّ والدته ظلّت دوماً تُردّد اسم جيني ابنة "الفورمن" الذي عشقت والده إلى درجة أنها لحقت به يوماً إلى منزلهم فتعاملت والدته معها بكلّ رقيّ احتراماً لزوجها وثقة به.

كان غبش الرؤية صديقه حين راح يعقد مقارنة غير متكافئة بينهما. جيني كانت أقوىٍ من أمل وأكثر جرأة في حبّها، هكذا رأى. تمنى لو كانت أمل بإرادة جيني ونسي أنّ المجتمع الذي أفرز جيني هو من منحها الإرادة الحرة وعزّز فيها اعتزازها باختياراتها.

وبعثرها الصمت في مساحات الفراغ الهادر في أذنها، حين ظل الموبايل مُعلّقاً وقد حبست أنفاسها. أغمضت بوجع... أو هلع النهايات. وضعت السماعة على صدرها ورمل البعاد يزحف ثقيلاً، فعضّت شفتها السفلى:

– فهمني خطأً... استعجل دون أن يفهم.

وفي سطوع الدليل عبَرَها صوت الضمير:

يفهم ماذا؟!

يفهم أنّك تحاولين الاعتذار عن "ورطة الحب" التي لم تدركي عمق وجعها إلاّ حين عايشتها فوعيتِ مقدار الألم في نزعه من قلبيكما مُجبرة!

ضلّلتك السعادة الغامرة بارتعاشة القلب التي أنعشت أيامك، دون أن تُدركي أنّ هذه الارتعاشة والبهجة الغامرة هي الدرجة الأولى في سُلّم الحب، يتبعها احتياج مُلحّ وتَعوّد خرافي على الذات الأخرى وتجذّر لا تعرفين الآن كيفيّة الخلاص منه وتغييبه، لأنك لا تريدين هذا التغييب أولاً، ولأنّ الآخرين يريدون ذلك وهذا هو الأهمّ.

أنتِ أحببته بكلّ صدق حد التشبّع، حد أن تشتمّي رائحته وأنتِ ساهمة غافية حتى عن ذاتك، حد الحضور الزاعق لطيفه في غيابه!!

وحدّ أن تتنسّمي بتلات طهره حتى في تفتّح الزهر النابت على جدران نافذتك!

بعدم وعي بفداحة الحُب الحقيقي وإلى أيّ مدى يقلب الموازين ويتشعب موغلاً في الدماء أعطيته الـgreen light ليعبر. صرتِ مسؤولة عمّا يؤول إليه الأمر في مساحات روحه، والآن تخشين أن يكويه الدرس المرّ فتكوني صاحبة البصمة السّوداء في قلبه. أن يُحملك ولو بينه وبين نفسه ذنب كفرانه بالحُب ودمار ثقته في الآخرين فيظلّ يلعنك في ضميره ما عاش. حاولتِ أن تتخلّصي من إثم اندفاعك خلف مشاعرك وتوريطه وتلميع صورتك بادّعاء نبل زائف، أن تبرّري غفلة عقلك بـ (شياكة) تُبقي مكانك سامقاً في قلبه، فنطق لسانك بما في ضميرك وتُخفيه.

يجتاحها شعور غامق بالضآلة وتخز قلبها رأس مدبية غارت في دمائها استذوقت إثرها نكهة هجير توهّمتْها الحقيقة.

سافرت داخلها. تخيّلت كيف يغدو الغناء أعمى لو أنّه اختفى من حياتها، وأفل نجمها من سمائه. كيف تغدو خالية الروح... وكيف تكون الحياة دون نوره الذي يسطع ويتدفّق من مجرّد طيف اسمه، كيف يغدو العالم... بلا أنهار، ولا ضوء... ولا غيم؟!

ارتعبت... شعرت برغبة في إعادة صوته لدمائها... أرادت أن تتأكّد أنّه حقيقة ولا يزال موجوداً، سارعت لمهاتفته... رنين... رنين... رنين.

عضّت شفتها في قلق... تخبّطتها الظنون حين انقطع الرنين بلا استجابة... عاودت الاتصال بهلع:

"الجهاز مغلق حاول الاتصال في وقت لاحق."
انهارت باكية، ودارت الشمس في فلك آخر.

الحبس

فتل الضابط عامر شاربيه الكثّين، ممرّراً أصابعه حيناً على الشارب الأيمن وحيناً على الأيسر، ثمّ عليهما معاً في حركة دائرية. تهلّل وجهه حين التفت نحو الفتنة البيضاء، وهو يُنصت إلى رجل الأمن يخبره بما رآه في شأنها وجعفر، بعد أن أشار إليها بالجلوس. وهي بخبرتها العميقة أدركت أيّ صنف من الرجال هو، فأسندت ظهرها إلى الكرسيّ بثقة واستطالت قامتها.

تقاطرت من عينيه وملامحه كلّ معاني الاحتقار غير المبرّر. تحدّث مع جعفر بغطرسة وكأنّه عدوّ لدود، بينما لم تفتر نظراته عن تفحص الجسد الأنثوي لتفضح هوساً بالمرأة. شرع في إهانته وسبّه بنعوت لا تليق حتى بالبهائم نافخاً صدره كديك هائج، وبصق عليه مرّات متتالية ثم هوت يده على صدغه بكفّين متواليين.

التقط جعفر يده مع ثالث كف، لوي ذراعه بكل قوة وشدّها خلف ظهره، فتراكض الجنديّ الواقف أمام الباب، ضربه في أعلى ظهره ضربة ارتخت إثرها يده وانفلت الضابط مُشيراً للجندي بلوي ذراعيه خلف ظهره.

حدّق طويلاً ثم مدّ قامته وانهالت صفعاته في كلّ الاتجهات حتى عجزت ساقا جعفر عن حمله وأوشك على الانهيار، فهزّه الجنديّ كي يصلّب وقفته. شعر بأنّه صار محواً وأنّه أسفل العالمين، فأطلّت شفقة خجول في عيني المرأة التي نهضت مصعوقة مما ترى مُستحلفة الضابط أن يكفّ عن ضربه وأنها متنازلة عن حقّها المزعوم.

عندها أغلق الضابط الباب على ثورته، وألبس شهوة الاستعراض ثياب الوقار:

– والله قلبك طيب، ألا تعرفين هذه الأشكال... هذولا دشير.

تجمّرت العبارة في قلب جعفر و لم يعد يسمع حتى أنفاسه. تحجّر قلبه، ونزّت عن روحه آهة حرقة ونظرة حقد تحول الكون في قلبه بعدها إلى حريق. اعترك الكره داخل روحه حين أهينت آدميته وحُولت إلي بُصاق، تمنى أن يجعل عاليها سافلها.

– عمى بعيونك إنشاالله... شايفه كيف يناظر؟ هؤلاء لا يستحقون الرحمة.

وبمحاولة استظراف قصد بها اجتذاب المرأة، وإن كانت محاولة متوجّسة من ردة فعل جعفر:

– ارمي لهم بس برسيم يعلفونه، شيله قطّه بالتخشيبه.

تراكض الجندي ومدّ ذراعه لسحبه، لكنّ النسر الذي فقد جناحيه نزلت العبارة على قلبه كالرصاص و لم تنل من صلابته. استدار يبصق على الضابط والمرأة مستنداً على الحائط كي لا يقع. كان قد بلغ حداً من المهانة، لم يعد يعنيه معها أن يُسجن أو ينجو أو حتى يموت، فقط... لا تمس كرامته:

– لعنة الله عليك وعليها... البرسيم لك ولأمثالك.

أطلق الضابط شتائمة وهو ينهض، وسبقه الجندي فبطحاه أرضاً وانهالا عليه في عاصفة من الركل والضرب الوحشيّ فما انحنى، استقتل في ردّ الضربات حتى ارتطم رأسه بالجدار وسقط مغشياً، و لم يعد يشعر بشيء.

في تلك الأثناء دخل ضابط له ذقن أشبه بالزغب، لمح المشهد فسارع بشدّهما، وبصوت أجش أوغل في عيني عامر بحنق:

– ما تجوز من أسلوبك الهمجي هذا! هذا أسلوب تتعامل فيه مع الحيوانات في الخرايب، يا أخي خاف الله، إذا وُليتم فارحموا.

ثم التفت إلى المرأة بنظرة خبير:

– أنتِ ساس البلا.

استقتل الضابط عامر في الدفاع عنها، مُصبغاً عليها أنبل الصفات وناعتاً أياها بالكسيرة الجناح، وقد شعر بفزعها ووعدها بعينيه أن تخرج سالمة. كلّ حركة قام بها كان يهدهد بها ذعرها الذي تبدّى مع ظهور رجل يعفّ عن سلعتها، غير أنّ الضابط المُلتحي هو أيضاً له خبرته ورادارِه الداخلي الذي يقيس به الآخرين.

– تعلمني فيك ولا في هذه الأشكال.

صمت مطبق أعقب تلك العبارة. وبمشقة استطاع جعفر أن يتوازن واقفاً وطلب محادثة والده.

أشار إليه الضابط الأخير بإملائه أرقام هواتفه ثم أعطاه السماعة.

ومع انبلاج الفجر وقف بو جعفر مع راشد على عتبات المخفر،

غائباً في بحر أفكار أضاعت ملامح البشر من صفحة وجهه، وسكنه همّ عظيم.

حين قدم الضابط عرَّف بنفسه أنّه النقيب خالد، ثم شرح لهما ما حدث بالأمس بعد إطلاعه على المذكرة التفصيلية. لم تخذله فطنته في مدى التحرّق وفقدان الصبر الذي أمضّ بو جعفر، فتلطّف محاولاً تهدأة روعه:

– ياعم بو جعفر مشكلة المرأة أنا شاعر أنّه ظُلم فيها ولن أتخلى عنه بإذن الله، لكنّ المشكلة الثانية هي التي قد تطول، التعدي على رجل أمن فيها سجن يتراوح من ثلاثة إلى ستة أشهر.

لبث بو جعفر صامتاً واندفع راشد:

– لكنْ جعفر إنسان مسا لم ولا يمكن أن يكون أقدم على فعل كهذا إلا إذا كان قد تعرض لما يمسّ كرامته".

حرص النقيب خالد على إظهار إصغائه ثم قال: هذا قانون... وما فيه مكان للعواطف.

حوقل بو جعفر وعيناه تلتمعان:

– لا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، يا كاشف الكرب عن وجه الحُسين اكشف كربنا، رحم الله والديك أبحث عن مخرج بجاه محمد وآل البيت.

صمت النقيب طويلاً ثم وعدهما بأنّه سيفعل كلّ ما في جهده، ثم ضرب جرساً يرقد على مكتبه ودخل جنديّ طلب منه إحضار جعفر لرؤيتهما.

وحين دخل جعفر تركهما وأغلق الباب. جلس في زاوية مقرفصاً

وصور كثيرة راحت تترى في ذهنه، ثم نثر فجيعة باغتته، وأحالت دفّة رياحه إلى اتجاه غائم.

رفيف

اشتعلت شموس... وانطفأت أُخرى... ومضت نهارات بلا مذاق.

الطيور محلّقة... لا تقترب من موارد الحياة ومَصبّات الأنهار... كما أنها لا ترحل عنها، مُعلّقة بين السماء والأرض... متباعدة... حائرة... لا أحد يبادر بالاقتراب، هناك شيئ ما ركّز عمود الجفاء بينهما. تكتفي بمسك أطراف الحبل، تُرخيه... تشدّه... لكنّها لا تقطعه ولا تتركه يغادر يديها.

افترقا على غياب احتفت بلوعته. مشاعرها تسحبها لدفء قلبه. تشتاق، تضعف... تكتوي بنار البعد والتّحرق إلى اللقاء... تضع رأسها على الوسادة، تقفز صورته يوم غيمة السماء التي احتضنت خطّ التلاقي مع البحر. تقاطيع وجهه ونظراته ورائحته. نبرة صوته وهي تتدفّق مفعمة بالحرارة والصدق:

– مشتاااااق.

شحنات تيّار كهربائي تتقافز في كلّ خليّة من خلايا جسدها تناديه. النّبضات تعاود التواتر في خلاياها وتنفضها. تحتضن صدرها بذراعيها بينما تلجأ ركبتاها إلى الالتفاف حول بطنها كطفل لا يزال مربوطاً

بحبل أمه السرّي... متوارٍ في الرحم الدافئ قبل أن يحين قطاف ثمرة التكوين ويُصعق بالحياة.

تعاود الصورة القفز مرة أخرى:

– مشتاااااق.

خيالها يُكمل رسم اللّوحة كما تتمنّاها وكما تهفو إلى عيشها... يقترب منها... تقترب منه، تقترب الشفاه... تتراكض كريات الدم في خلاياها لوجهة واحدة... روحه، تذوب في شفتيه...

يغيب الكون بعده عن الحضور، ذوبان من شدة تجسّده في خيالها... يوقظ حرمانها الفعلي له. دفق حياة ينبض في مواضع الإحساس لديها... نبض... نبض، فتغمض عينيها بوجع بينما تتهاوى دموع ساخنة على صدغيها، فتنقلب على بطنها وتدسّ رأسها في الوسادة... لتبكي بحرقة.

لا تتذكّر كم من الوقت مضى وهي في حالها تلك. خشيت ربّها بالغيب فلاذت برحمته. نهضت للوضوء. فرشت سجادتها وصلت ركعتين:

"اللهم باعد بيني وبين خطاياي، كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقّني من خطاياي، كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد".

* * *

في الصباح، عقرت كلّ الآمال التي راودت نشمية، حين سرت في جسدها رعدة خوف امتزجت بالغثيان، وحيرة من لا يعرف كيف

الفخّ

توكّأ جعفر جدار أحد الأركان وعيناه مُعلّقتان في المجهول. مُغيّباً في عوالم تزفر غيماتها أسئلة غائمة، بعيداً عن ثرثرة رفيقي السجن فتساوت لديه تقلبات الشمس وغاب الزمن.

لم ينتبه أنّهما ضاقا بصمته ونشوزه، وأضمر كبيرهم استفزازه. حدجه بنظرة استكشاف، وبحروف لها نكهة الشوك انهمرت دبقة مُحرضة:

– أبو الشباب "صافطنا"!!؟

لم يُحرّك ساكناً، فاقترب منه وجلس موازياً له ضارباً بكّفه على ساقه:

– اسمي صلاح أبو شمّه، مروّج ومُتعاطي لكن تهمتي الأخيرة ضرب أفضى إلى عاهة مستديمة، والأسمراني الحليوه هذا اسمه ماجد ونناديه مايكل، لقبه منذ أيام المراهقة لإعجابه وتقليده لمايكل جاكسون وتهمته تعاطي، فماذا عنك؟

كورم في الحنجره كانت حاجته للبوح، وقد ضاق بسجنه الداخلي وشعر بخواء جارح. تفرّس في ملامح صلاح فشعر بقبضة في قلبه،

لكنه تجاهلها وردّ باستسلام:

– تَعدي على رجل أمن.

– بَس كذا؟!... بسيطة، ليست سوى بضعة أشهر وتخرج.

– لم أعتد على ذلك.

– يا حليوه! يا ناعم! أقول قط "لقذلة" على ورا.

– وأنا أقول ثَمِّن كلامك وتكلّم كلام رجال.

استحالت ملامحة إلى أشراك شائكة وعيناه إلى أحداق ثعلب:

– ليه انشالله؟ من تكون ولا من أنتَ ولده؟

– وانتَ من تكون ولا من أنتَ ولده؟

تباعد ساخراً:

– وأنا اعتبرتك رجلاً وجلست قربك أنادمك.

تريّث جعفر في الردّ وكل ما فيه ينضح مُرّاً، مرارة أشعرته بصفاء داخلي أعطى لنفسه قدرها من خلاله:

– ومن أنت حتى تترفع عن الجلوس بقربي، لست سوى مروّج حشاش... لك الشرف أن جلست بقربي.

عاد أدراجه هامّاً بضرب جعفر الذي فزّ هو الآخر للدفاع عن نفسه فتوسّط ماجد بينهما لمنع عراكٍ يهمّان بدخوله.

– لم يُخطئ الرجل أنت من بدأت، فعد ودعنا نخرج من هذا المكان بسلام.

– ألم تسمع ما قاله؟

– قال الحقيقة... مُروّج وحشّاش.

– مايكل!!

تركه والتفت نحو جعفر وفي عينيه اعتذار شفيف:

– لا عليك... دعك منه.

ظلّت الكلمة تأكل في قلب صلاح فعاد مسرعاً وبصق في وجهه فردّها له. تماسكا في وحشيّة فائضة، وضاعت محاولات مايكل لفكّ تضاربهما الضاري، وحين عجز اتّجه إلى النافذة الصغيرة العالقة بالباب صارخاً على الحارس الذي أتى مهرولاً وأطلّ من النافذة، فنادى على زميلين له، سارعوا بالدخول وفكّ الاشتباك وسط تهديد بالسجن الانفرادي لكلّ منهما. خرجوا وأوصدوا الباب خلفهم، وبعد دقائق فُتح الباب، أُدخل سجينان وأوصد مرة أخرى.

وحين رأى صلاح القادمين فزّ مُنتشياً وهو يضرب كفّه بكف كلٍّ منهما على حدة ويعانقة بحميمية وسط ضحكات عارمة.

غادر الأكسجين العنبر وتكاثفت العتمة، فشحذ جعفر له أنياباً لم تُقلم وقد أيقن أنه وقع في فخ سحيق.

الوحيدة التي

استبدّت بالرجل الملثّم رغبة متأجّجة لاستعادة ضوئه الداخلي.

فأشعل قرون التنصّت والاستشعار في التقصّي والاستفسار في كامل الحي، وقبل انبلاج الفجر وعلى اعتاب الخرابة الموحشة، أطرق بصره إلى الرمل وقد جنحت به أوهامه المضللة.

توهّم أنّ النور سيعبر عشائره البائدة من جديد، ويكون له دار دافئة وأهل، والأهل وطن. لم يُفكّر حين سدّد مديته ودفن بذاره في جوف الأرض، أن تُسربه أيدي الريح قصاصاً دامياً.

توهّم أنّها اصطفته دون العالمين حارساً مغارة القلب ومالكاً مفاتيحه. ما تلمّس كم كانت خيوط الرباط واهنة حتى شهد نثار أحلامه. تعاملت معه بدونيّة ومارست عليه العزف النشاز ذاته، للوتر الحساس القاتل ذاته، عنصرية من نوع آخر وطبقيّة مُغايرة، فما هو إلا "بدوي" وإن تَعلَّم، وهي وإن كانت فقيرة لكنّها من بلد مُتحضّر ليس كما هؤلاء البدو، ليحيا الوجع ذاته، وحيداً في ظلام دامس، يمارس ذلّ استجداء العواطف، فلم يجن سوى اليباس والبرد.

سمعت هيلة المنتصبة بقامتها الشامخة طرقاً خجلاً على بابها

الموارب، رغم وجود جرس على الزاوية اليسرى منه:

– مَن بالباب يقلط.. أرحب أرحب.

فتح الباب ببطء فأحدث صريراً حاد أ. دخل العالق بماضيه بخطوات مُتمهّلة، حيث سرداب قصير يقود إلى مجلس للرجال تعوّدت هيلة أن تقضي جلّ وقتها فيه حتى قبل أن يفارق زوجها الحياة. كان الزائر يعرف طريقه إليه. ارتفع صوتها وهي تُلملم بعض المساند المبعثرة وتنزل برقعها على وجهها:

– أرحب... أرحب.

دخل مُنكّس الرأس. نظر إليها من أسفل عينيه ليتأكد من كونها هيلة التي خبرها، ثم فتح اللثام.

نظرت إليه نظرة فاحصة:

– مَن النشمي؟

صمت طويلاً فأعادت سؤالها بريبة، وبؤبؤ عينيها الصغيرتين كلوزة يخترق قلبه:

– أقول مَن أنت؟

تنهّد نافثاً ما في صدره من غبش السنين:

– حمود...

تساءلت بريبة وهي تنظر إليه من أسفل، وترفع برقعها عن وجهها كما اعتادت، تضعه حين تشاء وترفعه حين تشاء:

– حمود مَن...؟!

غرس أحداقه في أحداقها بوجع هتكته الحميمية التي توسّدها مراراً بين طيات "فزعاتها" في الزمن البريء، قبل ارتطام العمر.

وأبحرت في سفائن أحداقه:

العنود تقتحم باب هيلة الموارب على الدوام، وتقذف جسدها في المجلس ذي الجلسة الأرضية والمساند التي أخذت تُبعثرها في كل الاتجاهات في حالة هستيرية وكأنّ هيلة هي الأم والملاذ:

– لحقي علي يا هيلة، حمود هَج مع خويته...

– ... ألعن أبو الرجال... مع البَرصى؟!... الحمرة العطرا زوجة حميدان!!؟

فركت العنود صدرها بكفها بحرقه وقد نز العرق من جبينها:

–إيبيه... إيبيه... أرسل لي ورقتي.

التقطت عباءتها وقذفت بها فوق رأسها دون أن تسمع التفاصيل. يمّمت صوب الباب والغضب يعمي بصرها وتتخبّط أفكارها، فانهمرت شتائمها وهي تُشير إلى ساحة الحي:

– الجهودي ملعون الجدف بقعه تصوعه، إذا ما أبطحه في ذا قدّام الرجاجيل مانيب هيلة.

– أقول لك هَج هَج.

مال رأس العنود على الجدار في حركة لا إرادية وذهبت في إغماءة، انفلتت معها آهة حرقة موجوعة من هيلة على العنود التي تراها ابنة لها لم تلدها. أخرجت آهة حسرتها وأسفها بطريقتها الخاصة من آخر الحنجرة مع كتم النفس، وكأن هذه الآهة تعلقت بظهر موج وتبعته في تموجاته صعوداً وهبوطاً:

– آاامممم...

عادت من نظرة الإبحار التي ركبتها في أحداق حمود لتلتمع

فيهما إضاءة المعرفة، فهمس لها مؤكداً النظرة التي التمعت في عينيها بخجل:

– ... إيه، حمود.

تضاربت كريات الدم الحمراء في خلايا وجهها وقرض بعضها بعضاً حتى ارتعشت الزاوية اليسرى من خدها قرب عينها رعشات متتالية، كأن صخرة هائلة هوت على قلبها وكتمته، وكشأنها في إظهار القوة والتعامل مع الحياة برجولة وجَلد. نهضت مُتجهة إلى مطبخها. أرادت أن يبلغه استخفافها به، وقذفت عبارتها كما بصقة في وجهه:

– سوّد الله وجهك.

أطرق، وتجمّرت عبارتها في قلبه دون لوم، فهو يعرف سلاطة لسان هيلة وحدّته كما يخبر طيبة قلبها.

تركته لتلتهي بعمل أيّ شيء في مطبخها المتواضع. أوهمت نفسها بعمل القهوة وذهنها شارد في سرّ عودته.

كانت تشعر بأنّه لم يخن العنود وأخاه فقط بل خانها أيضاً، وقد كانت مرسال الغرام بينه وبين العنود في الأزمنة الآفلة.

كان يدرك شهوة التطرّف لدى هيلة، إذا أحبّت كان حبها صادقاً، وإذا كَرهت قالتها في وجهك أنها تَكرهك، لا توجد عندها منطقة وسطى ولا تنازلات.

هيلة المرأة التي قدمت مع زوجها قبل أكثر من عشرين عاماً إلى هذه الجهات، وأثارا الأقاويل واللغط حولهما لتحفّظهما في البوح عن سقط اللوى، وسرّ مقدمهما إلى هذه الأنحاء، تاركَين أبناءهما...

إن كان لهما أبناء، وعائلتهما إن كانت لهما عائلة وجذور.

كثر اللغط حولهما... هل قتل الرجل ومطلوب للثأر؟ لكنّ هيئته لا تشي بقتل بعوضة؟ هل هو حقاً زوجها وهو يبدو أضعف منها في كل شيء، في امتداد القامة وتكافئها، في الشخصية، في الحضور، في كل شيء!؟ كما تسرّب خفيةً الشكّ في كونهما "مباحث"، لكنّ الحقيقة لا أحد يعرفها. وتلاشى ألق البحث عنهما مع الوقت، ومع ذلك... كسبا محبّة الجميع، تحديداً هيلة. امرأة شامخة، شرسة في الحق، رقيقة كالماء. كانت في زمانها مثاراً للجدل، تتحدّث في أدق مواضيع الرجال بجرأة جعلتهم مع الزمن يعتادونها. تقتحم مجالسهم عند المُلمّات وتتوسّطهم لتدلي بدلوها في ما يخصّ الحيّ وكأنها عمدته.

هيلة التي إذا عبرت حيّاها الرجال في طرقاتهم، وإذا عبرت أحدهم شارداً رفعت كفها:

– قويت يالرجال.

وتحدّثت معه في كلّ ما يخص شؤون عائلته، بل قد تداعبه حتى في أسراره الحميمة. لم ينفر الرجال من جرأتها بل أحبوها وباتوا يستشيرونها في أدقّ خصوصياتهم، كما هي كذلك بالنسبة إلى النساء اللاتي اعتدن على رؤيتها واقفة في أحد أزقة الحيّ مع رجالهنّ دون أن ينتابهنّ الظنّ السيّئ أو التفسيرات الخاطئة، حتى إنه يروى عنها أنه إذا رأتها إحدى النساء الغيورات من الخلف مع زوجها دون أن ترى وجهها تركض نحوها لترتكب فعلاً فاضحاً فيها في الطريق العام، وما إن تتعرّف عليها حتى تنزوي وتنكمش متراجعة وهي تمازح صويحباتها في هدوء:

– هذه هيلة.

فيمضين ويتركنها دون أيّ تعليق.

هيلة المرأة الوحيدة التي تجالس الرجال كما تجالس النساء، وهي الوحيدة التي رفضت غطاء الوجه ولاذت بالبرقع، لأنّ كثيراً من أهل الحيّ كانوا يرتدون أحدهما في ذلك الوقت، لذا فهي تلبسه حسب المزاج، وأحياناً تلبسه في بداية الجلسة وفي منتصفها ترفعه وكأنما ضاقت به أو كأنّ الحديث يحتاج لشحذ كلّ التعابير.

هيلة... هي الوحيدة التي تقتحم أدق خصوصيّات العوائل ويفزّ لها الرجال قبل النساء، تعشق عوالمهم ومجالستهم وتنفر من مجالس النساء التي تراها فارغة ولا تلذّ لها، رغم تعاطفها الكبير مع النساء وتحميلها الرجال كلّ صنوف العذاب الذي تعاني منه المرأة حتى أنها لا تتورع عن مُقارعة الرجال بالأيدي حين يتعدّى أحدهم على زوجته بالضرب أو القدح.

هيلة رجل بهيئة امرأة، وامرأة بفزعة الرجال الحقيقين وشهامتهم وإن ظلّت وزوجها لغزاً.

هناك من يُخمّن كونها جاءت من الجنوب، فما تُضيّف به ضيوفها من عريك وسمن وعصيد وقسبه من أكلات أهل الجنوب، إضافة لتقارب لهجتها بلهجتهم، وإن كان حصل لها مع السنين نوع من التهجين بحكم المعاشرة. وهناك من يراها من الشمال فكرمها الباذخ وسحنتها النضرة الرائقه تُقارب سحنتهم، وهناك من يراها من البادية فخصالها خصال رجالهم. لم يروا لها أقارب يزورونها على الأقل في مواسم الإجازات المدرسية، كما لم ترحل يوماً إلى زيارة الديرة كما

يفعل الجميع، بقت سرّاً ألفوه واستسلموا إلى غواية غموضه.

انحنت تحت صنبور المياه، غسلت يديها والتقطت دلّة القهوة والفناجين وخرجت. وضعت الدلة وهو يراقبها مُحاطاً بانكساره بعينين تستشيطان توتراً، مُترقباً السوط الذي ستسوطه به. سكبت القهوة ومدّت يدها بالفنجان، ثم مدّت يدها تحت السجادة والتقطت علبة سجائر مُخبأة، مدّت يدها بواحدة وهي تدلق لزمتها الشهيرة بنظرة تشي بحقد دفين:

– ...ياليل ماااا أطولك... هاا وش وراك؟!!

وتلاشى اليقين بأي شيء في قلب جعفر، حين رأى رؤوس الشياطين تتلاصق في همهمة، أدرك بحدسه أنها تتآمر على سلامه الداخلي وكرامته.

التقط أحدهم ذو قامة فارعة بعضلات بارزة وندبة قرب عينه اليسرى حذاء صلاح وصفعه:

– حين يقول لك عمُّك قبّل حذائي تقول له "حاضر وأنا لك مداس"، ... سامع.

استطالت قامته ومضى يقترف الكرامة غير عابئ بالنتائج. هناك لحظات في العمر لا خيار للمرء فيها وهذه إحداها، حدّث نفسه وقذف عبارته:

– وأنتَ ولا هوَ، تظن نفسك آدمي؟ حُثالة خلق الله أنتم.

لم ينتظر أيّ رد، التقط الحذاء وصفع محدّثه الذي باغتته سرعة تعاطيه مع الموقف، فقبض على مقدّمة ثوبه وجذبه بقوه حتى ألصقه بالجدار ثم سحبه إلى الأمام وأعاده بقوّة ليرتطم بقوة ونجوم الألم الصغيرة تومض وتنطفئ أمام عينيه وفوق رأسه.

كرّر ضربه بالجدار مراراً حتى كاد يفقد وعيه فانسكبت دماء تُحسّ، وتَوارى إنسان طَيّب.

صرخ مايكل بنبرة تضجّ أسئلة لا يعيها تماماً:

– حرام... ما هذا الذي تفعله؟ لماذا كل هذا؟

حدجه صلاح بنظرة تهديد: "خلّك في نفسك"، وأمسك ياقة جعفر الذي أخذ ينصب وقفته وأعاد إلصاقه بالجدار:

– صلاح أبو شَمّه اسم... لهُ رنّة، من يُخطئ فيه يدوسه بأقذر

حذاء لديه، فاهم يا حلو؟

أبعد جعفر يده بغلّ وقد ارتفعت زاوية شفته العليا في اشمئزاز. فأعادها صلاح استفزازاً، فكرّر جعفر إبعاد يده، وعاود صلاح الحركة ذاتها لولا أنّه قبل أن يهمّ جعفر بإزاحتها، هبّ الرفيق الآخر ووضع يده على رأس جعفر من الخلف وشرع في طأطأته في اللحظة ذاتها التي رفع فيها صلاح يده وقرّبها من شفتي جعفر:

– قبّل يد عَمّك.

أعاد جعفر رأسه إلى وضعه الطبيعي بمكابرة نبيلة، في نظراته تحدٍّ وفي جبينه كبرياء سادر في صمت رهيب. أمسك الرفيق الأول رأسه وغرسه في كفّ صلاح واحتشدوا عليه:

– طلبناك أن تُقَبّل يد عمّك تشريفاً لك، لكنّك تمَرَّدت على النعمة فقبّل قدمه الآن.

أحنيا ظهره، فأطلق العنان لغضبه وهو يرمح يميناً وشمالاً كحمامة سقطت في شباك صياد ماهر.

تعانقت قبضتا ذي العضلات وأوغلت في بطن جعفر حتى كادت صرخة أن تنفلت فعاجل بكتمانها إمعاناً في اعتزازه بذاته وإن كانت معدته تقيأت ما فيها. اجتاح صدره غثيان كالصديد تطاير مذاقه والضربة الثانية تهز أركانه من الخلف.

سقط على ركبتيه، وامتدّت ابتسامة لزجة على شفتي صلاح:

– قُل سامحني سيدي.

رفع رأسه وأنفاسه تتابع في تتواتر وبصق، فانفجرت كراهية في دماء لم تستذوق من عنب الحياة سوى نتنه:

– تظن نفسك رجلاً... سترى رجولتك الآن!

أشار بعينيه بحركة سريعة إلى رفيقيه اللذين أحاطا جعفر، ولوى كلّ منهم ذراعه إلى الخلف بينما لاذ مايكل بالزاوية متفرّجاً، ومن حركة شفتيه بدا أنه يكرر كلمة حرام دون أن يخرج صوته.

– لا تتركوا شيئاً... جردوه من كلّ ملابسه.

صاح صلاح. وفتح مايكل عينيه متوسّلاً وهاتف في ضميره يصرخ "استيقظ... استيقظ"، بينما سارع أحدهما بنزع ثوبه وهو يستقتل كي لا تسقط أوراق التوت.

قذف الثوب، ثم نزع الفنيلة الداخلية ولم يبقَ سوى سرواله الذي همّ أحدهما بنزعه ويداه تقبض عليه، حتى كاد موضع القبضة أن يتمزّق بين الاثنين وبان جزء من منابت عورته.

انطلق مايكل يَحفّهُ ضَوءُهُ الكسير مُلقياً بجسده على جعفر مُترعاً بالرحمة والخزي حتى غدى كالدرع الواقي، مُشرعاً يديه كطائر يوشك على التحليق.

بدأ الدم ينزّ من فم جعفر وأنفه بغزارة، وانطلق الجميع في صرخه واحدة وأخذوا يشدّونه بعيداً فانطلق صوته متوسلاً:

– حرام... حرام... يا حارس... يا حارس... حارررس.

أطلّ الحارس المناوب، ثمّ التفت خلفه منادياً على زميل آخر. فتحا الباب وهما يصرخان في الجميع بالكفّ عن الشجار، ثم اقتادوهم إلى مكتب الضابط المُحقّق بينما نظرات الرفقاء الثلاثة تنغرز في أحداق مايكل كعيون ثعالب تترقّب لحظة انقضاض شرسة.

عليكم أن تنتظروا، همس الحارس وهو يطرق الباب، وعندما

انفتح، لمح جعفر وجه الضابط عامر، صاحب أوّل جُرح أوغلَ في الروح وأوّل أمر باقتياده لقضبان ما كان له أن يطأ عتباتها.

تاهت نظراته في الجدران بَحثاً عن شبابيك مُشرعة، وارتبكت خفقات قلبه برؤية خصمه الجارح، فانهمر شوق جارف لحضن حميم تناسل في ثوانٍ كما تناسلت القضبان واستطالت.

حين أبصر الضابط عامر خصمه المُعتدى عليه، تحرّك مؤشر في صدره لحدث عُنّف عليه من قبل جهات عُليا شنّها ضده النقيب خالد، فعزم على كظم قهره والتزام الحياد وقد تساقطت أوراق اعتداده باكراً، فعبرت حمامة بيضاء خفقت بأجنحتها فوق رأس جعفر بيد أنه لم يبصرها.

بملامح طبشورية أشار الضابط عامر إلى خصمه بالحديث. تحدّث بإيجاز، ثم أشار إلى مايكل لتوثيق حديثه. أنصت بعجالة إلى الباقين ثم أمر بصوت خشن كُسرت حدّته:

– سجن انفرادي لكلٍّ من هؤلاء، وهذان الاثنان معاً (مشيراً إلى جعفر ومايكل).

وحين صافحت عينا جعفر العنبر، التفت إلى مايكل الذي فاضت روحه بحزن غامض لم تُزحزحه امتنانات جعفر فركن إلى إحدى الزوايا صامتاً. بينما تجرّد جعفر من صلابته وقد أنهكه نحيب إنسانه الذي جاهد لتبقى هامته عالية وبكي بحرقة.

قيد الأمل

كان أزيز العاصفة الترابية التي هبّت دون مقدّمات، رسولَ قلقٍ وباعثاً للانقباض في قلب أمّ راشد التي خرجت إلى الحوش تستطلع طيف دلّوعتها. فتّشت في كل الزوايا، وتفقّدت ألواح الخشب المركونة في الحديقة، فربّما نامت خلفها، كنّست بقدميها المكان ذهاباً وإياباً، وفي عينيها رجاء ملحّ أبى مغادرتهما في عودتها.

أطلّ وجه راشد من باب المطبخ، ورشح صوته بحنان وهو يقترب منها:

– هل نسيتِ أنتِ الآن ما أوصانا به والدي، ألاّ نتمسك بشيء لأنّ كلّ شيء ينقضي، يتركنا بإرادته أو دونها!

– وجودها يؤنس وحشة روحي، أشعر حين تكون موجودة بأنّ طيف عبد الرحمن حولنا، مضى الآن تسعة عشر يوماً منذ أن هربت، أخشى ألا تعود.

هو الآخر راشد، يخشى أن لا تعود. ضربه الندم على ارتكاب أمر لم يجنِ منه سوى هرب قطتهم الغالية، كان يريد أن يراها تصنع أسرة، أختار لها ما يظنّها تحتاجه فأخطأ دون قصد. تنهّد وهو ينظر إلى

الجدران مُتمنّياً عودتها، لكنّ الفضاء شاحب لا يحمل سوى الصمت والمجهول، فأسلم قلقه إلى السكون وهو يعيد وضع الشال الذي سقط على يدي والدته ونظر إلى باب المطبخ الموصد، الذي دخلا منه إلى الحوش، وفتحه.

بينما أغلقت العنود منفذ الباب الداخليّ المؤدي إلى فناء المنزل والموصِل إلى الباب الخارجي، كي توقف نزوح ابنها إلى الطرقات وهي تستحثّه على الرأفة بها والتعاطي مع جلال الأمومة بقدر من الإحساس، فالامتحانات باتت على عتبات شمس الغد. يُهدهد جزعها والمسافة بين وعيه وقلبه تميد بالبلادة والغياب، بينما نبرة صوته ونظراته تطفح بلا مبالاة سافرة:

– إيه إيه إن شاالله... الآن سأبدأ مراجعة الرياضيات.

تكحّلت عيناها برجاء ضارع ألّا يخذلها، واتجهت للمرتبة التي تتوسد الأرض وهي تواري المفتاح في جيبها وتستلقي لأخذ غفوة الظهيرة مُستنهضة همّته:

– والله أشتري لك سيارة إن أنهيت هذا العام بمجموع، لو أخسر كل إرثي.

ظلّت نظراته تُسيّس شكّها في سطلة لا تبرح سفائن حدقتيه وغمغم ببرود:

– سأنجح وأنتقل للثانوية العامة، نامي أنتِ... ارتاحي.

لكنّها لم ترتح، فحين سحبها إجهادها إلى عوالم شاسعة من الصحاري والأتربة التي تتلاعب بها أيادي رياح غضبى، تتابعت أنفاسها في ضيق وتململت في إغفاءتها وقسماتها تنوس بالاختناق،

مُعلّقة بين السماء والأرض، يقظانة ونائمة... قريبة وبعيدة.

وكالحلم البعيد بلغها صوت ارتطام، فتحت عينيها إثره دون أن تُميّز أين هي؟ حاولت استعادة وعيها من عالم شارفت على ولوجه وخرجت قبل أن تطأه.

قفز فوّاز إلى وعيها فنهضت جزعة. اتجهت مباشرة إلى صالة الجلوس فجفلت مثل طير حين وجدتها خالية. انحرفت نحو غرفة النوم، طرقتها طرقات خفيفة ثم فتحت الباب، فلم ترَ سوى الوسائد مُبعثرة خالية.

أوجعها فراغ أوشك أن ينحت قلبها، كمّدته بالأمل الذي ظلّت على قيده، ودارت في ردهات المنزل تهدل مثل حمامة فقدت رفيقها، حتى تيقّنت أنّ أحلامها باركتها الريح، فاعترت ذهنها سكتة طارئة وما عادت قادرة على تفسير اختفائه والباب لا يزال مُوصداً!

وضعت يدها على جيبها لتتأكّد من وجود المفتاح، فشعرت بحدّته وذهنها يكاد يتوقف عن التفكير والجزع أين اختفى!

عاودت البحث عن غرِّها النافر، حتى إذا بلغت مجلس الرجال، الخالي من جهاز تكييف وتمّ وضع لوح خشبي على موضع الفتحة الشاغرة، مطّت جذعها وفغرت، حين رأت اللوح الخشبي على الأرض والضوء المتسرّب من الفتحة ينضح بالخذلان.

فرّت من صدرها رغبة العيش وتورّم قلبها إحباطاً وقهراً:

– ابن الكلب خرج!

في الديرة

شعرت بأنّه يحزم حقائب الرحيل... وإما أن تحذو حذوه... أو توقفه. إيقاع الوقت الرتيب وتباعد الصوت... يلوح لها بهاجس نهاية الطريق. شعرت بأنّ الوقت صامت... ولصمته صوت. وله مذاق... ومذاقه فناء. وله رائحة مُحمّلة بالغبار والتطاير.

لقد أدركت في مراحل مضت أنّ الحياة لا يمكن أن تكون حافلة بالمسرّات، لكن هذا لا يعني أن لا تتشبث بها حين تطرق بابنا. هي رافضة للانصياع للواقع، وهاربة من أزمة انعتاق نفسيّ إجباري من شخص نُحت في الروح، ومارس بروحانية شفيفة استلاباً وجدانيّاً لها.

الأفكار تطنّ في عقلها وهي تُحاول ولوج الأراضي المُلغمة. تحاول مصارحة أمّها بما يؤرّق أيامها ويحبس الفرحة عنها، لكنّها حين تقترب من لحظة القطاف، تشعر بأنّ الكونَ كُلَّه طوى جناحي رحمته وارتحل.

يتسارع خفقان قلبها وتضطرب ضرباته وتأخذ في اللهاث، بدت كما لو أنها تُحدّث نفسها فلم تسمع والدتها سوى غمغمة:

– إش تقولين... تكلّمين نفسك؟!!

استمدّت من حضور راشد الذي تمثّل طَيفُه في وعيها قوة. فبدأت بمقدّمة عن كون الزمن تغيّر، وكونها إمرأة ناضجة، وكون والدتها أقرب الناس لها وستفهمها.

نظرات والدتها حائرة لا تفقه سرّ هذه الديباجة، بينما أصابعها تتداخل وهي تُشبك بيدها عقد فلّ قريباً من سريرها. ملامحها الحانية شجّعتها على الاستمرار، فحكت كلّ شيء... وحين تحدّثت عن الأصل تعثّر لسانها في اللحظة ذاتها التي انقلبت ملامح الأم إلى صفرة باهتة فقاطعتها:

– بس بس بس... لا تُكملي... هذه أمور لم تتغير... ولن تتغير، إلى الآن وإلى بُكرة وإلى مئة سنة.

– يا أمي...

– أنتِ أكيد صار لعقلك شيء، ما أنتِ صاحيه... تدرين لو أنّنا وافقنا وزوّجناك، القبيلة كلّها ما راح تخليكم، والله ما تمرّ ليلة زواجكم إلا في المغيسل.

بدأت دموعها تلتمع في عينيها:

– يا أمي أنا أحبه... أحبه...

– أنتِ شكلك ما تعرفين العوايد عندنا، دلّعتك طراوة الدمام... هذي فيها دم! ما تدرين أنّ بعض القبايل الأعلى منّا في بعض الديِّر، حتى لو أصيل بس من الصنّاع يعني جزار أو لحّام ما يُزوّجونه.

– أمي ساعديني... أرجوك... أرجوك.

التقطت يديها وقَبّلتهما، ثم دسّت رأسها في حضنها وهي تبكي:

- أرجوك يا أمي... عمري ما فرحت إلا لّما عرفته، عمري ما حسيت أنّ فيه إنسان قريب من روحي ويفهمني إلا هو، منحني أعظم شعور تبحث عنه أي امرأة في الدُنيا، الاحترام، والإحساس بالأمان... الأمان...

لم تجد الأم قارب نجاة تقذفه لابنتها، فركنت لحكمة العقل تجدّف به سفينتها الجامحة:

- يا بنتي أبوكِ إن عرف بالموضوع والله ما يشيلونك إلا جثة من تحت ايدينه...عيالك محتاجينك.

- خل يشيلوني جثة... أنا من غير راشد جثة... تموت روحي... أرجوك يا أمي أرجوك.

بقلب متكدر طافت يدها على رأس ابنتها واحتضنتها:

- اذهبي لأبنائك الآن... وليكتب الله ما فيه الخير.

وحين تجرّأت وخدشت سمع بو منصور العصيّ على المرونة بحكاية راشد، بعد صحوة رائقة من نومه ظهراً، هدر كطوفان ونبّ في وجهها:

- كيف يتجرأ يجي يخطب... على أيّ أساس؟

ثورته العارمة لجمت فاهها وتلاشت قوّتها:

- ما أدري.

- لا تدرين!

وبعقليته التي لا تؤمن بالحب ولا تفهمه حضرت أشباح الخطيئة في وعيه:

- أكيد فيه شيء... بينهم شيء؟

شعرت بالقهر على ابنتها فانتفضت كالملدوغة:

– ما فيه إلا كل طهارة وشرف، لكن ابنتك ليست قاصراً، امَرأة ناضجة... والزمن تغيّر دعها تحيا حياتها.

– الزّمن في هذه الأمور لم يتغيّر ولا بُكرة ولا بعد مئة سنة هذا مهو من مواخيذنا، الرسول عليه الصلاة والسلام قال: "تخيروا لنطفكم فإنّ العرق دسّاس"، لا تحنّيني على تزويجها دون حتى أن تعلم، وأنتِ تعلمين أنّها صارت كثيراً في الديرة، عقليها أحسن لا والله انتِ وهيَ لن يُخلصكم من يدي إلا رحمة ربكم.

– ربنا ربك.

سمعها وهي تنشق مُغالبةً دموعها، فصرخ فيها أن تكفّ عن النهنهة والبكاء، وأمضيا ليلتهما في بسوس طاحنة وتبادل اتهامات وألفاظ جارحة بذيئة عن جهلها وعدم معرفتها بالتربية حتى لم تتمكن من تسييس ابنتها!

وفي الصباح سارعت أمل بالاتصال بوالدتها بحثاً عن بارقة أمل:

– يا بنتي انسي الموضوع، ما نزوج كذا.

– أبوي اش قال؟

– مهو من مواخيذنا، الرسول عليه الصلاة والسلام قال: "تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس".

اكتفت الأم بهذه الردود المقتضبة، وشاح الصباح عن روح أمل. أنطفأت شموعها ولاذت بصمت رهيب... أدمنت حوار الذّات حدّ الإنهاك والهذيان المحموم، بينما غليان الدماغ لا يتوقّف وطنين الأفكار لا يكفّ عن الأزيز:

في بداية المتوسطة كانوا يعلّموننا في مادة الدّين كيف أنّ رسالة الإسلام قامت على المساواة بين الناس، حَفّظونا التعاليم الحقيقية لرسالة الإنسانية، أطلعونا على سيرة محمد وكيف كان يغضب من دواعي العصبيّة الجاهلية ويردّد: "دعوها فإنها منتنة"، أتذكر... جاءتنا كدليل استشهادي لسؤال في الامتحان، أتذكر أنّ الفصل كلّه أجاب عن الدليل، كُلّنا حَفّيظة... صَمّامون، كأنّ الصفحة أمامي الآن، ورقة الإجابة أمامي، الإجابة... "سمع النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم أبا ذر الغفاري العربي الذي كان ترتيبه الخامس في الدخول في الإسلام يعتدي على بلال بن رباح (الحبشي) ويقول له: يا ابن السوداء، فغضب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غضباً شديداً وانتهر أبا ذر وقال: "طف الصاع طف الصاع"، ثم اتجه إلى أبي ذر وقال له: "إنك امرؤ فيك جاهلية، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو عمل صالح"، فوضع أبو ذر خدّه على الأرض، وأقسم على بلال أن يطأه بحذائه حتى يغفر الله له زلّته هذه، و يكفّر عنه ما بدر منه من خلق الجاهلية الأولى.

وفي مادة التعبير كانوا دائماً يطلبون منّا كتابة مواضيع تعبّر عن عبارة "العلم نور" تعلّمنا، وحَصّلنا أعلى الشهادات و لم يطرق النور نوافذ عقولنا، ما زالت موصدة، تكتنفها العتمة وتسورها الخرافة والموروث.

بات وجهها ضامراً، انتثرت بثور القلق والحُمّى على وجنتيها وجبينها وزوايا شفتيها كالمجدور في آخر استشفائه، وحفر القلق أخاديده العميقة أسفل عينيها ووشمها بلون قاتم، بجسد ناحل وروح

مطفأة. جُرحها المفتوح لا ينزّ سوى اللّوعة وحلم مهزوز عصفت به ريح الواقع بكلّ قسوة... فكسرته.

تلوب في ردهات ذاتها كفراشة أسيانة انهصر قلبها. يعصف بها الشوق فيردها الواقع. تُريده أن يعرف ما استجدّ وتخشى فقده إن عرف. تتمنى لو بيده حلّ مشروع تجهله... فيضيء عتمة أيامها باكتشافه.

تتحايل على ذاتها، أو هو القلب يُحاول مُراوغة العقل. توهم نفسها بأنها تريده أن يعرف أنّها حاولت، لكنّ الحقيقة المتوارية هي فقط لهفتها لسماع صوته ورؤيته.

فكّرت على نحو طفولي. أرسلت رسالة عبر الموبايل (فاتحت أهلي، اتصل)، وسكنت دون حراك عيناها على شاشة المحمول. بدت هادئة وهي تخبره بأنّها تريد أن تراه. انقاد لمشاعره حين لوحت بطيف الأمل، فخرج. سار بلا عينين حين عبر أمّه و لم يرها:

– اش عندك يا ولد الريس طاير من الفرحة؟

– قرّبت اتزوج أمل...

استطرد:

– يمكن.

أجابت بثقة:

– يا ولدي ضع قدميك على الأرض، باتزوجها!!؟

– إيه يمّه... وماذا في ذلك؟!!

– إيييه... "إذا حَجّت البقر على قرونها".

امتد جدار بينه وبين حديث أمه، وغيمة كثيفة جثمت بثقلها على

صدره، لكنّه تمسك بأهداب الفرح وانطلق خارجاً.

بلغه صوتها:

– ماذا علّمك والدك يا ولد الريّس؟

تجمّدت خطواته وأغمض. اندلقت صورة في الذاكرة ، حين غاب والده في أحد الكورسات إلى أمريكا، ونتيجة تعلّقه به لزم فراشه مريضاً وهو ابن الثالثة عشرة، وحين أضاء الكون بعودته:

الريّس سليمان يفتح باب غرفة راشد المُسجّى محموماً. نظر إليه بعتاب فهبّ راشد من رقدته فرحاً واحتضنه، حتى إذا انفكّ من أحضانه جلس والده على حافة السرير وأم راشد تلج المكان ووجهها مُضاء ببشر عودة الريّس :

– أنا زعلان عليك.

– ليه يبه...؟

– ولدي ليس ضعيفاً ولا لَيّناً، ولدي رجّال... علّمته ألا يربط حياته ومصيره بأحد لأنّ كل شيء قد يزول، كلّ شيء ينقضي.

– بس انتَ أبوي!!

– ولو... كلّ شيء سيكون له مكانه الخاص في روحك مثل أبيك ويختلف في خصوصيّته. يجب أن تعرف أنّه حتى والدك سيأتي يوم ويذهب، قد يكون ترك أثراً جميلا في داخلك لكنه سيذهب، وسيأتي آخرون قد يُخلفون أثراً جميلاً... أو مؤلماً لكنّهم أيضا سيذهبون، لا تربط حياتك بأحد، كي توفر على ذاتك ألماً عظيماً حين تفقدهم...

استغرق راشد بضع دقائق كي يستعيد وهجه، بعدها اندفع للقاء أمل. وحين التقاها غمغمت بصوت خجول. الأيام الماضية قضيتها

في المستشفى بعد آخر مكالمة بيننا. كان عندي... أهلي ما يوافقون.

بثقة العارف المتغابي سألها عن السبب، ربما لأنّه أراد أن يجرح نفسه، وربما لأنه لم يكن يتوقّع أن تطلب رؤيته لتصدمه بالرفض وقد جهل عوالم المرأة المخبوءة. صمتت، لأنّ ذكر الواقع يجرحها قبل أن يجرحه. يجرحها أن يُجرح منها، يجرحها أن يسمع منها هي تحديداً ما يُدمي قلبه.

أوقف السيارة قرب منزلها واستدار نحوها بكامل جسده. نظر إليها بعمق وتحدٍ:

– لماذا؟

عضّت على شفتها السفلى وأدمعت، فخطّ التواصل الروحي بينهما يخبرها أنه يعرف ما ستقوله، لكنه يريد أن يسمعه منها... يسمع عجزها الذي لا قدرة لها على تخطّيه. همست بانكسار:

– عشان الأصل.

ظلّت نظراته تخترق روحها دون أن يهتزّ:

– تحديداً ماذا قالوا؟

نظراتها تستحلفه أن لا يُرغمها على الحديث أكثر. بلغه المعنى لكنه اكتفى بهزّ رأسه مُحرضاً.

– ما نزوج كذا... مهو من مواخيذنا.

– إيش كذا؟

حمّلت عينيها كل الرّجاءات أن يتوقّف، لكنه رفع أشرعته وأبحر:

– طيب... وانتِ ما هو موقفك؟

قالها وهو يعلم في قرارة نفسه أنه لا يُحمّلها أكثر مما فعلت، وأنه

ذاته لا يقبل أن يتزوّجها دون موافقة أهلها.

أخذت نفساً عميقاً وهو مُصغ بانتباه:

– لا حيلة لي... أهلي لا يوافقون.

اكتفى بهزّ رأسه والتفت إلى الجهة الأخرى وكأنّ أحداً ناداه فجأة... وليس سوى... كرامته، ثم نظر إليها نظرة خاطفة عاتبة، مُتحدّية، ومنحها ظهره:

– انزلي.

شعرت بأنّها لا تُريد أن تفعل. تخاف إن نزلت أن لا تراه مرة أخرى. تتشبث بمقعدها. كرّرها بحسم:

– من فضلك انزلي.

نبرة صوته ترغمها على النزول. تشعرها بأنّها لن تراه مرّة أخرى. وبطهارة خالصة مدّت يداً ترتعش لتلمسه للمرة الأولى. اقتربت من كفّه، قلبها يكاد يتوقف وأنفاسها تكاد تفرُّ منها، شدّت عليها بحرارة تَرجّاه بصوت مكسور غمره نشيجها:

– راشد... خليني معاك.

نفضته حركتها المباغتة، اضطرب واجتاحته حاجة للبكاء، فوضع رأسه على عجلة القيادة صامتاً بينما كفّها لا تزال تقبض على كفّه.

صمتٌ هادر.

رفع رأسه والتفت نحوها. كانت عيناه محمرّتين. رفع كفَّها إلى شفتيه... لثم أطراف أصابعها بحبّ عميق ثم أنزل كفّها وشدّ عليها هامساً:

– أرجوكِ انزلي... أرجوكِ.

شعرت بأنها لا بدّ أن تنزل. احتراماً لرجولته لا بدّ أن تفعل. رفعت كفَّها التي قبّلها ووضعتها على صدرها خشية أن تتلاشى آثار قبلته. سمعت طقّة قفل الباب عن يمينها. فتحه لتسرع بالخروج. وما إن وضعت قدميها على الأرض، حتى انطلق مُسرعاً ليتوارى عن نظرها.

لم يلتفت إلى الخلف حتى وقف أمام منزله. وقف في العراء. محموماً... حرارة جسده تتآزر مع حرارة أنفاسه. حُب... وجرح... وغضب... وضعف... ورائحة رحيل تملأ جوارحه ويرفضها.

نظر إلى الشارع، بقايا خطوات... آثار مرور السيارات، أعمدة... حاول أن يستمدّ من قلبه قوّة وعنفواناً، تنفّس بعمق، غربل الهواء محاولاً فلترة الأغبرة التي علت أُفق روحه، فعجز... لم يبلغه سوى عواء آدميّته وطنين فؤاده.

الجُرح

التهم الوقت حفنة من العمر وراشد يلوك حرمانه بالخيال.

قانع باجترار ذكرياته برجولة شامخة ورغبة تَصلي بلهيبها كلّ مناطق الإحساس لديه. كان يرى محاولاتها العديدة للاتصال به فلا يردّ. استمرار محاولاتها يعذّبه... يُشعره بالضعف، يتخيّلها تائهة تأكل بعضها بعضاً دون أن يُدرك أنّ ابتعاده بحدّ ذاته كان جرحاً، يطعنها به الوقت كلمّا ارتحل ولم يسفر عن صوته يداعب أسماعها.

كان ابتعاده أكبر جرح سدّده إلى روحها التي وثقت به وأمّنته مكاشفتها. سفّه صدق بوحها وجرحها بابتعاده الذي أشعرها بالصدمة. كأن المشاعر بمفردها لا تُطيح الرجال، الشهوة فقط هي التي تودي بهم وتذلّهم.

تمثّلت هواجس غير معافاة خَلقها ابتعاده. توهّمت فيه شأن غيره من الرجال كلّما تأكّد من مشاعر امرأة وعزّ الوصول إليها قذف بها خلف ظهره واستدار مفتّشاً عن أخرى، ليواصل ركضه الأبدي عن اشتهاء جديد وأنثى مُغايرة:

"لا... لا... لا... راشد غير... مستحيل... لو كان كذلك ما

عشقته فواصل عمري... لكن..."

قضمت شفتها بارتياب جزع... وضاع منها الدرب.

مزّق قرطاس روحها الأبيض صدمتها في انسحابه بهدوء، جرحها ابتعاده في الصميم، فلاذت بالصمت. سطوة الشوق تغلبها مرّات فتعاود الاتصال دون أن تجد استجابة، فجعها بعد فترة صوت مغاير:

– فضلاً تأكّد من الرقم الصحيح وشكراً!

كأنّ العالم كلّه منحها ظهره وارتحل، لتقف على حافة هاوية بلا قرار... ثم تهوي، يتضخّم الشعور... الإحساس بأنك تسقط من قمة جبل مرتفع إلى هاوية، الشعور الساكن في اللحظة الهادرة ذاتها وأنت تنشطر في المنتصف قبل لحظة الارتطام، ذلك الشعور الذي لا توجد عبارات في الدنيا لوصف استحالته وقسوته، لتلتهمها مساحات شاسعة من الأراضي الجرداء، وساوس... هواجس... تحليل... غضب... ضعف. كُلّ شيء يهطل على الفكر ويتضخّم لساعات أو أيام ثمّ يتقوّض ليُبنى شكّ آخر، ربما غيَّر رقمه كي يقطع عليها طريق العودة ، ربما ما عادت تعني، ربما ضاق بحكايته معها ويريد أن يبتدأ من جديد، لكنّها لا تُريد... ولا ترى جديداً بدون وجوده، تغرق في دوّامة فكر:

– كيف يحمل الحبّ كلّ هذا الكمّ من الألم ولا تكون فيه حروف علّة؟!!

– وكيف تضوينا اشتعالته؟ ثم بكلمة... مجرد كلمة ممن نُحب يُغتال فينا الضوء والعنفوان ورغبة الحياة ونذبل، كما الوردة التي جافاها المطر وغاب عنها الربيع؟ أيّ سلطان جائر هو الحب... حين

نُفجع فيه تغدو الحياة بلا مرفأ؟

حبست نفسها في غرفتها لا تغادرها وقد أجهدها فقر الدم الشديد والصداع المصحوب بدوار مستمرّ حتى نحل عودها وضمرت خدودها كأنها مُسحت بممحاة.

تتعب من التفكير، لتعود له من جديد. تضيق باللحظات حتى تتمنى أن تفرّ من جلدها. تتمنّى لو يتمّ استبدال دماغها بدماغ آخر، ويضخّ قلبها دماءً جديدة. لم تتعكّر بنقاء راشد، فتتعب من التفكير والإحساس الضاجّ بفقده.

لا تذكر كم مضى من الزمن، أيام أو أسابيع أو حتى أشهر... هي لا تعلم، فقدت إحساسها بالزمن.

وكنوع من العادة التي باتت تفعلها بآليّة عاودت الاتصال، لتعود صحوة الحياة إلى التليفون الذي عذّبها مواته... يرن... يرن... تزغرد عصافير قلبها وترفّ... تثب مشاعرها... تتحفز... يلتقط السماعة...:

– آلو...

هي عودة الروح بالنسبة إليها... تحاول أن تتشرّب نبرة صوته في روحها من جديد وتستعيد بها أمساً أفل... تريد أن تتذوّق نبراته... أن تمزجها بخلاياها:

– راشد!!؟

يُبرّر لنفسه أنه يردّ كي تفهم أنّه خرج من حياتها فتريح نفسها، لكنّ الحقيقة المتوارية أنه الآخر يردّ كي يغتسل ببياض صوتها من مواته، يوارب الحقيقة حتى عن ذاته ويزمع أن يردّ بحسم وجدّية، ولأنّه فاشل كممثّل تنقلب نبرة صوته إلى عصبية... وقسوة:

- اسمعي يا بنت الناس أنا تعبت... أنتِ إلى الآن لم تفهمي، نحن إن لم نتزوّج سنقع في الخطأ... لست مُستعداً أن نكون ممن قال الله عنهم: "الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ" قال: "إِلَّا الْمُتَّقِينَ"، لا أريد عند لقائنا في الزمن الآخر أن يقول أحدنا: "رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ"، ماذا تريدين منّي!... كلاماً على التليفون؟ أنا لا أصلح... أنا إنسان واضح ولا أرتدي أقنعة. تعرفين شيئاً اسمه قطّاعة الورق؟

- ...

- تعرفين شيئاً اسمه قطاعة الورق؟... جاوبي؟

- إيه.

- شيلي راشد من راسك وأرميه فيها... افهمي... نحن نفترق، من فضلك انسي الرقم هذا... لا عاد تتصلين.

- هذا الكلام لي أنا يا راشد!!؟... راشد الله يخليـ...

أغلق الخطّ بسرعة قبل أن ينهار فتكتشف ضعفه. قذف جسده على أقرب كنبة، وهو يمسح على رأسه ويضغط على شفتيه غير مصدّق أنه ارتكب كلّ هذه القسوة مع أغلى الناس عنده.

ظلّت تنظر إلى المحمول برعب صدمة، بينما فتح الباب الخارجي وقذف نفسه في الشارع على غير هدى.

وقف بجوار صخرة تُطلّ على الكورنيش. يده تتلمّس صدره ورقبته، النّصل الجارح الذي أغمده في قلب أمل التف حبلاً سميكاً حول عُنقه...

"مخنوووووق..."

التقط صخرة من حصوات الشاطئ الساج، وقذف بها بعيداً... بعيداً... في الموج المتلاطم:

ما الذي فعلته يا راشد؟ أنتَ ذبحتها... أعرف أنّ ما فعلته... خطأ... وجارح، لكنّه الصواب... حين يأتي مُغلّفاً بالقسوة الخادعة، شأنه شأن أيّامنا حين تفجعنا في أمور نراها شديدة القسوة خارجياً، نراها القدر الجبّار والحظ الشحيح، لكن حين يمضي الزمن ويتكشف لنا ما خلفها... نجده الرحمة ذاتها.

يتململ من ذاته... يُناقضها... يوبّخها... يقاوم جبروت الحبّ الذي تسرطن في شغاف القلب وبات عاجزاً عن وقف زحفه، بقلبه شقّ لا يلتئم وقد بات عصيّاً على المهادنة:

– تُرى... هل ما ارتكبته هو نُبل الشُرفاء حقيقة، أم هو لحظة غباء أضعت فيها توأم الروح... والحب المستحيل، لأصفّ في طابور الواقفين في يباس الدروب؟

تهادى إلى سمعه صوت المؤذّن ينادي لصلاة المغرب بصوت شجيّ. استدار متّجهاً إلى المسجد وهو يطوي الأرض المُعشبة دون أن يرفع رأسه الضاجّ بالأفكار جهة الناس التي ترامت على الشاطئ في تجمّعات يغصّ بها المكان. حين بلغ المسجد مسّته طمأنينة وفرد جذعه وصوت المؤذن ينساب.

– استقيموا... تراصّوا... سدّوا الخلل... سدّوا الخلل بارك الله فيكم.

تقاربت الأقدام وتراصّت الأكتاف وطأطأت الرؤوس، تضاءلت الدنيا وارتفع وجه الله.

الذكرى الدميمة

... "ولفينا ليل."

ولجنا أراضي الواحة القريبة من ديار أهلها أشبه بالمطاردين، في قلبي غصّة هجر الديار وعار أتجرّع مرارته وأتناساه كلّما أشبعت ناظريّ من فتنة يُسرا بعينيها الزرقاوين كبحيرة البجع الأسطورية، وغنجها المُصطنع الذي تكشّف لي أيّ جليد قارس يرقد تحته، لأعود ظامئاً مخذولاً ببرودة تصفعني حدّ الغثيان. أبصق على نفسي، وأضرب رأسي عشرات المرات وأجثو عليه تراب الندم ثم أعود كالكلب الضالّ يجرّ قدميه التي وطأتها "تريلة" عابرة دون رحمة. أعاود المحاولة ويعاودني الغثيان حد التقيؤ، فلا أكفّ عن محاولاتي على أمل أن أروي هذا السُعار الذي يشتعل في أوردتي، ومهما ألح مدائنها لأطفئ جذوته يخمده بوار أراضيها المالحة، ونظرات الاستصغار تُطلّ من نافذة عينيها التي لم تكن تزيدني إلا اشتعالاً وكأنني أنتقم من نفسي ومنها.

بدأ تذمّرها السخيّ منذ اللحظات الأولى. كلّما حاولت أن أغسل ندمي بالصلاة كانت هي لا سواها من يعيّرني بخيانة أخي حتى تمنّيت

مرّات عديدة أن ألوي عنقها بيديّ هاتين لأتطهّر، هل هذا ما بعت أخي وزوجتي من أجله!؟

ظلّت غيومي لا تغادر أحداقي وشوكة عَبْرة تقف في حنجرتي، وبعدما أفقت على ما فعلته بنفسي وأدركت أن لا سبيل إلى العودة، استسلمت لواقعي وقنعت به على مضض. كانت تجلس طوال يومها ببيجامة عارية الكتفين مكشوفة الصدر إلى ما فوق الركبة تعتني بجسدها الأبيض البارد تُدلّكه بالكريمات، ثم تلتفت إلى شعرها المائل إلى الصفار تُشذّب أطرافه وتُسرّحه وتعود إلى ذراعيها وإلى ساقيها وقدميها حتى ظننت أني تزوّجت مانيكان، بنظراتها التي لا يطفح منها سوى البلادة والاحتقار وأنّ لا شيء يملأ عينيها، وكلما انتقدت أحد تصرّفاتها لا تكلّف نفسها حتى عناء الردّ والتعليق، فقط تنظر إليّ باستصغار وتزمّ شفتيها وتثنيهما إلى الأسفل كبصقة تقذفها في وجهي، لا شيء لديها سوى ذاتها، حتى البيت كان أشبه بحاوية الزبالة، وكم بكى أبناؤها جوعاً وهي ملتهية بذاتها فأضطرّ إلى إحضار الطعام من أيّ مطعم.

حين جاء قرار النقل الذي تقدّمت بطلبه إلى الرئاسة العامة للتعليم وكانت هي قد ضيّقت الخناق على حميدان حتى طلّقها كما اتفقنا، صدّقتها حين أخبرتني أن نسكن قريباً من حدود ديار أهلها لكي يغدو سهلاً الذهاب والعودة إليهم، وهذا ما سبق وطلبته مراراً من حميدان ورفض تلبيته لها... الأمر الوحيد الذي رفضه لها. لم أكن أُفكّر أنّ تحت هذا الوجه الملائكي يرقد إبليس في صورة أنثى.

تجتاحه نوبة بكاء حارقة، تضطرّ معها هيلة إلى هزّ رأسها تأثّراً،

طالبة منه أن يكفّ عن سرد حكايته حتى وقت آخر، فيشير إليها بيده بأنّه يرغب في المواصلة، يتناول طرف شماغه ليمسح دموعه ثم يرفع رأسه إلى الأعلى ويضع يديه على رأسه صارخاً بفجيعة:

– يااا صبرك يااا حموووود...

يصمت أشبه بالذاهل ثم يُردف:

– ثمّة كثير من الجنائن المُغتالة على الأتربة السمراء العارية في صدري، فحين أنجبت أوّل أطفالها منّي... إذا كان منّي! يستطرد:

كانت قد طلبت أن تلد في كنف والدتها، وحقّقت لها ما أرادت لتنعم بنفاس عند والدتها لم تذق دفئه مع حميدان، لكنّها حين عادت سرعان ما تعرّت كل أوراقها، فإذا بالنضارة أراضٍ جرداء، وإذا بالفتنة قبح فجّ، حينها أدركت أنّني مبلّل بالوحل وأنّ العشق الظامئ سقط جنيناً قبل اكتمال نموّه.

بتّ أسيرُ في الطرقات ضائع الفكر، تعبرني السيارات فلا يوقظني سوى انطلاق صفاراتها أو طنين سرعتها البالغة. كان هناك دائماً جدار فاصل أستشعره، اشتمّ رائحة رجل أجهله في أنفاسها، أراه في خطواتها البليدة دون أن أُميّز ملامحه، حينها آمنت أنّ الجسد حاجز والروح مرآة.

ومع ذلك كنت أغالط شعوري، فقد تضلّلنا مشاعرنا، حتى كان ذلك المساء الصادق، حين فتحت الباب على مهل إثر حمّى انتابتني وتراخت إثرها حركتي. كانت النوافذ مُغلقة وأشعّة القمر تتسلّل عبر شقوق المكتوب تملأ الغرفة، شممت رائحة رجل فاجر تملأ الهواء، شعور مبهم اعتراني في التجمّد في موضعي فلا أبرحه غير قادر على

الوقوف وغير قادر على المُضيّ إلى داخل غرفة نومي، ثمّ قرّرت المضيّ على أطراف أصابعي التي امّحت وأنا أسمع همهمات تبلغ أسماعي عن قلقه من عودة مفاجأة لي هدهدتها بكلمات جارحة لم أعرف حتى اللحظة ما عنته في أنّها "سطلتني سطلة" حميدان. أجابها بأنّه ليس من مصلحتهما أن تكون نهايتي نهايته ذاتها، فهما محتاجين إلى جهة تمويل أوفّرها لهما دون عناء، ثم خرست اللغة وتعالى صوت تأوّهاتهما وقُبلاتهما فشُلّت حركتي. تداعى طيف حميدان يوجّه نظراته لي كطعنات سكّين حادة: "كما تُدين تدان." اتجهت إلى الغرفة وفي داخلي خوف أقاومه، شيء مجهول يمنعني من المواصلة، تحدّيته وفتحت الباب لأجده يلهث على صدرها بينما تأوهاتها الساخنة تحرق أوردتي، وحين أبصراني انتفضا... وتجمّدت، خسفا يضعان عليهما ثيابهما، وأنا مشلول سادر في امتهاني.

تنهّد تنهيدة مُتقطّعة ثم أكمل:

– غبت عن المنزل أياماً أو أسابيع بعد هذه الحادثة تبتلعني الدروب وتتقيأني... ثمّ عدت مشلولاً، لا أرى، لا أسمع، لا أتكلّم... لم أعد أقربها، ولا أُكلّمها. فقط أقذف إليها كلّ شهر بمصروف المنزل من أجل أبنائي وأبناء أخي... مضى الآن ثلاثة عشر عاماً على هذا الأمر، أحياناً أغرق في حزن شديد وأعزم على تطليقها ثم أتراجع وأفتر وأرى أنّ عقابها أن تظلّ مُعلّقة هكذا إلى أبد الآبدين... وأحياناً أشعر بأنّه ليس عقاباً فهي مرتاحة له ولا يبدو أنّ هناك ما يُنّغص عليها عيشها... لا أعلم لم أعد قادراً على التفكير.

وبين زمن وحزن، بين زمن ومزن يغمر الأرض الخضار، يجتاحني

شعور جارف بالاشتياق إلى العنود وإلى حياتي الماضية، لكنّ جرمي الفادح في حقّ أخي يمنعني من الاستسلام لخواطري تلك فأنبذها وتنبذني شهوراً ثمّ تتسلّل خلسة إلى صدري لتعمره ويعاودني الحنين.

يصمت. يبحث عن منفذ للأمل ثم يلجه مباشرة برجاء حارق:

– ساعديني... أريد غفران العنود وصفحها، أحتاج إلى حنانها ودفء قلبها، لكنّي لا أعلم إذا كانت لا تزال عزباء أو...

تأخذ هيلة نفساً عميقاً:

– إيييه... ألعن أبو الرجاجيل... والنفاثات في العقد.

سفينة النجاة

– لأجل خشوم الرجاجيل يا بو منصور طالبينك طلبة...

قالها بو نايف أحد شيوخ القبيلة حين جمع أبو مطلق نفر غير قليل من المشايخ بعد أن بلغهم أنّ القضاء رفع ملفّ قضية مطلق إلى الجهات العليا وأنهم يخشون أن يُصدّق عليه بينما لا تزال محاولاتهم ضائعة مع بو منصور في التنازل والقبول بالفدية.

نهض يُقبّل فروة رأسه:

– تَكفَى... تنازل.

– العين بالعين والسنّ بالسنّ... وليس لديّ كلام آخر.

بو نايف بغضب:

– ما تعرف أن تَكفَى... تهزّ الرجاجيل، ولا إنت ما إنت منهم؟

ينهض مصلح ثائراً ويغادر المكان.

يُغمض أبو مطلق عينيه ويفتحهما وقد عصفت به مشاعر متباينة من الجزع على مصير ولده من ناحية، والانكسار الذي مزغ اعتداده بنفسه لِما أقدم عليه ولده. تاه في داومة فِكر، والرُعب على مصير

أولاده الباقين يشلّ تفكيره:

– لا بدّ من الجلاء...

هكذا ومضت فكرة الجلاء عن المنطقة في رأسه كسفينة للنجاة. فعادة قبيلته إذا ألمّ بأحد رجالاتها ما ألمّ به أن يترك العشيرة ويرتحل إلى مكان آخر لا يُعرف فيها سرّه ومصابه خشية الثأر وحفاظاً على أرواح عائلته وكرامتها.

وحين عاد إلى بيته، بادر فجيعتها:

– يا امَرأة أنا ما عاد أقدر أرفع رأسي في وجه أحد، أحسّ بنظراتهم كنه بيّاره فائرة مرسومة على وجهي.

– الله أكبر، وما الذي فعله مطلق! صحيح قتل، لكنّه لم يرتكب جريمة تُخلّ بالشرف فتدفعنا إلى الجلاء خزياً وعاراً، ثم إن الناس عشرين، كلهم متعاطفين مع مصابنا!

– يا مَره انتِ عارفه سلوم العشاير، بعدين مصلح يهدد بالثأر.

– النذل الـ

– لا داعي لكل هذا، نَسلَم بحياة أبنائِنا ونجلو بكرامتنا.

– ومطلق! والزيارة؟

عضّ شفته حسرة وقهراً:

– ليس باليد حيلة... أخليكم بالديرة وأرجع أنا أتابع موضوعه وأطمئنكم عليه.

انشقّت آهة فجيعة وعجز عن صدر أمّ مطلق مُفكّرة في بكرها وأوّل فرحتها:

– صبراً جميلاً والله المستعان.

ومع بواكير فجر اليوم التالي مضوا في العتمة ذات الزرقة الداكنة، يحملون همّاً وقلقاً هل هناك من عودة أخرى؟ وهل العودة ستكون في رحاب بيت كامل العدد أم سينقص أحدهم؟ زفرت نافثة ما في صدرها، والطريق يمتد أمامها بلا نهايات.

انحرف بو منصور داخل أحد الأزقة وأوقف سيارته أمام أحد المنازل حيث يقطن بو نايف. طرق الجرس حتى إذا فتح الباب وخرج بو نايف همس له بوجهته وأوصاه على متابعة المحاولة مع مصلح والوصول معه إلى ما يُرضي جميع الأطراف.

صافحة بحرارة ومضى عائداً إلى سيارته حيث تنهّدات أم مطلق وصمت أبنائه الذين يَحفّهم الخوف من المجهول وفقد حبيب طالت غيبته.

وقبل أن ينضب فتيل الصبر من قلب مطلق، صافحته ملامح الشيخ بو نايف في موعد الزيارة التي كان يُفترض أن تكون عائلته توقد دفئها.

بادر بو نايف بسرد المستجدّات الأخيرة من جلاء العائلة وأسباب جلائها، ثم زفّ له خبر قبول مصلح بالعفو أخيراً، شرط أن تكون الديَّة ستة ملايين وأنّ والده سيعرج على الرياض في طريق عودته إلى مقابلة ولاة الأمر الذين لهم مواقف مشهودة في هذا الشأن ستساعد كثيراً في إيفاء جزء من الدّين، وأنه بدوره بادر بجمع التبرّعات ووضع بلاغاً في الصحف للمساعدة.

بين اليأس والرجاء، التمسّك بالأمل والخوف من انطفاء جذوته تضاربت مشاعره. قذف يأسه في أحضان صلاة خاشعة بلّلت

دموعها بساطَ السجن فانطلقت نوارس ناصعة وعانق نوراً أضاء روحه وأغمض عينيه لاستشراق القادم!

فيما نسجت هيلة أحزان حمود لتحمل همّه على عاتقها وكأنها مسؤولة عن خلاصه. تُفرط في التفكير وهي ترشف قهوتها وحيدة في مجلسها بينما ألم قارس يضرب في إصبع قدمها الكبير للقدم اليسرى ويمتدّ إلى الساق، فتعضّ شفتها متجاهلة ألمه.

غصة مرّة تعبر حنجرتها وهي تسترجع تفاصيل الألم الممضّ الذي عاشته العنود واستذوقت نكهة وجعه معها حتى كاد يُصيبها العطب وأن تُسقط جنينها الذي غاب حمود دون أن يُدرك بهاء مقدمه. كانت فرحتها به أكثر من العنود الملقاة شبه حيّة وشبه ميتة لمدة عامين.

وحين أكل الإجهاد الفكريّ منها كلّ حيويّتها نهضت نحو مطبخها وقد عزمت على الذهاب إلى العنود، ولأنّ العنود وفواز يعشقان سمبوسة هيلة المميزة، التي تخبزها ببرّ الجنوب وتُكثر فيها من الكراث والبصل واللحم والفلفل الأسود بنكهته الخالصة التميّز، لذا أخرجت موادّها وبدأت بإعداد خلطتها، حتى إذا انتهت وفاحت رائحة السمبوسة النفاذة، صفّتها في قدر وألقت عباءتها على رأسها وامتطت الطريق وفكرها يهدر بأفكار شتى.

وحين التقى قلقها بصمود العنود بادرتها العنود:

– في ملامحك اليوم ما ينبئ عن حدث طارئ يفور من قسماتك رغم الرائحة الشهيّة التي تتسلّل من قدرك.

غادرها البلل كما غادر صدرها سرب الحمامات التي تفترشه على الدوام، واحتدام ضاج يتخبّط ضميرها وهي التي لا تعرف سوى التوجه إلى هدفها مباشرة دون لفّ أو دوران. غمغمت من بين أسنانها لمعرفتها بمدى وقع كلامها على العنود:

– سكب فجيعته في نفسه... في الغربة، وعاد يبحث عن وطن يستجير به، وأنتِ بالنسبة إليه هذا الوطن، عاد...

قاطعتها العنود بريبة وجلة:

– ... حمود!؟

– لا أنتظر منك أن "تُغطرفي" بعودته، فأنا أكثر الناس علماً بعمق جرحك، وقد جاء مُحمَّلاً بحزنه وخيبته والطمع في صفحك، قد لا يكون جرحك قابلاً للاندمال، لكنّي واثقة بأنّك ستجدينه الآن كما تشتهين.

طفقت تُسرّ لها بما فاض انكساره، حتى إذا سكبت سيرته وانتهت، مسحت العنود كفّيها المُسبلة إحداهما على الأخرى بهدوء وبقناعة فاقعة ابتلعت ريقها الذي ارتبك رحيقه:

– تظنّين صدمتي في حمود فقط لأنه تزوّج سواي، صدمتي فيه أكبر بكثير من نزوة أمات قلبي باجترار عذابها. صدمتي فيه أنّه خان أخاه أكبر من جرح وجّهه لي، لأنّ من يخون أخاه لا عهد له ولا يؤتمن على شيء، وقد هان عليه الدم الذي يسري في أوردته. من أحبّت العنود لا يمكن أن يخون أخاه حتى وإن خانها ذاتها، خيانته لي طعن في أنوثتي واعتزازي بنفسي، لكنّ خيانته لأخيه طعنة في اختياري مما يجعل الجرح يتّسع كلّما امتدّ الزمن.

تلتهم العنود قضمات من سمبوسة التقطتها تُنهي بها الحديث بصمت تشاركها فيه هيلة بينما تعبر غصة حنجرتها فتتوقف عن الأكل وتجهش بحرقة.

وحين شارف الليل على الانتصاف لملمت هيلة عباءتها وعمدت إلى هتك أستار العتمة. لمحت لهفة حمود تبادرها عند بابها، وكعادتها دون أن تُبهرج ألفاظها اجتاحته حدَّتها:

– أغسل يدك من العنود... نزل الستار خلاص.

اجتاح الغيم الداكن صدره ووقفت غصة في حنجرته:

– لم أعد أمتلك سوى الغربة، ألا مجال للصفح وكلّ بني آدم خطّاء وهي لم تتزوّج...

قاطعته:

– ليس من أجل سواد عينيك لم تتزوج... بل لغاية في نفس يعقوب.

– فوّاز ولدي... صح؟

بصقت على أعتاب هيبته المكسورة:

– أاااا... لعنبوا هذا الشارب... ألن تغدو رجلاً أبداً؟

وزّع بصره في كلّ الاتجاهات تائهاً مُعبّأً الصدر بالمرارات. مدّ ضوءَ عينيه نحو الأفق باحثاً عن وهج في عتمته الداجة:

– لا أفكّر في أخذه منها، فقط أحتاج إلى دفئهم.

– أنتَ لا تملك أن تأخذه منها، وليس أمامك من سبيل إليهما سواها، واصل طرق أبوابها الموصدة فقد تفتح الباب لك يوماً.

انسلّ في الشارع الضّيق دون اتجاه، وصوت هيلة يبلغه مُشفقاً:

– بابي غير موصد في وجهك... لكني أحبّ الرجلَ... رجلاً.
عبر كظلّ متهدّم يجرّ خطواته وعذابه المزمن والتحف الخلاء.

دُمى الساحر

احترقت أسابيع، واندثرت شهور.

ومع انبلاجة الفجر انعتق جعفر من ضيق السجن، بعد تَدخّلات من عارف مُكثّفة واستقتال من النقيب خالد أذهل السيد حبيب الذي لا يكاد يعرفه. خرج ليتوه في السجن الأكبر، وبريق حادّ غامض يضوي في بؤبؤي عينيه.

لم تألف روحه ولا جسده أجواء السجن، لكنّه رأى فيه انعتاقاً من الحياة الواقعية ومبرراً لفعل اللامبالاة وعدم الاكتراث بما حوله. تلوثّت الروح حين قُدّ قميصه من دُبر وقُذف به في السجن، لتتحوّل جراحاته ولياليه المُكتظّة بالتوجّس إلى ندوب غائرة لا تلتئم بالحديث وإن لامس العقل والصواب.

انطفأت شموع صباه وجمع صُبحه أشلاءه وارتحل. اقتعد غرفته لا يبرحها إلا لماماً، فلا يردّ على أيّ اتصال هاتفي، يلمح رسائل راشد التي تأتيه عبر جهاز الموبايل فيكتفي بقراءتها.

تحوّل إلى كائنٍ ليلي، ينام طوال النهار ليصحو مع مغيب الشمس أو بعده فيبقى مصاحباً لليل. لا يعلم والده ماذا يفعل طوال ليله في

غرفته، لكن قلبه كان يعتصر عليه بصمت، شاعراً بمرارة التجربة التي عصرته فتركه ليستعيد توازنه لبعض الوقت، لولا أنّ هذا الوقت طال وبات يتصيّد لقاءه للحديث معه فلا يجد منه سوى ذبول وملل، أو نائماً ولا يشعر برغبة في الصحو.

مضت به الأيام بطيئة وإن كانت سريعة دون أن يُدرك أنه مضى على خروجه شهر لم يبرح خلاله غرفته و لم يسمح لأحد برؤيته حتى رفيق العمر.

ومع التباشير الأولى لهطول الرطوبة، انتشرت نسائم البحر الأزرق، وفاضت رائحة السمك حتى باتت نكهة الزفر عنواناً لكلّ من يسكن قريباً منه، وكلّما تأوه البحر بلين فاضت رائحته الزاعقة.

انطلقت حرارة العصر الضاغطة في تهاد، حين انطلق جعفر إلى شاطئ الكورنيش للمرة الأولى منذ خروجه من السجن، مُبهم الأفق مذبذب الروح، وقد انسكب البشر بوجوه فاترة وأرواح مترهّلة بالسأم نحو زرقة الماء، فارّين من الحرارة وصمت النسمات، ودبغ الرطوبة عالق بجلودهم وقد مدّ كل منهم بسطته أو افترش عشب الكورنيش ووضع ما يحمله من ترامس شاي وقهوة ومشويّات مُبَهَّرة ينوي شواءها. وتوزّعت بعض النسوة في أماكن متفرّقة لبيع ما يُبهج الأطفال من حلويات وبسكويت وشوكولاته وألعاب بسيطة ومشروبات غازية.

لمح راشد رفيقه من بعيد مُصادفة. فأوقف سيارته وهبط، وعندما لمحه جعفر حاول أن يُغيّر مكانه وكأنّه لم يره، بيد أنّ راشد لمح حركة

هروبه فناداه و لم يجد بُدّاً من التوقّف. صافحه باحثاً في ملامحه عن دفء صاحب افتقده ليجد نظرات زائغه وحاجزاً يستشعر وجوده بينهما ولا يراه، فقذف بسؤاله دون مواربة:

– لماذا تتهرب منّي؟

جالت عينا جعفر في الفضاء الرطيب، وبحزن صادق أجاب:

– أنا لا أتهرّب منك بل من نفسي. رؤيتك تواجهني بذاتي الأخرى التي أفرّ منها، قربك يُضعفني، يَكسر همّتي... يعيدني إلى البراءة المُختالة والوراء الذي لن يعود.

– كل هذا لأنك سُجنت؟

– سُجنت ظُلماً... ففهمت... وكبرت، ورأيت الدنيا بمنظار آخر، رأيت الفرق بيني وبينك. تخيّل فقط لو أنّك من كنت مع تلك العاهرة، هل كان الضابط عامر سيفعل معك ما فعله معي حين استضعفني واحتقرني؟

– كُفّ عن تفسير كلّ ما يحدث لك على أنه تعامل مع مذهبك، الضابط عامر تعامل معك بسوء لأنه سيّئ، وكان سيكون معي بالموقف ذاته لأنّه لا تهمّه إنسانيتي قدر اهتمامه بغرائزه، ولو كان من حولك يتعامل معك على أساس تحيّز مذهبيّ فماذا عن عارف الذي لا يكاد يعرفك.

– مُجاملة لك؟

– وماذا عن النقيب خالد الذي لا يعرفني البتّة؟

– ربما وسائط عارف هي من دفعته إلى ذلك.

– كان رائعاً معك منذ اللحظة الأولى وهو لا يعرف عارف، إلى

هذا الحد بتّ لا ترى سوى القبح! تخاصمت مع قوس قزح و لم تعد تَرى سوى السواد!؟

– لم أرَ سواه، لم يكن عامر هو الوحيد... هل نسيت صلاح ورفقته؟

– ليسوا سوى مجموعة حشّاشين، ومع ذلك... لماذا نسيت مايكل؟

– هذ استثناء، ثم كفّ عن محاولة تطبيب جراحي وكأنك دكتور نفساني، أو كأني فاكهة أيامك!

– ما الذي حدث لك! ألا ترى أنّ عذابنا مُشترك، مصدره واحد، الجهل... المجتمع المُدجّن بمفاهيم مغلوطة، أنت تمقت التطرّف بمفهومه الواسع وتمارسه الآن، تتعاطى مع مبرّراته وتنتصر لها أمّا أنا فأمارس قناعتي في مقته وعدم الذوبان فيه، ردود أفعالنا هي التي تختلف فقط.

– إذا كنت لا أُعجبك الآن فأنا حصيلة تدمير إنساني ونتيجة له. الإنسان المُغترب... المنفي... الذي ما إن يبدأ في التعاطي مع العالم حوله طفلاً بريئاً حتى ينسحب لروحه شعور غامض بالدونية والفقد لا يفهمه، لا يدرك من أين يأتي، وما مصدره، ليكتشّف حين يتبلور هذا الوعي بأنّه فقدان الإحساس بالانتماء لما حوله، ليشتعل إخفاقاً روحياً مُبكراً في التناغم مع المحيط، والذي لم يأتِ من فراغ بل ما غرسه هذا المحيط فيه... هناك ثقافة بنائية تنامت مع أنفاسنا وأوصلتنا لما نحن فيه، فالعقل الجمعي يمارَس عليه الاضطهاد من تلك الثقافة.

يسحب نفساً عميقاً ويتنهّد بأسى:

حين كنت في السجن سُفكت إنسانيتي حد انتهاك الآدمية، وحين كان إنساني يغصّ ببكائه أختنقُ صراخه في صدري وأتوسّد صمتي كي يظل رأسي مرفوعاً صوب الشمس فلا ينحني. نحن نتاج تجاربنا، فلا تأت الآن وتُحدّثني عن الجمال الإنساني والحرية والعدل، كنت أبحث عنهم في ظلمات سجني فلا أجدهم. وقد سألت نفسي مراراً حتى تقيّأت سؤالي: هل من شمعة تشتعل فتضيء الدرب؟ هذا الإقصاء الممتدّ عبر الزمن، الإرث الذي نتناقله جيلاً تلو جيل من أيام الحسين وإلى قيام الساعة.

يلتقط راشد حبل الحديث بثقة وتفاؤل:

– بالطبع هناك شمعة... هناك أنت وأنا وعارف ووالدك والنقيب خالد وكثيرون، فقط ابحث عن الجمال لتراه. كُفّ عن استنهاض التاريخ، انتهت معركة الحسين وانتهت كربلاء. دعنا نستخلص من هذا التاريخ المعاني الإنسانية العظيمة، وننطلق إلى عالم أكثر رحابة نُطلّ منها على الحرّية واحترام الإنسان. فقط وَلِّ وجهك شطر أمّتنا الإسلامية من مائها إلى مائها لتبصر عمق الشتات، أرجوك... لنكن فوق الجرح الطائفي بأثر رجعي، تَطلّع معي إلى المستقبل، العالم كلّه يتجه إلى الأمام ونحن نعيش في قمقم، يقتل بعضنا بعضاً أشبه بالمرضى النفسيّين الذين لا شفاء لمرضهم العضال، دون أن نُبصر أنّنا بتنا دُمى يُحرّكها الساحر. لنتطلّع إلى غد حُر، نُرسي من خلاله ثقافة التسامح ونُكرم من خلاله الإنسان ولا شيء غير الإنسان.

يصفّق جعفر بسخرية لاذعة صعقت مُحدّثه:

– أعتقد أنّ هذا دوري لأخذ الميكروفون، تعلم أنّ أكثر ما كرهت

في علم الأحياء مذ كنت طالباً الرخويات، وتعلم أنّني إذا أقلعت، أُقلع ضدّ الريح ولا أبالي بضبابية الأفق، فدع عنك هذه الكليشيهات واخرج من فردوسك، التفت إلى معالجة مشاكلك أجدى لك. ألا ترى وضعك كيف هو، ثمّ تغرق في عشق امرأة من أكثر القبائل أصالة! لم يفعل والدك بك خيراً حين نمّى فيك تفكير الأمريكان هذا، لا أزال أذكره جيداً وكيف كان مُتأمركاً، حتى طريقة مشيه إذا سار كانت أشبه بعازفي "الراب" في الستينيات، كان والدك حالماً منفتحاً على مفاهيم الغرب وأساء بغرسها فيك وهو يُدرك في أيّ مجتمع أنت!

جمد راشد من حدة كلماته، لكنه وكعادته رد بتحدٍّ وهدوء:

- وما به وضعي؟!

صمت جعفر و لم يجد لديه ما يقوله، فأعاد راشد سؤاله بإلحاح جريح، لكنه لزم الصمت ثم انسحب انسحاب من لم يعد قادراً على التصالح مع أيّ شيء في الكون حتى نفسه!

مضى راشد عائداً إلى البيت يفوح بالوجع العميق والكبرياء الذبيحة. فقط... في لحظة كهذه ومن شخص بهذا القرب، للمرة الأولى يشعر بالطعنة، وبأنّ له وضعاً مغايراً لم يستشعره إلا حين صفعه به جعفر فأراق دماء تحضّره واحترامه لآدميته، لحظتها فقط... استشعر اغترابه!

وما إن فتح باب المنزل وهو يزرع ثقته بما يؤمن به من جديد في قلبه، ذلك القلب الذي لم يشعر يوماً بنقيضة يفرضها لون بشرة، بل ربما نسي لونه مراراً لأنه لا يمثل له معنى وهو يستشعر البياض في كل خفقة في صدره، إذ لم ينشأ في بيت يربّي فيه شعور الضآلة والانكسار للون اختاره الله له قيمته وذائقته، بل نمى وسط عقليّة الريّس التي آمنت

بالإنسانية بمعناها الأكثر عمقاً، وبيئة اجتماعية رحبة الصدر، قد تُميّز بين الأبيض والأسود بالقدر الذي يفصل لكن لا يخدش ولا يجرح. ربما لالتصاقها بالبحر الذي جعلها عفوية وبها الكثير من سماحة الماء وسلاسته وربما لطيب معشر ساكنيها.

لمح أمّه تجلس مُنشرحة الخاطر في صالة المنزل وهي تحتضن الدلوعة تُمشطها ثم ترشقها بعطر زكي الرائحة.

هتف مبتهجاً:

– عادت...!

– عادت متّسخة "جربانة" فعاجلت بتنظيفها وغسلها بالشامبو، وبعد أن نشفت من البلل ها أنا أمشّط شعرها.

التقطها من حضن والدته واحتضنها:

– الدلوعة زعلانة مني؟

تمسّحت في صدره بانكسار وكأنها تلوذ به:

– مياو مياو...

ردّت أمّه باندفاع:

– قل لها مياو مياو لا تزعل... يعني أنتَ بعد تُحبها...!

نظر إليها بدهشة، فعاجلته:

– عبد الرحمن قال...

بدلال وانكسار تموء القطة:

– مياو... مياو...

ردّدا معاً:

– مياو مياو...

جبروت أنثى

اكتشف حمود أنّنا حين نطعن الآخرين، نوجّه الخنجر ذاته إلى قلوبنا في اللحظة ذاتها. كان هذا شأنه حين لمحها في المرة الثانية بعد أن جاهد على اقتناص هذه الرؤية وتصيّدها، لكنه حين أبصرها تنهب الطريق بخطواتها العجلى بحثاً عن وجه فتى عذّبها اللهاث خلفه. تحرّك الخنجر في قلبه ونزّ دماً. الخنجر ذاته الذي باغتها يوماً وسدّده إلى قلبها، دون أن يعي أنّه سيستدير بمرور الزمن إلى صدره ويستقرّ فيه.

– ما الذي أتى بك بعد كلّ هذه السنين؟

– حين قرأت في الجريدة أنّ حميدان مات... عُدت.

– قُتل و لم يمت. وبسلامتك أتيت تتأكّد من موته، ولا عشان تاخذ إرثك؟

– لا تكوني قاسية.

– تعلمتها منك. حميدان انقتل من ستة عشر عاماً وليس الآن أم أنك لا تعرف!

أطرق خجلاً:

– يسرا خانتني.

- في مثل هذا الموقف، من يخون لا بدّ من أن يشرب من الكأس ذاتها... وإلا فلا يوجد عدل في الدنيا.
- بعد كلّ هذه السنين صدّقيني لست أنتِ الجريحة، أنا الجريح!

صمتت طويلاً. شعرت بأنّه في مساء مذاقه مثل هذه اللحظة، ولونه في روحها مثل لون هذه اللحظة التي تراه فيها، ينكص الزمن ستة عشر عاماً إلى الوراء... كسر فيها كبرياءها ومرّغ أنوثتها في الطين أمام أنثى أخرى، ركضه الفاضح خلفها رفع هامتها وأشعرها أمام القاصي والداني بأنّها الأفضل لا لشيء، سوى أنها تمتهن ضحك الغواني وغنجهن، ذلك الذي لم تتعلمه العنود في المدرسة التي لم تنسَ يوماً أنه انتزعها منها، طالبة متفوقة في السّنة الأخيرة من المرحلة الثانوية!

انقاد حاضرها لحنطة السنين، حين تبعته دون أن يراها بعد أن بلغتها ثرثرة "النسوان" عنه. اختفت خلف أشجار الأثل التي يحتمي خلفها منزل حميدان:

الشهوة الحارقة تُطلّ من نبضاته قبل عينيه، وغنج يسرا يحرث منه العصب والنخاع وهي توارب الباب ويُطلّ وجهها بعد أن علمت من خلفه:

- حميدان يأتي في المساء... بس سمّعنا صوتك.

تنبت في جوفه ألف بئر ظامئة، يزيدها الغنج اشتعالاً:

- صوتي وكلّ ما أملك رهن إشارة منك.

اندلقت ضحكة أنثوية صارخة في عروقه كما المطر الحاني:

- الحكي ما يودي ولا يجيب.

- مهو حكي... قولي بس... أقول لك تحت رجليكِ.

فتحت الباب على مصراعيه، فصرعه لباسها الشفاف:

- كيف تحت رجلي؟

كاد قلبه يتوقّف من جبروت الأنوثة حين اندلق كأسها دفعة واحدة. التقط يديها وغمرهما بوابل من القُبل الساخنة، وهي تشدّهما في تمنّع ثم ترخيهما وتعود إلى جذبهما في حركة تشدّه إلى صدرها ثم تبعده وقد أذابت ثلوج التمنّع:

- لا يجوز ما تفعل يا حمود... أنا زوجة خيِّك.

- تَطلَّقي.

- هذا خيِّك!

- إنتِ أخوي... وأمي وأبوي... ارحميني.

- أنتَ تجاوزت الحدود... حميدان طيب.

- بس ضعيف، وعلى نيّاته.

- كيف سنواجهه؟

- بالواقع... بالصدمة.

قلب العنود الذي تورّم في تلك اللحظة، غادرته رائحة الحبق التي تدلّت من غصونه سنين اليفاعة والبراءة لتهبها مفاتيح الرماد والعتمة. فقط لملمت عباءتها لاهثة مهرولة إلى بيتها لا ترى الطريق أمامها وخطواتها تستفزّ الرمال على التطاير من سرعتها وما ترامى إلى سمعها يضجّ في فكرها ليحرق كلّ منافذ الهواء، حتى أذا بلغت دارها نزعت عباءتها وبرقعها وسقطت على الجدار ممدّدة الساقين،

عيناها جاحظتان على السقف، وصدرها يعلو وينخفض في تواتر سريع ترفع معه يديها إلى أعلى ثيابها تشقّ ما على صدرها قهراً وحرقة، ثم صرخت صرخة هادرة :

– لاااااا... يُمممممه.

أغمضت عينيها وفتحتهما ساحبة نفساً عميقاً من صدرها. ورغم عمق الجرح الذي نكأه بحضوره، إلاّ أنها ردّت بهدوء وقد بات شأنه لا يعنيها:

– لا تظنّني شامتة فيك ولا مُتشفّيه، منذ زمن ماتت الحرقة وطوت الأيام حسرة قلبي... وغفرت، ولا تتوهم أني لم أتزوج كلّ هذه السنين من أجل سواد عينيك. لا أزال أنتظرك... لا يا عيوني، من يفعل ما فعلت مع امرأة مثلي، بنت عمّه التي منذ وعت الدنيا وهو يهذي بحبها، الحب "ينطنط" من عيونه ساعة يراها، ترك منزل أهله ليل نهار وأقام في بيت عمّه ليكون قربها، لكنّ الشرهة ليست عليك، الشرهة على "المَره" التي تُصدق أن واحداً فيكم يعرف يحب ويصون! كلّكم الحب لا يتعدى سراويلكم. وليتها نظيفة!

استطردت ساخرة:

– يا حبيبي لا تتوهّم أنّ لك هذا الشرف والتأثير، لستَ كُفوءاً أنّ تسد قلبي عن الدنيا... كلّ ما هنالك أني لم أُرد أن يتربى ولدي عند غريب لا أعلم كيف سيعامله. قد أغفر زواجك بأخرى، فرغم مرارة ذلك وقسوته إلاّ أنّ الزواج من ثانية ليس جريمة ويظلُ شرع الله... لكنّ ما ارتكبته في حق أخيك أنا نفسي لا أستطيع غفرانه... ذنب حميدان عارك وفي رقبتك إلى يوم الدين.

استدارت وتركته... حملت رياح الليل صوته وهو يترجّاها محاولاً القبض على أيّ شيء من أمسه الذي ركله باختياره:

– لن يعوّضني عن الحليف الذي لديك شيء... وأنا مُقرّ بذنبي فاصفحي.

جفلت... خشيت أنّه يُشير إلى فواز وإن كانت لا تملك حق منعه:

– وما الحليف الذي عندي لا يعوضك عنه ما ركضت خلفه وفضحتنا؟

– الطيبة التي تُغني عن كل شيء عندك.

فرقعة ضحكتها في الهواء بسخرية مريرة، فعاود استعطافها وقد غابت عن ناظريه ولا يعلم هل كلماته بلغتها أم أضاعتها الرياح:

– قولي لولدي إني رجعت... أريدُ حضن ولدي.

دلفت إلى منزلها بصمت مُطبق وهي تشعر بقوه وكأنها أخذت ثأرها من طعنة علاها الصديد حتى هي ذاتها نسيتها لتلتئم على قيئها. انتقمت لأنوثتها التي وطأها وداس عليها قبل ستة عشر عاماً، أصمّت قلبها عن نداء الحياة ودَجّنت عواطفها، شعرت بأنها أكثر ثقه وتفاؤلاً بالغد... رنّت عبارته الأخيرة في ضميرها فالتهمها الصمت والتفكير في الواجب والصواب...

راحت تتأمّل فواز الذي طالما قرأ في ملامحها حكاية موجعة لم تتم، سمع نُتفها من همهمات الناس و لم تتفوّه بها رغم محاولاته العديدة لنبشها، هتك الآخرون سرّهم الذي خالوا السنين قد طوته، وكان وقوداً شائقاً لأيام خمدت جمرات أحداثها:

– أبوك رجع.

التمعت نظراته التي استطال مقتها أكثر من قامته، أضمر حقده، وكظم غلّه الذي فار متمتماً:

– الله لا يحييه، لا أريد أن أرى وجهه.

– من حقّه أن يراك.

– من حقي أن أرفضه.

ابتلعها الصمت وابتلعه الضجيج!

* * *

السماء ملبّدة بالغيم المكتظ بالرحمة.

عبر راشد الكورنيش وزفرت الغيمات لحظة خالدة تأبّدت في أوردته فتورّم قلبه. الممرات ذاتها... الشعور ذاته... النسمات ذاتها... العزف السماوي ذاته، حتى رائحة عطرها خبّأها الغيم للحظة كهذه، سكبها دفعة واحدة حين انهمرت ذكرى اللقاء فغنّيتهما وسط غيمة حانية، ربما كانت أيضاً الغيمة ذاتها التي أوقف سيارته تحت رذاذها فهطل عبير لحظة خلت. شعور غامض كشعاع يعتصر قلبه مستحضراً حضورها الروحي في أعماقه فيجتاحه حنين خُرافي إلى حضورها المادّي.

همس دون وعي:

– أمل...

كلّ ذرّة فيه اللحظة تتنفّس أمل، تناديها، تتوق إلى وهج عينيها... صوتها... ضحكتها، حضورها بكامل تجسّده... يعتصره الحنين.

تتخبّطه الأفكار التي تتجاذبه إلى كل الضفاف، يشتاق... يحنّ... يكابر... يضعف... يراوغ قلبه عقله:

– صوتها... فقط صوتها... أسمع صوتها وأغلق الخط.

هكذا تكبر الفكرة في رأسه، يخاف مما يستتبعها، يخشى أن تعلم أنّه هو فيكون هو من عاد. يتراجع، يقبر فكرته، فيقفز شوقه ويعجز عن إيقاف مدّه. يلمح أحد الزملاء من سائقي الليموزين يوصل إحدى العائلات إلى الكورنيش، تطرأ له فكرة بشكل سريع، يُشير إليه، وحين اقترب مُحيّياً استأذنه في استخدام جواله لثوانٍ، فقدّمه له بنفس راضية.

الهاتف يرن... يرن... يرن... لا توجد إجابة. شعر بقبضة في صدره وهمّ بإعادة الموبايل لولا أنّه رنّ فجأة، ها هي تُعيد الاتصال. قفز قلبه بين أضلعه، فقد القدرة على التركيز. اضطربت يداه وتشوّشت أفكاره حتى أوشك الموبايل على السقوط وأوشك الرنين أن ينقطع. تلقّى المكالمة صامتاً وأنفاسه تتابع بتواتر سريع.

صوت أمل ينساب عبر الأسلاك ذابلاً:

– ألو... ألو...

يتذوّق صوتها، يكاد يرسم ملامحها في روحه، تمنى لو يؤبد النبرة في وجدانه فلا تغيب، بدى صوتها كما لو كانت تبكي. عاودت الرد بعصبية:

– ألو... ألو...

أغلقت الخط... فانطفأ ضوء في قلبه. حذف رقمها من "مكالمات صادرة"، وأعاد الموبايل إلى رفيقه شاكراً متّجهاً إلى سيارته.

حدّث نفسه: "صوتها حزين! تعبان! ما بها؟! ما بها؟ كأنها تبكي."

اجتاحه القلق. شعر بالضعف، بالرغبة في الاطمئنان عليها... همّ بالاتصال من هاتفه، أدار الأرقام والأفكار تتخطبه وتتصارع في أعماقه، ارتفعت مقدمة حاجبه الأيمن وومضت عيناه بأ لم استفسار مُلحّ ثم أطفأ الجهاز بعصبية كي لا تنهار مقاومته وانطلق بسيارته.

بينما مسحت دموعاً، فقد انزلقت على خدها. امتزجت الكبرياء بذكريات حُفرت في أخاديد الروح وأبت مغادرتها، تستذوق في نسمات الكون الذائقة ذاتها لنكهة غيمة شهدت بوح عاشقين، وعصف بمشاعرهما هجير الواقع:

ياالله يا راشد... ألهذا القدر من القسوة أنت! ألم تشتَق؟! ألم تحن؟! يا لقلبك، جَبّار... جَبّار!

ليتني أسمع صوتك... فقط صوتك...

الشّوق يتحايل على الذات فيبتكر الحلول البديهية السريعة، تنظر إلى التليفون الأرضي، هو لا يعرف رقمه، لا مانع أن تتصل تسمع صوته ثم تغلق ولن يعرف أنها هي... تدير الرقم... يبلغها الرنين، كما تبلغها ضربات قلبها واحتباس أنفاسها وكأنّ قلبها يوشك على الخرس، يلتقط الخطّ الذي رنّ مع بداية فتحه للموبايل.

يندلق صوته في روحها:

— ألو... ألو...

وحين لا يأتيه ردّ يصمت للحظات، يشعر بأنها هي... يتمنّى لو تتكلم فتُريحه وتريح نفسها، يعاود النداء بنبرة رجاء ضعيفة:

– ألو... ألو...

تُقبّل السماعة بأطراف شفتيها ثم تعاود وضعها على أذنها، يتضخّم إحساسه بأنها أمل وكي لا يتسرّب لها حتى إحساسه بأنه يدرك أنها هي يغلق الخط ومشاعره تتضارب بين فرحة الأمل في أن تكون هي وبين الوجع كونها تعاني لوعة البعد كما يعاني هو.

ركن إلى نافذة غرفته المُطلّة على الحديقة بحثاً عن هواء والوقت ينساب في أوردته حزيناً شجياً.

لمح الدلوعة وقد تمدّدت على الأرض بدلال أنثى، وقطّاً شوارعياً بديناً علته الأوساخ يقترب منها، واثق الخطوة يمشي ملكاً كما لو كان ملك الغابة في شموخه وقد ارتفع غناء نداءاته في مواء رخيم. نهضت بدلال وجرت في حوش المنزل فلحق بها.

فتح راشد عينيه ذاهلاً:

– هذا!! أعجبك هذا... الصعلوك!!؟

طاب له أن يتأمّل المشهد أمامه، واستحال الشجن إلى طراوة اكتشاف هجدت معها أوجاع الروح وحبس أنفاسه مصغياً لنغمات اللوحة الحيّة.

تمدّدت الدلوعة على الأرض وتقلّبت، وحين شارف "الصعلوك" على بلوغها ضربته بيدها في رفض حاسم لتجاوزه حدوده. وقف للحظات وكأنه يفكر، رفع أنفه، قرّبه من أنفها، وفعلت مثله. استنشق كلّ منهما أنفاس الآخر، ليتحوّل الاستنشاق بعد ثوان إلى قبلات خفيفة، وكأنّ القُبلة غيّبت وعيها لثوانٍ فاستعادت ذاتها وضربته بمواء مشروخ.

يثأر لكرامته. يتعاركان. يتقلّبان بمواء حادّ. يعضّ رقبتها فتلزم الخدر ثوانٍ ثم تنطلق بعيداً وتستلقي على الأرض وهي تتقلّب في إغراء فاضح بينما يقترب بخطواته الواثقة كضابط درك في حذر ليأخذ جولة دائرية حولها. يقترب منها، يلحس بلسانه رقبتها وكأنه يُطمئن جزعها، فتستكين.

يهمس راشد بدهشة: "حتى القطط تختار وتتشبّث باختيارها حتى لو اعتراه صدود... ليس أي واحد... وليست أي واحدة، استلطاف... مداعبات... أوووه، يا لظلامنا... ليتنا قططا!"

واكتمل القمر

تناوب شبه الغريمان على زيارة امرأة مليئة بالغيم والزعفران، إذ صادف بو مطلق حمود خارجاً من زيارة هيلة دون أن يرفع أحدهما بصره عن الأرض. هيلة المسكونة بحكايا الحيّ والمعجونة بالطهر رغم بذاءة لسانها وحدّته، أسقطها المرض من عليائها. طرق بو مطلق الباب المولج ودخل حين بلغه صوتها رخيماً متعباً، رغم تمسكها بعوالمها الشديدة الخصوصية:

– اقلط... اقلط.

صافحه اصفرار وجهها وقد طرحها المرض في أحد المستشفيات الحكومية التي تعاني من التكدس والروتين، وكما تغصّ بأوجاع المرضى تغصّ بالبلادة، وهدر الوقت يبقى سيرورة تخصّها بامتياز.

شأنه المُلحّ أعمى بصيرته عن النظر في ما آل إليه وضعها خلف سريرها الأبيض، لم يدقّق في حوافّ السرير التي التصقت به ليدرك أنّ هيلة ما عادت كما دخلت، وأنّ السُكّر ما عاد حلواً كما عهده، بل تحوّل لاذعاً مُرّاً في ساق هيلة حتى تسبب في بترها خشية امتداه إلى باقي الأطراف.

شاخ فجأة وانحنى ظهره دون مقدمات، حيَّاها وجلس في هدوء. اعتصر الحزن قلبها حين أدركت ما أَلَمَّ به وزلزله. وبهدوء اليائس الذي يلعب في الوقت الضائع رمى حصاته الأخيرة وورقته الأخيرة:

– يقولون حمود رِجع... وأنتِ لكِ خاطر عنده، داخلٍ عليك بالله تكلمينه، فربما يتمكّن من إقناع مَصلح يتنازل عن باقي المبلَغ. باقي يومان على القصاص ومصلح معنِّد إلا ست ملايين.

شرب عينيه بياض الذهول وغمغم:

– باقي مليون... من وين!؟

وأطرق صامتاً. شعر بعبثية وجوده، خصوصاً والمرأة في وضعها الصحّي المُتردي. نظر إليها بعيون تائهة وهو يعتذر عن إزعاجها:

– ما لك إلا العافية... من رخصتك.

قتلتها نظرة الانكسار الموْجع في عينيه فارتعبت، وأوقدت شمعة حين خرج يجر قدميه كما يجر همَّه الكبير.

ظلت ترمق اختفاءه ، ثم انحرف بصرها إلى النافذة الزجاجية على اليمين، لمحت احمرار الشمس يُشير إلى زوالها ليغرق الكون في الغروب، الشمس تغيب... والزمن يتسرّب. رفعت كفّها اليمنى مادّة يدها جهة قرص الشمس لتغطيته كي لا ترى الغياب... كي توقف الغياب... فضوت صفحة وجهها، لتكتحل العصافير ويكتمل القمر.

امرأة الحلوى

"مُولع بقبيلية..."

فقط انسكبت هذه العبارة في أذن منيرة وهي تُقدم صينيّة الحلوى إلى أُم راشد التي أسرَّت بعبارتها تلك إلى صديقة العمر أم محمد، وحمَّلت أهدابها هجس بذور تمنٍّ في امرأة الحلوى. لكن العبارة السابقة كانت كافية لتتهشم أضلاع الحلم في صدر منيرة فهرعت راكضة إلى غرفتها. لم تتأنّى لتعرف أية تفاصيل قد يُسرّبها الهواء لها بين الصديقتين الحميمتين.

"كنت رافضة حين أخبرني أنها أرملة، لكن حين علمت أنّها قبيلية أشفقت عليه، فرفضي لن يغيّر شيئاً، لو طاول النجم بأياديه لن يطالها..."

هكذا الملمت أم راشد جزعها على وحيدها وهي تُسرّ لأم محمد بما ضجّت به أيامها السابقة مع ابنها الذي تراه يعارك وجعه بصمت وكبرياء ولا تعرف كيف تطبب ألمه سوى باجترار أشواك الصبر والبحث عن بديل فيمن حولها.

بينما انهارت منيرة على سريرها الذي أخذت تضربه بقبضة كفّها

وقد افترشت صدرها بئر لم تطأها شمس. هجرتها طيور الأمل فاندسّت في أغطيتها لتنام لأيّام دون غناء يوقد ألق الروح.

وحين عادت تساير دورة الأيام، خبّأت قلبها في ابتسامتها الذابلة التي احتضنت بها زميلات الفصل اللاتي عانقنها بعد غياب طال، لتحطّ أشرعة سفائنها المُبحرة صوب الكتمان على شطآن أمل التي أذابت حرارة قلقها الصادق على طالبتها جليد الصمت.

عبرتا ساحة المدرسة وعبرت معهما ملامح الممثلة الأسترالية نيكول كيدمان في فيلم الجبل البارد cold mountain، وهي تتراجع مرعوبة حين أطلت في البئر العميق المليء بالجنّ، وطفت على مرآة مائه العكرة صورة حبيبها الغائب يعبر الطريق عائداً من الحرب ثم يتهاوى بين يديها عند احتضانها، فتتقافز غربان الشؤم السوداء من البئر في وجهها منبئة عن غدها القادم القاتم.

ترصد نشمية من بعيد خطواتهما بنيران غيرة أعمت نهارها وأشعلت فتيلاً مطفأً غابا عن الانتباه له ومنيرة تُفرغ بحرقة أنين انكسارها وتحطم أحلامها في ابن الجيران الذي اكتشفت بالصدفة عشقه لأخرى دون أن تعرف من تكون، فبدّدت أمل سطوة وجعها بأن الغيب شأن الله وحده فقد لا يتزوج هذه الحبيبة، وقد يتزوجها وتتزوج هي، أي منيرة، شخصاً آخر ثم ينتهي بالاثنين المطاف إلى إكمال الحياة معاً رغماً عن تخبّطات الحظّ ونزولاً على القدر المُخبّأ لهما، فالأحلام شأننا... والقدر شأن الله.

وحين أذاب حنوّ أمل جليد كتمانها استكانت أمواجها، وقد جهلت أنها تُسرّ إلى غريمتها وجهلت غريمتها أنّها تهدهد شريكة

حلمها، فاستفاض بياض واستطال نشيد نبيل لاذت بطُهره أمل، وحيدة إلا من قلب تورم صدقه... وبقي وحيداً... وحيداً.

وفي منعطف الزقاق المؤدي لبيت العنود، ترصّد حمود تحركات فواز فأوقفه. داهمه بندم الوقت الثقيل واشتياق العمر النابض حرقة:

أعترف بأنّي مُثقل بعاري، وأنني لستُ الأب الذي تستطيل قامتك برنين اسمه، وأعترف بأنّ ظهوري قد يجلب لك الخزي أمام أقرانك، كما أعترف بأن من خان أخاه خان والديه واستهان بهما وأضاع إرثه الحقيقي، ومن هان عليه عمر والديه وفرّط في أخيه فإنه يُفرط في كنزه الذي لا يعدله كنز، لكنّي ورغم ذلك أظلّ والدك، وقد ندمت كثيراً وبكيت كثيراً ولا شيء في الكون يستحق التأبيد. وكما ترى، عمري الآن في أفول وتراجع، هبني حفنة من العمر أقضيه قربك... تُضيء روحي وعتمة أيامي... بدل أن تضرسني الوحدة والخواء، ويعصرني القفر حد عتمة القبر.

بلا مبالاة وملامح محايدة تآخت مع وحشة الليل وكآبة عزفه أجاب:

– لا داعي لهذه المحاضرة المملة، أنا ما يشرّفني شخص خان أخاه يكون أبوي، الديرة كلّها إلى الآن تنخر جلساتها الثقيلة بتداول حكايتك، اسمع... إذا كنت تبغاني احترمك شوي، أحرص أنه ما أحد يعرف أن أبوي اللي خان أخوه رجع... خَلّك ماضٍ وولى، ارجع للي بعت أخوك وأمي عشانها.

– ... خانتني.

– ولكم في الحياة قصاص... وهذا قصاصك وعدل الله، من وعيت حكايتك تبرّأت من هالعايلة، كسرت العيلة بعارك.

– يا ولدي زهوة الشباب وطيشه...إن الله غفور رحيم.

– لا تقول ولدي... قلت لك إنه ما يشرفني واحد مثلك يكون ابوي، ماني قادر أصدق إنك حقيقة من حَي العشائر!!؟ حَي كلّه عيوب يمكن... متخلّف يمكن، لكنّهم أهل مروءة وشهامة وناس تخاف الله وتحسب له ألف حساب! ودي أعرف بس وش الدم اللي يسري في عروقك؟ عصير... بيبسي... انتَ ما عندك نخوَ...

وقطع كلمته حين رأى حمود ينتحب حتى اهتز جسده. تلفت يميناً وشمالاً خشية أن يشي صمت الليل بما يجري بينهما وتتناقله الألسن، وقد حان وقت انسكاب رفقته لإغفاءتهم وتسرّبهم إلى منازل لا يطأونها إلاّ ساعات النوم. فلحق بغده وهو يستحلف والداً لا يعترف بأبوته:

– روح... لا تعفّر سمعتي بعارك...لا تفشلني قدّام ربعي.

اختفى في العتم، واستضاء حين رأى أمّه تتلقط الدرب قلقاً عليه. قبّل رأسها وطواها في صدره وهما يوصدان الباب خلفهما.

وجل الترائب

لكل منّا لقطة أخيرة، فهل هذه هي؟

كم ضاقت الأرض بما رحبت، والجنديّ المكلّف باقتياد مطلق يقف على رأسه المُبحر في الحياة التي تأخذنا بغتة إلى فخاخها، فتكون قرابينها السائرة صاغرة إلى حتفنا. مُنكبّاً على الأرض في صلاة رحمة قبل القصاص الذي يتربّص به. للمرة الأولى يستشعر بأنّه لم يعش وأنّ حياته عبرت كومضة خاطفة، ولا يزال التوق محموماً للحياة :

– اللهم قني عذاب النار، اللهم تقبّلني قبول حسن... اللهم آنس وحشتي في الغربة القادمة، اللهم... الله...

كفّ ضميره عن الدعاء. ضيّع معاني المفردات وبلاغة الماء كما ضيّع دربه. رفع رأسه يتلو الشهادتين بقلب فارغ إلاّ من أمنية قارصة في الانبعاث. تجمد في موضعه كما التمثال بينما الجندي المُكلّف بأخذه إلى ساحة القصاص لزم الصمت احتراماً للحظات الباقية. وحين طالت جلسته، وضع الجندي يده على كتفه مُشفقاً.

لم يُحرّك ساكناً، كما لو أُطلقت عليه تعويذة ساحر. توقّف الزمن وغابت عيناه في شرود لا نهايات له وقد ارتبكت الكيمياء. انحنى

الجندي وشدّه برفق يستحثّه على النهوض. اندفع عطيّة باكياً يحتضنه وسط ذهول مطلق واستلابه نحو قدره الذي سُحب إليه عنوة.

بلغته أصوات رفقاء السجن تتقاطر على سمعه وترتدّ كأنّ سمعه أصابه العطب أو كأنّه ليس المعنيّ بها. ارتفعت أيديهم ملوّحة، وتعالت هتافاتهم:

– لا إله إلا الله... لا إله إلا الله.

– تَشّهد.

– كلّ نفسٍ ذائقة الموت.

جالت حدقتاه في كلّ الاتجاهات مرعوباً من تخيّل الاحتضان المُعتم للترائب حيث لا تمرّ الشمس. انزلقت نظراته التائهة إلى اليمين حيث يطلّ المساجين من عنابرهم، ثمّ إلى الأمام حيث ذؤابات الأفق، ثمّ إلى اليسار وعنابر أخرى ارتفعت خلالها أيادي مساجين آخرين مودّعة، وقد انتُهكت سريرته، والصمت يَهذي بهمهمات تزيد توتّره الطاحن.

"سأمر بك على الضابط المناوب كما طُلب مني" قال الجندي. حين دخلا سارع بفكّ القيود عنه ووقف بعيداً. شاهد الضابط الذي أحبّه كولده، وعن يساره رأى والده الذي هبّ واقفاً وهرع لاحتضانه. تشمّم رائحته ثم فرك شفتيه في خدوده، في جبينه، في كتفيه، كأنّه يمتصّ كلّ خليّة من خلاياه قبل أن تغيب ويغيّبه العالم السرمدي، حتى شاركه البكاء كلّ من في المكتب الحزين. السّلوك العبثي والهيئة المطحونة بشكل خرافيّ يفوق أيّ عبارات جعلت روح مُطلق تعاود الاتصال والالتصاق بجسده الأثيري وعاد له إحساسه بما

حوله فضمّ والده بقوة وشاركه الوالد حرارة الاحتضان.

أعاد الجنديّ القيد ليديه وخرج به. تبعهما الضابط ووالده مُحنيّ القامة خاشع البصر. ظلّ مُطرقاً إلى الأرض، نافذته إلى العبور بعد ساعات حين يوغل في الحوار مع رماد العظام فيشتعل الظلام.

حين أبصر السيارة التي قدمت لتقلّه أشبه بسيارة الإسعاف، ارتعد قلبه وعلا نحيب إنسانه. اجتاحه الحنين إلى ملاجئه ضدّ البشاعة القادمة: حضن أمّه بوجهها الطّيب السمح ورائحتها الدافئة، حنان أختيه الفائض ونزقه معهما.

طوت السيارة الطريق نحو ساحة القصاص فنظر إلى الغيم في كبد سماء تخاتله الشمس، وتنساب في روحه رائحة رغيف بالزعتر كان يشتمّها في صباحات الطفولة المندثرة من مخبز لبنانيّ قرب بيتهم. ملأت رائحة الزعتر الساخن ومذاقه صدره... اشتهاه بشغف فانحدر دمعه شاعراً بأنّ الوقت انتهى على ارتكاب متعة كهذه وأنّ لا حقيقة أكبر من اللحظة الآنية التي تغوص بأسياخها في دماء زمنه.

ابتلع ريقه وغاص في الزرقة الغائمة كما قلبه، وقد تناءت أسراب العصافير الحانية عن أفقه. يراوده الزمن المُشتهى، فهبّت رائحة زيت أمّه وقد أغرقت كريات اللقيمات والسمبوسة قبل لحظات من مدفع الإفطار في رمضان. رائحة اللقيمات والسمبوسة تملأ روحه... لكن الوقت أزف وما عاد هناك متّسع لتعاطي متعة بريئة كهذه وقد أزفت ساعة المغيب المرتقبة، تعلو ملامحه امتعاضة جريحة تشبه شيئاً ما في داخله!

كرنفال المتفرّجين المغيّبين بلا أفيون يمتد على طول رصيف حي

"المُدان" غير آبهين بالجمر المُتّقد القادم من أشعة شمس ظهيرة الجمعة. الازدحام على أشدّه وكأنّها صلاة العيد لولا تهاطل رجال الشرطة بأعداد وافرة وسيارة إسعاف بينما المشهد يموج بالصخب والضوضاء، وشهيّة الحياة التي تطفح من أحداق المتجمهرين بشهوة الاكتشاف، والفضول، والثرثرة، والترقب.

عصفت ريح عاتية بوعيه والسيارة تقف أمام حشد من البشر الذين تم محاصرة تدفّقهم بوضع سياج خشبي صلب يُمنعون من تجاوزه. انكسر ضوء إنسانيته وتباعد، أصغى إلى صوته الداخلي فبلغه نحيبه واضطربت عوالمه، والضابط يفكّ قيده ليعيد وضعه مباشرة في اتجاه عكسي، قيّد يديه إلى الخلف وطلب منه النزول.

اقتاده شرطيان إلى زاوية فُرشت عليها سجادة صغيرة زرقاء كلون أوردته. تلفّت في كل الجهات عن عيون وادعة تحتضن فجيعته فلم يرَ سوى الحدقات المتطفّلة، وأخرى ارتفعت بجوّالات الكاميرا لتصوير جزّ رقبته. لحظتها اكتشف أنّ عيون الآخرين هي الجحيم الحقيقي، وأنّ الأمان في الانعتاق من لهيبها. انهارت قدماه وعجزتا عن الوصول إلى الزرقة التي تفترش الأرض. سحبه الضابطان برفق حتى أوصلاه إلى السجاد، ووضع أحدهما يده على ظهره ليحنيه.

انضم ضابطان آخران وضع أحدهما غطاءً أسود غطّى به عينيه، بينما انهار أبو مطلق على الأرض في صلاة خاشعة ودموعه تبلّل التراب، وصوت جهوريّ يرتفع عبر مكبّرات الصوت من إحدى سيارات الشرطة:

"قال الله تعالى: "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ

فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ".

(أقدم/ مطلق فهاد المرضي من قبيلة "فخر" على قتل أحد أفراد قبيلة "صخر" وذلك بطلق رصاص أودى بحياته دون أسباب بيّنة. وبفضل من الله تم التوصّل للجريمة التي حاول التنصّل منها وتضليل العدالة وأسفر التحقيق معه عن توجيه الاتهام إليه بارتكاب جريمته.

وبإحالته الى المحكمة الشرعية العامة صدر بحقّه صك شرعي يقضي بثبوت ما نُسب اليه شرعاً... ونظراً لعظم جنايته وإقدامه على سفك دم روح بريئة أوجب الله عدم قتلها إلا بالحق، ونظراً لسوء سلوكه وخطره على باقي الناس لذا فقد تمّ الحكم عليه بالقتل تعزيراً.

وصُدِّق الحكم من محكمة التمييز ومن مجلس القضاء الأعلى بهيئته الدائمة وصدر الأمر السامي رقم ٤٥٩٩ / م. ب. بتاريخ ١٨/ ٢/ ١٤٢٦ هـ بإنفاذ ما تقرّر شرعاً بحقّ الجاني المذكور).

تباعد الضّباط خلف ظهره بينما اقترب السيّاف من المشهد. وبشفافية الروح التي تعالت في لحظة كهذه أبصر روحه طفلاً لا يتجاوز العاشرة تعبر كأنّها طيف بثوب ناصع البياض وطاقية، ووجهاً كفلقة الصبح مُحلّقاً بين السماء والأرض.

صرخ السيّاف وهو يرفع يده ليهوي بسيفه على عنقه، في اللحظة ذاتها التي التمع فلاش أحد المصوّرين لالتقاط صورة القاتل في آخر لحظة ليزيّن بها انطفاء جريدته وهو يفكّر في "مانشيت" داوي: تشهد.

تخلّت عنه أكثر مخابئه حميمية وترجّل جسده عن شموخه وداهم روحه شيء غريب لم يع أنّه قدره.

عادن يد السيّاف بكلّ قوة بجذعه إلى الخلف وقبل أن تهوي على رقبة مطلق ارتفع صوت عبر مكبرات الصوت:

– عَفَى عنه... وققفف... عَفَى عنه.

توقّفت يد السيّاف. ارتدّت وسط تصفير الجماهير وتصفيقهم وهتافاتهم:

– الله أكبر... الله أكبر...

تصفير الجماهير يتعالى ويتسابق الضباط نحو مطلق الذي غاب وعيه ولم تبلغه الأصوات إلاّ كالحلم، بينما شاركه هذا التغييب والده الذي رفع رأسه على الصخب الذي لم يستوعبه ليجد هيلة بعباءتها تجلس على كرسيّ متحرك مواجهة له، وخلفها حمود في موضع قلّ تواجد النساء فيه، حتى إذا التقت نظراتهما رفعت برقعها بابتسامة ودموع تجول في حدقتيها:

– قويت يا الرجّال.

"عفى عنه"... تتردّد في سماء حيّ المُدان وتبلغ سمع بو مطلق فيشلّه الذهول. قفز من موضعه واندفع جهة مطلق، سار بضع خطوات راكضاً ثم عاد إلى هيلة لتقبيل رأسها وقبل أن يفعل اندفع جهة مطلق، ركض بفرح لا يسع قلبه ثم عاد خطوات ينظر إلى هيلة يهمّ بتقبيل رأسها لكنه عاد مندفعاً بكل قوته إلى مطلق. بعثرته تلك وتمزّقه في مشاعره جعلت هيلة تبكي بحرقة لم تفعلها قبل لحظة كهذه.

اندفع من باب السّياج أمام الشرطي الواقف، "ولدي" قالها

للشرطي فسمح له بالدخول، بينما رفع أحدهم العصابة السوداء عن عيني مطلق الذي نظر إلى الأمم المتجمهرة دون وعي. خُيّل إليه أنه انتقل إلى العالم الآخر حتى لمح رجلاً أشيب يحتضنه في كلّ الجهات:

– عفى عنك يا ولدي... أنت حر... عفى عنك.

لحظتها شعر حمود بضآلة معاناته أمام لحظة بحجم ما يرآه. تضاءل وجعه وتعملقت هيلة القابعة في مقعدها في ضميره، سحبته من أفكاره:

– سر بِن.

مضى يجرّ مقعدها، وانثالت ذاكرته حين أتاه صوتها لاذعاً منذ الوهلة الأولى التي فتح جهازه المحمول عصر غادرها قبل يومين:

– ألعن أبو "هالخشّه"، رفعت سُكّري بإغلاق جوالك، أترك الدشره وتعال اللحين.

وأغلقت الجوال في وجهه، فاحتزم غربته ميمّماً خطواته صوب فراشها الأبيض، وما إن لفحها حزن نظراته حتى لسعته حدة لسانها:

– إيه... وش سويت بعد ما "كشحتك" العنود وتبرأ منك فواز؟

أوغل في انكساره وفاضت حمرة عينيه التي ما إن رفعهما عن الأرض لتبحر في المدى الضبابي، حتى استكانت على غيمة تنامت في أحداق هيلة وهي تستفز همّته:

– ما زال هناك متّسع للنهوض من كبوتك، اخلع سترة الهزيمة واغدُ رجلاً، لقد جاءتك الفرصة مهرولة لترمّم سواد ماضيك...

انسحب من ذكرياته وهيلة تستند على ذراعه ومقعد السيارة يفتح يديه لاحتضانها. اقتعد حمود المقعد الأمامي وقد استطال

عشبه وعبرت بهما السيارة رصيف حيّ المُدان الذي اشتعل بالدهشة وفاضت طرقاته بالأسئلة.

ترك سترة الماضي خلفه وانزاحت قتامة الدرب، فتح النافذة وغابت عيناه في الأفق، حين ترك هيلة بعد حديثها، مُحلّقاً على متن الطائرة إلى الشمال لهدف في ضميره، قضى خلالها ساعات في بيته وعاد في اليوم ذاته مع رفيق صاحبه رحلة العودة، واتجها مباشرة عند وصولهما إلى بو منصور.

مدّ خطوات واثقة وهو يقف أمام مصلح الذي غاب ذهنه للحظات وهو يتفرّس ملامح حمود لتمتعض قسماته ويتنحنح باحتقار وهو يدير وجهه عنه:

– ولك وجه ترجع! سَوّدت وجوهنا.

قاطعه بثبات:

– وجهك لا يحتاج لسواد فعلتي، فهو كذلك بقبح أفعالك.

أسند صحوته إلى الشمس وجابت بحيراته أمواج تحدٍّ عاصفة:

– لم تكتف بالخمسة ملايين، وأصررت على الستّة حتى لو فقد الفتى رأسه، ونسيت أنّها ليست من حقك وأنّك لست وريثه الشرعي.

– ستأكل لحمة حيّاً وميتاً؟؟

– هذا هو الشرع ولا شأن للشرع بحكاياتنا.

انتاب الذعر بو منصور وكأنما أصابه مسّ من الجنّ يتخبّطه، جابت عيناه هواجس صارخة وقد باتت الشتات يراود حلمه، وها هو حمود يلوح بضياع أحلامه التي انتظرها وخطّط لها طويلاً:

– تُريد أن تشاركني أليس كذلك؟

- ليست ملكك ولا ملكي.

استدار نحو الباب الموارب ونظر إلى المتواري على عتباته ملوحاً له بيده للدخول. كأن الزمن عاد إلى الوراء، كأنّ بوابة الأمس فتحت دواليبها فأطلّ حميدان في زهوة شبابه، حميدان قبل ارتطام الأماني وضياع العمر.

نهض بو منصور صعقاً ذاهلاً:

- حميدان!!؟

- هذا وافي... ولد حميدان، أم إنك نسيت أنّ له ولداً وبنتاً، غيّبتهما ذاكرتك العمياء... وزوّرت في الأوراق الرسمية موتهما كما زوّرت موتي.

انكمش بو منصور على ذاته وتكوّر، شاخ فجأة وأطرق، بينما صدره يعلو وينخفض في غضب.

رفع رأسه:

- ظننتك وأختك ميّتين، وليتكما كنتما، أضعتما حلم العمر الذي لن يتكرر... أمّا أنت فلم أكن أتصوّر أنك ستمتلك الجرأة على العودة بعد فضيحتك مع زوجة أخيك التي ألبستنا العار.

سكب على حرقة غضبة ماءً دافقاً ولاذ بصمت طويل ثم بث سمّه:

- هل تعرف أنه خان والدك وكان سبب عذابه؟

صمت الفتى وعيناه تتّقدان بذكاء حليم:

- خانه حيّاً وبَرّ بنا، وأنت خنته حيّاً وميتاً.

كست تعابير حانية ملامح حمود وباعتزاز بابن أخيه لثم زاوية جبينه وهو يستعجله في المُضيّ:

- هيّا يا ولدي علينا الإسراع لإنقاذ الفتى... هيّا.

استدارا خارجين، وشدّ بو منصور مقته إلى العالم أجمع فسارع خلفهما وهو يبحث في التراب حتى وجد صخرة صغيرة التقطها وقذف بها ظهر حمود، ثم انحنى مرّة أخرى لالتقاط حصوات أُخر وكرّر فعلته ولعابه يسيل وشتائمه تتعالى.

جدران وحيدة

منذ أن خرج جعفر من السجن ونظرات والده مشتّتة، خبت حماسته للحياة وانكسرت همّته حين أوغلت فيه الأيام جراحها. كان يرى في صفعات القدر صناعة للرجال، و لم يتوقّع أن تُدير صفعة القدر لوحيده عقله وأفكاره حد الثورة والتمرّد، واستحالت الصفعة إلى صدره، أسرّ بها إلى قلبه الأخضر والشارع الطويل الذي بات يجوبه في مساءاته وحيداً إلا من هَمٍّ يتأبَطه.

هذا الشارع الذي لا يبدو من ملامحه سوى جدران البيوت المتهالكة والأماكن المُبهمة رغم تعبيريّتها، تلك التي تلوّنت سماءاتها بدم مسفوك في الجوار، تشرّبته الأرض ذات عمر وبقى لونه يصبغ التراب.

الروائح المُغبرة، الوجوه التائهة والباحثة عن مرفأ، الباعة الموزّعون على نواصي الطرقات، القطط السائبة الضالّة، والشجن الذي خالط الأدمات وامتزج بأنفاسها وتسرّب من شقوق الزمن لا يكفّ عن النحيب.

تحلّى بالصبر أسابيع عدة، ثم نفد صبره والشهور تتتالى. بجزع

محروق طوّح قلقه. سوف يودعك عقلك إذا لم تخرج وتنبذ عزلتك. هذا حزن مجّاني. اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، إن الله إذا أحبّ عبداً ابتلاه، تعوّذ من الشيطان لا يضحك عليك.

لزم جعفر الصمت دون أن يرفع نظراته عن ركبتيه التي احتضنهما، وبصوت باتت ترتفع حدّته استطرد. "اش بيك صافن!؟" تآخيت مع السوداوية وانزويت وحيداً في هذه الجدران الباردة، حتى زواج زهرة لم تقف فيه كأخ بل ضيف هنأ وارتحل ونسيت أنّك أخوها الوحيد!؟

بثقة المعبّأ بمعتقدات جديدة وقد خبت نيران انتماءاته لمن حوله، وباتت عبأً يعوقه عن أهدافه المستجدة:

- لم تعد تعنيني هذه المجاملات.

- هذه ليست مجاملات، هذه أختك! وعلى فرض أنّ هذه مجاملات. هل عملك الذي لم تباشره منذ أن خرجت أيضاً مجاملات؟

لم يظهر جعفر أيّ احترام ورمقه بنظرة مقت، (لبساطته ومسالمته)، أصابت قلب والده الذي لم تفقده السنّ بعد قدرته على التقاط ما حوله بشعور واع. ألقى على ولده نظرة مؤثّرة، وانكفأ يبكي خذلانه فيه.

لان قلبهُ حين دهمته رؤية والده بهذا الانكسار. أوشك أن يُطيب خاطره ثم تراجع ثم عاد وقبّل رأسه:

- يجب أن تعرف أنّ زمن الانحناءات ولّى إلى غير رجعة. الأرض ليست ملكاً لفئة دون أخرى، انقضى زمن الذل وطأطأة الرؤوس والرضى بواقع الحال، ومع ذلك سأفعل ما تُريد إذا كان هذا يُريحك.

- يُريحني أن أطمئنّ عليك. أن تعود كما عهدتك صلباً مُحبّاً للحياة والأحياء والعمل... أما القهر الذي تتحدث عنه، فهو في القلوب التي

تهوى إشعال الفتن ولها أهدافها التي لا تخفاك. نفتخر بأنّنا شيعة ونتمسّك بعروبتنا، فقلوب الشيعة الحقيقيين لا تعرف سوى الصفاء والمحبّة، الشيعة التاريخ، الشيعة الثقافة والروحانية، الشيعة الجمال والإنسانية، تذكّر هذه العبارة جيداً وترفّع عن الأحقاد.

– هذا وعد الله، أم نسيت الآية الكريمة "وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ".

– هي على رأسي، لكنّ الله لا يضع حرفاً في كتابه إلاّ وله سرّه وقدره الذي لا علاقة له بتقلّبات أهوائنا وتجاربنا الشخصية، وإذا كان عقلك فسّرها بما تهواه ذاتك الآن فتذكّر عليّاً رضي الله عنه حين رأى طلحة مُلقىً في وادٍ بعد الحرب التي كانوا فيها خُصماء، نزل فمسح التراب عن وجهه وقال: "عزيز عليّ أبا محمد أن أراك مجندلاً، إلى الله أشكو عجزي"، وترحّم عليه، ثم قال: "ليتني متّ قبل هذا بعشرين سنة." وكان يقول: "إني لأرجو أن أكون وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ".

تذكّر أنّ عثمان تزوّج رقيّة وأم كلثوم ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليّ رضي الله عنه سمّى ثلاثةً من أبنائه أبا بكر وعمر وعثمان، وزوّج ابنتيه فاطمة وأم كلثوم لعمر ابن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين، والحسن بن عليّ سمى أولاده أبا بكر وعمر وطلحة، والحسين سمى ولده عمر، وجعفر بن موسى الكاظم رضي الله عنه سمى ابنته عائشة، دائماً اذكر قول الله: "وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ".

لتحوم قرب غرفة المدرّسات لرؤية أمل وترصد خطوات منيرة، فإذا مضى الوقت دون أن تذهب استكانت أمواجها وتركت لغصون الاشتياق تعبر روحها في سلام، مُمنّية النّفس بالصفح وحظوة الوقوف معها كما السابق. فإذا لمحت منيرة تقف مع أمل اشتعلت حرائق قلبها. تتعمّد المرور حولهما لتلتقط نتفاً من أحاديثهما دون أن تلتفت.

كسرها الشوق وتآكلتها الغيرة، فمنذ ذلك اليوم الذي صرّحت فيه برغبتها في الزواج بها بعد الثانوية فأغضبتها، استدارت أمل بلا عودة، باتت تعاملها بحيادية في الفصل متجاهلة مشاعرها كعقاب لها أو هكذا توهمّت، فإذا حاولت أن تتبعها بعد الحصّة رفعت أمل كفّها لها إشارة الرفض.

غرقت في التفكير في كيفية إعادتها، هي لا تريد أكثر من التحدث معها، وحين حاولت قبل أيام اللحاق بها، طعنتها أمل بحدّة كسرت أشرعتها المُتشبّثة بأمل استعادتها:

– أبلة مشتاقة مووت.

التفتت نحوها وهي تَجزُ على أسنانها كاتمة انفعالات عجزت نشمية عن فهمها:

– اصحي من هذا المرض، هذا شذوذ.

وبثقة من يتوهّم النضج والمعرفة أجابت:

– أنا فاهمة قصدك، لكني والله لا أتجاوز في تفكيري حدّ الرغبة في أن أكون بجوارك، يخفق قلبي برؤيتك وتُضيء الدنيا بنور حضورك... أنا فاهمة ما ترمين له بالشذوذ لستُ صغيرة.

– هناك أيضا الشذوذ العاطفي، ولا أريد لك أن تنزلقي فيه.

– إش معنى أبلة الكيمياء ما قالت لسميرة اللي في ثانية علمي مثلك، كل يوم يلتقون في المختبر و لم تقل لها شيئاً.

– ولا كلمة زيادة، التطاول على أيّ معلمة خط أحمر.

– طيّب، إذن لا تُحدثي منيرة إذا طلبت محادثتك.

– أنتِ التي لا تكلميني مرة أخرى.

"أنتِ التي لا تكلميني مرة أخرى"، تتكرّر في ضميرها فتشعر بأنّها نهاية الحياة. تغرق في التفكير في ما الذي يمكن أن تقوله منيرة، وما الذي قالته لها واستطاعت إمالتها و لم تستطع هي! تعجز من التفكير فتركن إلى المظهر الخارجي تقارن بينها وبين منيرة، منيرة سمراء ذات جاذبية طاغية حقاً لكنها أجمل منها بمقاييس الجمال المُتعارف عليها... إذن ما السرّ؟ انزوت، واعتكفت في الفصل، حتى وقت الفسحة. تظلّ واقفة أمام الباب ترقب الأحداث مُترصدة خطوات منيرة التي تسير مع الزميلات في وادٍ آخر بعيدة عن عوالمها.

إذا غابت منيرة عن أنظارها وعادت بعد الفسحة مسحت عينيها ملامحها، إذا استضاءت توهمت أنها حتماً كانت مع أمل، وإذا لم تستشرف في موانئها سوى اليباس توهمت أنها لم تنفرد بها في ذلك اليوم.

حطّت رحال أفكارها على استعطاف قلب أمل لإعادتها برسالة تكتبها لها بدمها. ستجز إصبعها، وبدمه المُراق ستكتب رسالتها، لعل لغة الدم توصل ما انقطع.

تناولت قلماً وكراسة ناما على وجه طاولة ترقد قرب سريرها

وشرعت في الكتابة ودموعها تنزلق على الورق، تتركها حتى تجفّ وتعاود الكتابة بدمها، لتكون الورقة الموعودة بالدمع... والدم، والتي ستلامس أنامل أمل وأنفاسها فتختلط الأنفاس رغماً عن أنظار منيرة التي لم تكن في الحسبان.

وحين انتهت التقطت مظروفاً من أحد الأدراج ثم سحبت منديلاً أغرقته بالعطر ودسّته فيه. حين اطمأنت من اختيارها للكلمات التي استلهمتها من بعض القصائد، عاودت قراءة الرسالة ثم دسّتها في المظروف ووضعتها في حقيبتها وهي تنتظر فرصة مواتية في الغد لوضعها في حقيبة أمل.

وضعت رأسها على الوسادة وعقلها يستعيد الكلمات التي خالت أنها قادرة على التأثير فيها ودفعها إلى التراجع عن هجرها.

* * *

كان راشد يشرب الشاي، حين توهم للحظة خاطفة أنّ الأرض تهتزّ أسفله، وأنّ زلزالاً يوشك على الحدوث، حين تحوّل المشهد أمامه إلى حزمة ديناميت وإحدى القنوات الفضائية تبث في نشرتها الإخبارية خبراً عاجلاً عن تفجير هائل لمرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام. تُفَّصل المذيعة الخبر أنه في هذا اليوم الأربعاء الموافق ٢٢-٢-٢٠٠٦ ميلادي تم تفجير مرقد الإمامين الشريفين.

تنتقل الكاميرا إلى موقع الحدث حيث يظهر التفجير الذي لحق بالمراقد وجماهير غفيرة باكية غاضبة تتمسّح بالمرقد وتهدد بالثأر،

بينما يعبر في الشريط الإخباري في الأسفل (يُعلن المرجع الأعلى الإمام السيستاني في العراق الحداد لكلّ الشيعة في كل أماكن توزّعهم والتزام الحداد لمدّة أسبوع. المرجع الكبير السيد محمد سعيد الحكيم يجدد الدعوة للحداد سبعة أيام. استنكار عربي وإسلامي لجريمة الاعتداء على مرقد حفيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحذيرات من الفتنة الداخلية).

قفز كالملدوغ ومُؤشر الخطر في ضميره يهتزّ بعنف وصورة جعفر تقفز أمام عينيه. سارع بمهاتفته فلم يردّ. "فتنة... اللهم العن من أيقظها." حدّث نفسه وهو يلتقط مفتاح سيارته وينطلق خارجاً إلى سيهات.

حين بلغ مقبرة سيهات كانت جموع غفيرة ترتدي السواد تتجه للحسينية اللصيقة حتى تعذر عليه الدخول بسيارته فأوقفها ونزل.

سار مع الجموع المزدحمة يجرفه مدّ البشر باحثاً عن رفيقه حتى أوصله الموج المُتلاطم إلى داخل الحسينية التي قبعت في ركن منزو، وقد تغطت الجدران التي وقف أمامها الرادود بالسواد، وسُطر في أعلاها اسم النبي محمد، وآل البيت، مُحاطاً كل اسم بزخرفة إسلامية: الباقر، الحسين، فاطمة، محمد، علي، الحسن، السجاد، المهدي. وتوسّطت الجدار الأسود أسفل هذه الأسماء صورة مُتخيّلة كبيرة للإمام علي بن أبي طالب، وتوزعت عن يمينه وشماله بأقي أسماء آل البيت: الجواد، الكاظم، الزهراء، الرضا، الهادي، وقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: "حُسين مني وأنا من الحسين" مُطرّزة بخيوط مُذهبة.

وعلى دكّة ارتفعت عن الأرض وقف الرادود الذي تجمهر حوله

مئات البشر مردّدين هتافاته، بينما الرايات السوداء ملأت أفق الحسينية وتمايلت مع أنفاس المجاميع الثائرة. جالت عيناه في الموج الهادر بحثاً عن وجه جعفر حتى عثر عليه واقفاً في المقدمة.

ارتفع صوته منادياً وضاعت هتافاته. مدّ رقبته وعاود النداء بصوت مرتفع مرّات متتالية، فالتفت جعفر باحثاً عن مصدر النداء ولمح يد راشد مُلوحاً. تلاقت أعينهما:

– هذه فتنة "تنظيمات داخلية في الحكومة" لا تمت لا للسنّة ولا للشيعة بأيّ صلة، أرجوك لا تنجرف، لا يبتلعك التيار، اخرج من الجُرح الطائفي الموغل في المرار، اللهم العن من يفرق بين المسلمين ويعبث بدمائهم.

ضاع صوته في هتافات المجاميع فمد صراخه:

– اطلع نتحاور... يا جعفر لا تتعرقن أرجوك، نحن نقتل الأعداء بقتل الطائفية.

ظلّ جعفر مُحدقاً في ملامحه، تمتم بعبارات غير مسموعة، ثم استدار بلا اكتراث ليكمل الهتاف مع الرادود.

انغرزت سكين في قلبه. عبرت رائحة زمن أفل وأماكن مهجورة في روحه. ظلّ مُحدقاً في ظهره متأملاً ما يفعله، وانفلتت تنهيدة من قلبه وهو يستدير خارجاً.

عاد إلى غرفته يحتضنه مساء كئيب ووحشة هادرة. طفح إحساس الفقد الذي مَزّقه ذات عمر، كأنّ الزمن يعود إلى الوراء. كأن عبد الرحمن يموت مرة أخرى ليخلف غربة مُزمنة.

ومع إشراقة شمس جديدة، قطف تعب الروح مُيمّماً صوب

الشروق وارتدى ملابسة لبدء يوم جديد حين رنّ الهاتف المحمول. كان شخص من قسم التوظيف في شركة أرامكو يدعوه إلى مقابلة شخصية إذا اجتازها يتم تعيينه، أغلق الخطّ ولسانه يُثني بالحمد لله.

رن الموبايل مرة أخرى قاطعاً تباشير إشراقة لوَّنت جبينه. صوت بو جعفر الذي تمرّس بالرفعة انساب كموّال حزين. تحدّث ببحّة مخنوقة كطائر جريح، طالباً منه العون في أن يقف معه ضدّ اليأس في صدر ولده. سرد على مسامعه ما آل إليه وضعه، وأنه غير قادر على توديع الزهرة التي سقاها رحيق الحب وماء الطيبة فذبلت قبل أوانها.

زفر واستطرد بصوت مُكدَّر:

– اللهم العن الطائفية ومن يُحرض عليها، اللهم إننا عبدتك لا عبدة مذاهب، الآن، هو مُصِرّ على الرحيل. الحق به... قد ينصاع لك. وأغلق الخط.

لبث راشد صامتاً تتخاطفة أفكار شتى بينما استيقظ مارد الخوف داخله. آلمه الهدم الذي آل إليه بو جعفر، وهو من اعتاد ألا يُضرم نيراناً في قلبه إلا لاجتثاث اليباس وإحالته إلى خضرة، وها هو صوته يأتي يائساً مُتهدّماً حين فاجأه وحيده برغبته في الرحيل إلى إيران وترك الوطن.

لوهلة، بدا لراشد أنّ جعفر انتابته نوبة جنون واستسلم لأفكار عبثية، ثم قفز من نوبة ذهولة راكضاً إلى الخارج. احتضن مقعد السيارة التي انطلقت بأقصى سرعتها حتى غابت ملامح الأشياء حوله، يسابق الزمن لبلوغه قبل رحيله، يطوي الأرض وعمر مضى يختصر الزمن ويتألق:

(أقدامهما الطفلة تعبث في الشارع في مباراة مع أبناء الجيران، عبثهما بالبالونات الملوّنة، احتضان الكورنيش لساعات المذاكرة الطويلة أيام الثانوية، عناقهما الحار بعد تفوّقهما في الثانوية، نقاشاتهم الواعية الطويلة في الأزقه، في غرفهما، في وزارة الإعلام...)

حين وصل، كان باص النقل الجماعي قد ابتدأ بالتحرك جهة الحدود الأردنية. أبصر جعفر راشد وهو ينزل من سيارته راكضاً باحثاً عنه من خلال زجاج الباص وقد ابتدأ سيره ببطء. فتح النافذه وأخرج رأسه لتهطل كلماته بثقة هادرة:

فإن نَهزِمْ، فهزَّامون قُدماً ... وإنْ نُهزَم، فغير مُهزَّمينا

وما إن طبّنا جُبنٌ ولكن ... منايانا ودولةُ آخرينا

إذا ما الموت رُفِّعَ عن أناسٍ ... بكلكله، أناخَ بآخرينا

فقُل للشامتينَ بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

أبصره راشد بعد أن بلغته أبيات فروة بن مُسيك التي ردّدها الحُسين يوم عاشوراء قبل أن تجزّ رأسه اليد الغادرة. زاد من سرعته وهو يرتشف ريقه وضربات قلبه تتسارع، التقاه قرب النافذة والباص يواصل حركته التي تتزايد، ترجّاه في النزول:

– أرجوك عُد ولا تكن ظالماً، فأمور عديدة تفتّحت نوافذها الموصدة، وأمطرت صباحات جديدة ستُعشب معها الأراضي اليابسة. فقط اخرج من الدائرة الضيقة إلى الفضاء الفسيح، فضاء الله لا عبادة الأشخاص أو المذاهب... فضاء الإنسان والإنسانية. عُد فليس هذا هو الطريق إلى الغد الحُر ولا لكرامة الإنسان، بل هو طريق محفوف بالألغام، وكفانا ألغاماً ودماءً.

ضاعت كلماته وجعفر يرفع يده مودعاً:

– قد أعود حين تهبّ رياح التغيير، وإذا حَدث... وعدت... حينها قد لا أكون بمفردي وقد لا تكون... صديقي.

انكفأ جالساً على ركبتيه موقناً أنَّ مفاتيح الليل قد ضاعت. احتضنت كفّاه حفنات من تراب الوطن بحرارة دافقة. قبّلها، عقد أصابعه عليها بقوة ثم احتضنهما في صدره وعيناه تومضان بدموع عالقة ساهمة في الأفق.

تباعد الباص وغاب وجه جعفر، وبقي صوته مُسافراً عبر الفضاء:

– سُفن الحق قادمة... قادمة...

اهتزّت الأرض اهتزازات عنيفة لا يُسجّلها مقياس ريختر، وأنّت مكتنزة بحمم توشك على الانفجار.

ركض راشد نحو سيارته، التقط علم "لا إله إلا الله" الأخضر، قبّله بيقين عميق، ثم وضعه فوق رأسه، وركزه على مقدمة السيارة فرفرف متجهاً نحو السماء.

بقي صوت جعفر مُعلّقاً في الفضاء... وابتلعه الطريق البعيد.

تطاير عمر وغاب ألق.

مضى يستشرق غيباً قد لا يكون أيضاً بعيداً... تاركاً خلفه رمضاء وطن، استشعر أنّه لم يحتضنه و لم يُظلّه بمظلّته فأساء فهمه.

شُح الأيام البهيجة

صحا على يد تلكزه "استيقظ". فتح عينيه وجالت حدقتاه في ما حوله. كان صوت أُنثى تستعذب التجوال في أوردته. خفق قلبه اشتياقاً إليها، ورغبة في استعادة حضورها يملأ كيانه. نثر قليلاً من الماء على وجهه واندفع خارجاً.

ولعنت صداعها المستمرّ، وقد أضاعت رقم البوّابة التي نزلت عندها لشراء ملابس عمليّة. اتصلت بالسائق تُخبره بأنّها ستتّجه إلى أقرب بوابة تقف قربها وعليه أن يأتي إليها، وأغلقت الخطّ وهي تقترب من الباب الزجاجي للخروج، حتى إذا تجاوزته وباتت في الشارع انحرفت إلى زاوية ظليلة هي مظلّة لحارس الأمن الذي يبدو أنّه تأخر في الحضور.

لمحت طيفاً أغلقت أبواب مدائنها عليه، يهمّ بقطع الشارع بعد أن أوقف سيارته ثم انحرف إلى الزاوية ذاتها. تجمّدت في مكانها. حين لمحها تجمّد ثواني وتراجع إلى الخلف. هو الآخر قاده تفكيره للمُجمّع ذاته لشراء ملابس العمل الجديدة وقد تسلّم وظيفته الجديدة في أرامكو، هكذا قاده تفكيره... أو قدره.

رفع مقدمة حاجبه الأيمن وومضت عيناه ليزغرد مشروع ابتسامة على زوايا شفتيه كما زغرد على شفتيها. سار نحوها بخطوات متعثِّرة، و لم يتكلَّم. سافر داخلها دون اقتراب ماديّ، ففقدت اللغة وهجها.

ارتفع صدره وانخفض في تواترٍ مشحون وعيناه تسبحان في بحيرة تُشعّ بهجة. تلفّتا في الطريق، كلٌّ منهما يُحدّث نفسه بالاندفاع في حضن الآخر لكن يمنعه الخوف، والمارّة، والعقل، والالتزام، والموقف برمّته رغم قلة الحركة.

عبرت سيارة واختفت سريعاً. عامل آسيوي انفلت من إحدى الزوايا ثم دخل منعطفاً، راقبا خطواته حتى اختفى، فتساقط الطين، وتطاول ضوء يحنّ إلى وطنه. فتنة خفيّة اجتاحتها فاندفعت بحرارة وعجل إلى عالمها الذي تنتمي إليه، صدره الذي جمّدته مباغتة تصرّفها المتهور، ثم أوقفت اندفاعها حين لم تبقَ بينهما سوى مسافة الشَهقة... والنَفَس.

ابتلعت غصّتها وصوتها يتكسّر مشروخاً:

– أحتاج حضنك.

سافر في عينيها كما سافرت هي، برعشة في الروح وفرح مُحرّض، بينما الطريق صامت بلا مارّة للحظات، إجلالاً للحظة عناق روحيّ بين عاشقين صادقين. تعانقت أكفّهما المرتعدة بحرارة، احتضن كفّيها ولثم باطنهما وظاهرهما في خشوع كمحارب حطّ عناءه على تراب وطنه ساعة نصر.

احتضنت كفّه وعبرت بها تحت نقابها. لثمتهما برقّة ثمّ وضعتها على خدها وقبّلت باطنها ثم توقفت. شعر بحرارة أنفاسها على كفه

ودمعة ساخنة اندلقت على أصابعه.

كُلّ خليّة، كلّ ذرة، كل نبض في أوردته، يدفعه إلى الاندفاع لاحتضانها وشرب أنفاسها، نظراتهما معاً تفضح ما يعتمل في الروح من احتدام يقاومانه.

مسح بكفّيه على كتفيها، نافذة عينيهما تُلوح بالاندفاع وطفر دمع في حدقتيهما. بماء القلب سالت مفرداته محشوّة بالغيم، شاعراً بأنّ لا شيء يطفئ ظمأه سوى الوضوح:

– لهذا كنت أُصرّ دوماً على أن نبتعد... الحبّ فضيلة وحالة الطهرانية مع مشاعر بهذا القدر من الصدق والقوة تتلاشى ونعود إلى ضعفنا البشري. لن تُنقذنا سوى ليالٍ ودودة في بيت صغير، ليالٍ مُقمرة تجمعنا تحت سقف مُعشب شرعي.

كأنّ الكون بات ملكاً لهما. جزيرتهما النائية التي عثر كلّ منهما على ذاته على شواطئها، توقّف شعورهما بكلّ ما هو خارج اللحظة وخارج قفصهما الصدري، تلاشى كلّ شيء ولم يعودا يميّزان هل هما يدوران حول بعضهما بعضاً أم أنّ الأرض هي التي تلفّ بهما وهما يهمسان باستلاب بينما تضغط هي على كفّه. أحبك. أحبك.

سحبت كفّها، تباعدا، كلّ منهما مُلطّخ بالخجل والإحساس بارتكاب خطيئة رغم عدم حدوثها.

عبر سائقها مقترباً فازداد تباعدهما وكأنّهما غريبان لا يعرف أحدهما الآخر. قذفت نفسها في السيارة وعيناه تطاردها وعيناها تتبعه.

وقبل أن تُشارف سيارتها على الاختفاء عن نظره، جرى خلفها

وقد استحال الصباح إلى بنفسجي، وشُحّ الأيام البهيجة إلى سخاء عظيم. ركض بضع خطوات دون وعي، لمحته في التفاتة منها إلى الخلف، حتى إذا اختفت، قفز عن الأرض قفزة نزقه وتابع ركضه دون اتجاه، فاتحاً يديه في احتضان للكون وكأنّ قلبه لا يسعه على استيعاب كلّ هذا القدر من الفرح وهو يدور حول نفسه... يُثمله عبق اللحظة وأنفاس المكان الطازجة، فانفتق اشتياق مُلحّ واجتاحه الحنين من جديد.

الرؤيا

حين استرخى الضجيج واستكانت الطرقات... سجى الليل...

وامتدّت تضاريس المدرسة الثانوية التي درست فيها أمل في بدايات الصبا. أمل في المدرسة ذاتها يستعمرها عمرها الآني، تتحدّث أمام مسؤولة المقصف في العمر الذي قضى وحاضرها الشحيح يلاحقها. تسير بمريول الثانوية البُنّي اللون، في ساحة المدرسة حيث تصدح في الروح أغاني الزهو بالبدايات النابضة بالألق.

تفتح باب المدرسة الكبير وتخرج بدون عباءة ولا غطاء ولا حذاء، تُراود الحياة بمشروع حلم مُبهم. تسير في شارع ممتد خالٍ إلا من نثار أسئلة زرعتها في دربها، والكون تسوره صفرة ضاربة.

تلمح من بعيد تضاريس أبنية كالبقع الداكنة. تقترب والصورة تتلاحم خطوطها. يبرز منزلهم القديم فينطلق بياض يُغري بالأناشيد. تتجه نحوه... تقترب... يختفي المنزل ويتطاول جدار شديد العلو. تحاول قراءة أبجديات ما حولها فتتّسع دوائر بلا نهايات. ترفع رأسها جهة الجدار الشديد الارتفاع. تعجز عن بلوغه لعلوّه الشاهق حيث يقبع منزلها خلفه. تُبصر رجلاً طويلاً القامة عرفت جيرته في عمر

الصبا بالاستقامة اسمه صادق الوعد. يُحيّيها ابن الجيران المُلتزم بحرارة غريبة تشترك معه في نقائها. يرتفع بصرهما إلى الجدار الشاهق، يقترب معها من الجدار ثم يُشابك يديه لتصعد عليهما. تصعد على كتفه... تبلغ أعلى الجدار، تنظر نحو المنازل الصغيرة المتراصة خلفه حيث روعة التصميم ودقّته أشبه بقصور فينيسيا القديمة المبنيّة على الماء، لكن المساحات شديدة العتمة، طُمرت أشواق ساكنيها من أزمنة... فالفضاء مُظلم، ورغم جمال المنازل المتقاربة إلا أنّها تُثير الانقباض في الروح. تشعر بالجمال... كما تشعر بانقباض، وخوف، وانهمار عزف جنائزي.

تلتفت إلى صادق الوعد الذي يحملها وتقف على كتفه، فلا تجد له أثراً. تستند بمفرقيها على سطح الجدار مُجاهدة السقوط الفادح، والوصول إلى منزلها عبر المنازل المتراصة وقد باتت تجهل أيّها منزلها.

تقفز إلى الضفة الأخرى حيث عتمة المنازل المتراصة، لتتبدل ملامح المكان وتختفي المنازل فيبدو جسر علاه القِدم أشبه بجسر التنهدات في فينيسيا، تُسوره حديقة تحفل بالزهور البنفسجية والوردية الرائعة الفتنة، بيد أن الفضاء معتم... مُقبض... مطمور بذرّات خانقة، وأرواح تستشعر همهمتها ولا تُبصرها.

تفكر في المخرج إلى ضفّة المنازل التي اختفت وقد وارت رعبها في تحديد منفذ الخروج ليظل رمح: "أين المخرج؟" داوياً من قسماتها ونظراتها.

يبلغها فحيح ساخن الأنفاس، تلتفت بسرعة إلى الجهة اليسرى لتبصر ثعباناً شديد الضخامة في طول المكان الممتدّ وضخامة الجسر

يندفع نحوها. تقفز بقوة، لكنّ قفزتها لا توازي شيئاً أمام ضخامة الثعبان المتطرّف في قوّته. تعاود القفز هرباً منه في كلّ الاتجاهات ثم تأخذ في الطيران بعيداً عن الأرض، لكنّه أكثر قوّة وتمكّناً ويكاد يعتصرها. فجأة تلمح وهي في ارتفاعها الوطيء عن الأرض، باباً في بداية الجدار أشبه بالقُبة، مفتوحاً ومُعتماً، تتسرّب من ظلامه المراسلة أمل أم عبد العزيز تسير بثقة ودون خوف من الثعبان الضخم. تصرخ فيها أمل أن تبتعد عن طريقه لكنّ أم عبد العزيز تُكمل طريقها، ترشق الثعبان بنظرات ثقة أنّها لا تخافه وتعرف كيف تتعامل معه. يقترب بكلّ قوة من أم عبد العزيز وقبل أن تبادره ثقتها في الشموخ، يضربها ضربة قاضية تسقط معها جثة هامدة.

تصرخ أمل صرخة رُعب هادرة:

– ماتت أم عبد العزيز...! ماتت أم عبد العزيز...!!

تَخرس صرخاتها على ارتداد الثعبان نحوها، وهي تحاول أن تطير في علو وطيء. يكاد الثعبان يبلغها وقد أيقنت أنه بالغها لا محالة فتطلق صرخة هادرة، تنهض إثرها من سريرها فزعة.

ظلّت طوال اليوم شاردة في جثّة أم عبد العزيز. في ردّها أنها تعرف كيف تتعامل مع الثعبان. في ارتداده عليها. في ارتكازها للصعود على أكتاف صادق الوعد. انتابها الضيق من تداعي الرؤيا في داخلها. لازمها شعور البعثرة، حتى إذا أنهت حصصها، توجّهت إلى مُصلّى المدرسة طلباً للسكينة.

لمحتها نشمية أثناء عبورها. التقطت المظروف الفوّاح الرائحة واستأذنت في الذهاب إلى الحمام. ركضت نحو غرفة المدرّسات.

كانت خالية إلا من حقائب المعلمات. دسّت المظروف في حقيبة أمل، وسارعت بالعودة إلى فصلها.

حين عادت أمل من صلاتها مع اقتراب نهاية الحصة السادسة، لملمت أشياءها وارتدت عباءتها على عجل وهي تشعر باحتياج لرؤية والدتها.

لهنيهات غابت أمّ أمل في الفكر حين روت لها الرؤيا. راحت تسعيد تفاصيل الحُلم، ثم ردّت وقد اعترى ملامحها الكدر.

وماتت أم عبد العزيز اللي تعرف كيف تتعامل مع الثعبان!!؟ أيه. قلتي اسمها...؟ أمل. أي أمل...!!؟ بعدين صادق الوعد إيش اللي جابه، تعرفين أنه صار إمام مسجد؟!! إن شاالله خير... إن شاالله خير.

توسّدت أمل ركبة والدتَها كما لو أنها طفلة بينما عبقت رائحة الريحان من شعر والدتها الذي لمَّته على شكل كعكة ضامرة. مسحت على رأسها وهي تنشد بصوت شجيّ أغنية طالما ردّدتها على أسماعها في طفولتها كي تنام.

– أمي... عمرك حبيتي؟

تتنهد زمناً بريئاً غيبته عجلات الوقت الطاغية فوق كل صوت مهما ارتفع:

– ايبيه... كان "خبال" أكثر من كونه حبّاً. كنّا مخدوعين بأفلام الأبيض والأسود اللي تخدّر العقل وما تخلّيه يفكر غير في الحب، اللي ينولد حتى لو منديل "كلينكس" سقط من شنطة البطلة، وجاء واحد، أيّ واحد يشيله صارت قصة حُب، شفتي التفاهه؟! لا ودايم النهاية سعيدة، يموت أبو البطلة، أخوها، ضرب ومُضاربة، وكلّ الناس تموت

بس المهم في الآخر بوسة بين البطلين ينتهي فيها الفيلم.
تضحك من أعماق قلبها حتى يطفر الدمع من عينيها:
- لا والبطل يقتل أبو البطلة الغني لأنه مغرور بفلوسه وقاسي وما يعترف في حب بنته لشخص أقل من مستواهم، وتسامحه وتتزوجه، لا والا...
تنفجر ضاحكة:
- فجأة يصير عند البطلة مرض في القلب، ويشوفها أبوها وهي تطيح "قلبي قلبي" ويوافق على طول على الزواج.
شاركت أمل والدتها الضحك وصوتها ينتثر منتشياً في فضاء الغرفة:
- كله إلا "قلبي قلبي".
- يلعن أبو "الخرط"، عندنا مهو لو يجيها القلب، لو تموت ما يوافق ابوها.
تسافر حدقتا الأم في البعيد ثم تعود:
- إيييه، ضحك عليهم المخرج وضحكوا علينا وخربوا عقولنا الله يسامحهم. لا تصدقي أنّ الحياة حب بس، الحياة أوسع يا بنتي.
- إنتِ اللي تقولين هذا الكلام يمّه!؟ تحرضيني أكون شخصية مُنتجه!
- من تجربتي آمنت أن الرجل جزء من الحياة ومُش كل الحياة... الرجل يمكن يقدر يجتر الحياة مع زوجته من غير حب، لكن المرأة لما يموت الحب في قلبها، خلاص... تذبل وتشيخ حتى لو هي شابّة.
تتأمل أمل والدتها وملامحها تفيض بالبهاء والاعتزاز بها:

– تعرفين... لأنّ خلايا المرأة زادها الحب والمودّة ومتى غابا جفّت، تنشف عروقها ويغيب التورّد من ملامحها وتنطفئ فيبدو ذلك جليّاً لأيّ فطين و...

يقطع فضفضتهما بو منصور داخلاً، ملامحه تشي بحدّة موجعة. ما إن أبصر أمل حتى اقترب منها بخطوات عاصفة أشبه بـ "سونامي" لا تُبقي ولا تذر، فهذه هي المرة الأولى التي يراها فيها بعد تصريح أمها بشأن راشد غابت بعدها، والمرات القليلة التي قَدمت فيها لم يكن موجوداً وهي بدورها لم تحرص على ملاقاته. وبيده العريضة صفعها بكلّ قوة. نهضت أمها فزعة فصرخ:

– خلّك مكانك.

انتثر شعرها الذي رفعته "بيكلة" صغيرة على كتفيها، وسقط قرط أذنها من قوة الضربة، خفضت له جناح الذل من التوقير والطاعة، وأحنت رأسها صامتة. عاجلها بالكفّ الثانية بقوة أشد وهو يصرخ:

– يا بنت الكلب ما لقيتي غير عبد تتزوجينه؟

رفعت وجهها وقد اتسعت حدقتاها من صدمة العبارة التي سدّدها إلى قلبها. شعرت بالإهانة تغوص في أعماقها التي تريد الثأر لاحترام كرامة الإنسان. ردّت بقوة واندفاع وقد وقع الثقاب المتّقد على جريد النخل وهي تصكّ على أسنانها، بنظرة دامية كلبوة جريحة:

– إيه بأتزوج العبد... الحر أكثر منك.

كانت تدرك أنّها لن تقدم على أمر كهذا دون مباركة أهلها، لكن العبارة غاصت في مناطق مُحرم استباحتها في داخلها ولو من باب الآدمية، فانسكبت عبارتها المؤكدة وهي تتلقى صفعاته:

– حر أكثر منك... أكثر منك.

توالت صفعاته ثم أدخل يده في غابة شعرها، عقصه باستصغار دونية ثم شده بوحشية، وهي المرأة الناضجة، والأم، والمُعلمة.

سحبها من جلستها وهو يصفعها فتهوي صفعاته التي تداريها بيديها على قلبها. أمسك ملابسها حول المنطقة الحرام وشدها بعنف فسقطت وصارت أسفله، فأطلق سهمه الجارح ليُلطخ نقاءها بالسواد:

– اش بينك وبينه؟

انسابت دموعها ساخنة وقد اكتوت روحها بفحوى السؤال:

– والله ما بيني وبينه شيء!!!

صمّ أذنيه إلا عن المارد في عقله، توالت ضرباته وركله في كل الاتجاهات، فأوجعتها المهانة وانقلبت إلى ثوره استحالت معها إلى ثمرة جريحة. سحبت جسدها من تحت قدميه فانقلب جسده على إثر حركتها. تناولت عباءتها وحقيبتها مسرعة نحو الباب فسقط ظرف صغير دون أن تشعر من ارتباكة الموقف... بينما صوت والدها يتبعها مهدداً:

– إن شفته... ما يشيلونه من تحتي إلا جثّة.

أغلقت الباب بيدين مضطربة. أغلقت معه أبواب الأمل، ودفء الروح، والحُلم المُستحيل. أغلقت الصور النابضة بشراً، والأيام الحقيقية التي عاشتها بكلّ خلجاتها واحتُسبت في ميزان حياتها، لتُقبر مع صفعات والدها الذي سارع بالتقاط المظروف الذي سقط.

ارتدت عباءتها وهي تجري في الشارع وتدوس قدماها عباءتها من الاضطراب. دموعها تنهمر ويتعالى نشيجها وهي تلمح حمامة بيضاء

نفقت على الطريق، دهسها الزمن والمارة وخطت دماءها:

– اش بينك وبينه؟

اش بينك وبينه؟

اش بينك وبينه؟

تمر عليها السيارات فلا تراها. رؤوس الفضوليين وتعليقاتهم تبلغ أسماعها وترتد فلا تفقه شيئاً. يقف أمامها بعض سائقي الأجرة فلا تتوقف عن هرولتها... تركض ويستوطنها الضياع، كأنها هاربة من الكون كلّه... هاربة... دون اتجاه... تلف فيها الدنيا والشمس ترسل أشعتها الكاوية إلى رأسها، تتوقف...لا تعلم أين هي ولا في أيّ مدار ولا أين الطريق. تشعر بفقدان ذاكرة مؤقت... حين امتد الحزن المُسالم وارتجف الأمل. ليس سوى الشمس الحارقة والأسفلت الملتهب والأماني الخائبة وطنين الدماغ الذي لا يتوقف و:

– اش بينك وبينه... تحرق مجسّات الوعي وتتجمر الروح.

انتبهت، فأوقفت سيارة أجرة ، قذفت نفسها داخلها دون أن تتذكر وجهتها، وحين سألها السائق طلبت منه أن يسير قليلاً ثم تخبره. حاولت التركيز فقارّتها باتت مجهولة التضاريس. تُحاول استعادة خريطة سكنها... تتذكّر أنّ بجواره بنكاً... يطفو اسم البنك أفق الذاكرة فتخبر السائق، يسألها عن أيّ فرع للبنك؟ لا تتذكر أسماء المناطق، فتطلب منه أن يذكرها لها حتى قال:

– المباركية. تشعر بأنّها هي... هي...

تتّجه إلى المباركية... وتستعيد ذاتها شيئاً فشيئاً... تلمح اسم راشد يعلو جهاز الموبايل، تدرك أنّ كل شيء انتهى، تلاشى... ذاب كما

قلبها الذي تقيّأ غثيانه ووجعه، بينما اليمامات الحالمة غادرت حدقتيها دون عودة، غزى الفؤاد اليتم وانطفأ ألقه.

تتأمّل اسم راشد دون أن تردّ حتى يتوقّف الرنين. حتى راشد وللحظات... خُدشت فيها إنسانيتها ونقاؤها ودون ذنب ارتكبه بات غريباً عنها ولا تريد أن تسمع صوته. تريد أن تتوارى عنه لتداري سوءتها وعار امتهان الآدمية. لم تعد مُنتمية... روح مُستباحة... مقذوفة في العراء!

تتجمّد كل خلجة في روحها... تغدو قصيّة نائية حتى عنها. تيبس منها كلّ شيء حتى شفتاها اللتان بلّلتهما بخضاب لسانها... باتتا كعود تخشّب وانكسر.

تلمح اسم راشد يعلو شاشة الموبايل من جديد. تحتضن ركبتيها في صدرها، تنظر إلى البعيد والرّنين يخرق قلبها، تنتحب بوجع حتى انقطع الرنين. تُقبّل الشاشة مرّات عديدة ثم تحتضنه في صدرها وتبكي بمرارة... تتداخل الحقائق في وعيها:

حين خرج منصور على تقاليد العائلة وتزوّج أمريكية ثار الأب في البداية ثم عاد يسترضيه ويطلب صفحه ومنصور يتعزّز ويتشبث باختياره ويلتصق به تاركاً حتى الوطن، بينما من رغبت في الزواج به مُسلم ومن ذات البلاد تغدو المسألة بالنسبة إلى والدها التي هي من جانب آخر شأناً يخصّ القبيلة بكاملها لا شأناً شخصياً، مسألة حياة وموت... فضيحة وعار!

تعجّب من جانب آخر من عبث الأقدار، فمطلق يقتل عمّها حميدان بدافع الشعور بالأفضلية وقد عزّ عليه وكبر كيف يفقده

شخص بمستوى حميدان راحته ويقلق سكينته، وبالعصبية ذاتها يقف والدها متعنّتاً في شأن زواجها من راشد. مطلق يرى نفسه من منظور قَبَليّ أفضل من قبيلة حميدان، ووالدها يرى ذاته فوق مستوى قبيلة راشد أيضاً من المنظور ذاته... دائرة لا تتوقف عن الدوران ولا تكفّ عن سحق آدميتنا في دورانها الغبيّ.

سجدت... سحّت دموعها أمام وجه الله راجية رحمته. شعرت بنسائم لطيفة تُشرع نوافذ روحها، وحينها أدركت سرّ السجود... لم تدرك أنّ هناك تماهياً بين مغناطيسية الأرض واجتذاب الطاقة السلبية في جسد الإنسان لتحيلها إلى إيجابية وسكينة عند السجود... لكنّها وعت مقدار السكينة التي تعمر قلبها بعده، ولذّ لها مكاشفة الرب لتفريغ الشحنات السالبة المتناسلة في شغاف القلب... وترديد دعائها الذي يشعّ في جنبات الروح ويصّعد لما حولها:

اللهم إني أسألك الأنس في قربك، يا جارَ المُستجيرين يا أمان الخائفين يا صاحب كلّ غريب يا مؤنس كلّ وحيد، يا ملجأ كلّ طريد، يا عصمة الخائف المُستجير، يا عُدّتي في شدّتي يا مؤنسي في وحدتي يا كهفي حين تُعييني المذاهبُ وتُسلِّمني الأقاربُ وَيَخذُلُني كل صاحب.

في حين ظلّ بو منصور مُتخشّباً بالريبة الدامغة، وماء الحياة غادر أوردته وهو يُقلّب الظرف الذي سقط من حقيبتها. مرّت عيناه على الأسطر المعطّرة المكتوبة بالدم:

علّمتني كيف أغزل أحلامي وأهرب بعيداً عن عوالمي بجناحين خفيفين، ثم نفيتني خارج الكون وطعنتني في مقتل حين أشرعت نوافذ قلبك لسواي، فحين فاض غضبك ساعة فاتحتك بموضوع

الزواج أشعرتني ردّة فعلك بأنني لا أعنيك، ومع هذا لم أقوَ على البعاد. وها أنا أخطّ لك أسطري بدمي ودموعي، أرجوكِ أغفري لي الخطأ وتجاوزي، أقسم لن أكرر ما فعلت، فقط ابقي معي بأيّ شكل ترغبين، ستكون هجدة قرب قدميك لن تشعري معها حتى بتتابع أنفاسي، دعينا نربّي نبتنا بحبّ ولا تقتليه وهو لا يزال يانعاً في رحمه، دعيه يتنفّس الحياة بنا.

بتُّ أتنفس ذكرياتي معك وأحيا بها، فمتى تصفحين وتسمحين لي بلُقياك من جديد وقد أودعتك قلبي الصغيرَ. خبّئيني في أحضانك الدافئة مرة أخرى، أرجوك... أعيديني إلى أحضانك تعود لي الحياة...

طوى بو منصور الرسالة الفوّاحة بعنف دون أن يُتمّها أو حتى يلتفت إلى التوقيع، ثم دسّها في جيبه، وهو يعضّ على شفته وكأنما طُعن في رجولته وانتُهك بياض عرضه.

تمّعَرت ملامحه وارتعشت أوردته وكأنها توشك على الانفلات من مخابئها. بات مترعاً بالحنق والثورة الهادرة، يصّاعد زفر أنفاسه وقد ضمرت عواطفه في سنين الجدب فنسيها. فورانه يتقافز شرره من عينيه المُحمرّة كاشتعالات عيون الجنّ وأنفه يرسل لهب أنفاسه كفوهات أنف تنّين ثائر، وقد مدّ قذارة فكره كما مدّ يده إلى دولاب ملابسه وفي خياله ينتوي التوجه إلى ابنته في بيتها، لولا رنين جرس الباب الذي انطلق في الوقت ذاته. التقط نصل نواياه من بين الرفوف واتجه لإخماد الرنين والأفكار تتقاذفه.

حيٌّ على الظلام

وارتفع سقف الظلام.

فما كادت أمل تُلقي عباءتها عائدة من منزل أهلها، متوسّدة سجّادتها في خشوع لله بثّه وجعها وقد غادرها البلل، وامتلأت روحها برائحة عشب مُحترقَ. جنحت إلى سكينة تحظى خلالها بنوم هجرها سُكّره، حين تناءت الطفولة، وتسرَّبت من شقوق العمر، فباتت تنام... ولا تنام.

منحها الموبايل ترنيمة رسالة قادمة بينما اتّقد جوف الشمس وتوهّجت حمرتها استعداداً للرحيل. سارعت بفتح الرسالة حين لمحت اسم راشد:

– أنا في طريقي الآن إلى منزل أهلك ومواجهة الأمر المؤجل، رايح أخطب وليفعل الله أمراً كان مقدوراً.

تضخّم قلبها من الفزع، بشعور مُنذر في اللاوعي. بادرت إلى الاتصال به لمنعه، قرأ بعينيه وضميره رقمها كما قرأ هدفها، هو يدرك أنّها تحاول ثنيه ومماطلة العمر، ينقطع الرنين، تعاود الاتصال مرة أخرى ويعاود إصراره على التصرف برجولة كما يراها.

ضاقت الدنيا في عينيها، الاختناق يملأ صدرها والبحث عن مخرج يصبح كالولوج في ثقب إبرة. تُعاود الاتصال فيُخرس إصرارها بإعطائها إشارة مشغول.

تتجه إلى غرفتها بسرعة، تضع عباءتها بعجل على جسدها وتخرج حيث يقف سائقها غير بعيد مع بعض أقرانه. خوف... رُعب... إحساس ضاج بمصيبة قادمة لا تدرك كيف توقف زحفها فتجهش في البكاء.

يجتر وعيها صوتاً أضاعته:

– والحياة حُلم... حُلممممم... مممم

دون مُقدّمات ترتسم في حدقتيها صورة أمها يتردّد صوتها في الفضاء:

– هذه أمور لم تتغير... ولن تتغير، إلى الآن وإلى بُكرة وإلى مئة سنة. أنتِ أكيد صار لعقلك شيء، ما انتِ صاحيه.

صوت والدها المحتقن غضباً يزأر في وعيها:

– اش بينك وبينه؟ ما لقيتي غير عبد تتزوجينه؟ اش بينك وبينه؟ اش بينك وبينه؟

يعود صوت أمها:

– هذه أمور لم تتغير... ولن تتغير، إلى الآن وإلى بُكرة وإلى مئة سنة.

– وإلى مئة سنة.

– وإلى مئة سنة.

– وإلى مئة سنة.

تفتح الباب لاهثة وهي ترفع نقابها بحثاً عن هواء تتنفسه. يبلغها زعيق والدها يملأ الهواء، فمجلس الرجال بمحاذاة الباب و لم يمضِ على دخول راشد سوى ثوانٍ حتى لم يتسنّ له الجلوس.

وقفت متيبّسة تُنصت إلى زعيق والدها:

– راشد الريّس! وإذا كنت ولد الريّس... والتّبن والله، مسوي روحك شهم... رجّال... جيت تصلّح غلطتك.

لمحها والدها وهو يقف أمام الباب داخل مجلس الرجال. قرأ الجزع في ملامحها فثارت براكين غضبه وأوغل في ثورة عمياء، بفكر أُطفئت فوانيسه ونوايا مُتفحّمة:

– متّفقة معاه يا "النّعال" يا سواد وجهي... أوريكِ فيه.

يصق عليها ويدفعها بقوَة. تركض خلفه دون أن تنتبه أنها لا تضع نقابها على وجهها ليقرأ راشد تقاطيعها للمرة الأولى وتقرأ تقاطيعه المُتعبة كما لم ترها من قبل. يدخل والدها على راشد وهو يصرخ:

– أنت يا عبد.

تخرج صرخاتها عبر حشرجة بكائها الذبيح ويداها ترتعدان من الهلع وفداحة الموقف الذي تستشعر أبعاده. ينكسر صوتها مجروحاً ضارعاً وهي تتّكئ على خزيها الإنساني لاثمة يدي والدها تُقبّلها في كل الاتجاهات:

– يبه الله يخليك... الله يخليك لا تقول له كذا... أرجوك... أرجو...

يتقطع صوتها وتتوه العبارات حين فاض ماء مالح شديد السخونة على قسماتها لما يسمعه راشد فيكتوي قلبها وجعاً عليه وخزياً منه.

تتمنى لو تحدث معجزة توقظها على كون ما يحدث حلماً وليس حقيقة... ونسيت... أن الحياة ذاتها أكبر حلم نحن وقوده ورماده.

بعتب حزين تتساقط كلماتها وهي تتناشج:

– ليه يا راشد؟ ليه أقدمت على هالخطوة من غير ما تقول لي؟ ليه ليه؟

– حسبت أنّ العمر قصير، خشيت أن يضيع منّا، أن يتبدّد في الانتظار والتأجيل.

– كُنت أؤجل العتمة، وها أنتَ تعرفها.

يهزّ والدها رأسه بتهكّم ومعانٍ فائضة القبح:

– الله الله، العصافير تتناجى قدّامي! غَرّد يا غُراب... غرّد يا أسود.

يُلملم راشد صدمته بثبات ودهشة صاعقة والعقل قاصر عن استيعاب الحدث. يُمسك ابنته من شعرها حتى يكاد ينتزعه من فروته وهي تجاهد لنزع قبحه الداخلي الذي التصق بصدرها كسمكة اللخمة اللزجة:

– لاحقتني تُدافعين عنه ليس على وجهك شيء يا خراء يا بنت الكلب.

ينهال عليها ضرباً ورفساً وتزداد ركلاته على المنطقة الحرام، فيركض راشد نحوهما حين أوجس في نفسه خيفة، محاولاً تهدئة الموقف وقد قفزت دموعه إلى أحداقه رغماً عن إرادته وعجز عن خنقها.

تناثرت كلماته خجلة، وهو يَجز عليها كأنه يقرض زجاجاً تهشّم بين فكيه فابتلع دمه، ولاح شتاء:

– أنا ما أبغى أغلط فيك... أنت في مقام والدي... خلاص أنا خارج.

ليس سوى الغضب... الجهل، يقذف بها أبوها بكلّ قوة وتمتدّ يده على راشد ليتعاركا عراكا شرساً:

– بتتزوجينه! بتحملين منه!! بتدخلين فينا عرق عبيد يا بنت الكلب، بنت الأصول ما تسويها!؟

بقهر وغضب ينزّ دماً يتلاشى صوتها محروقاً يجاور قلّة حيلتها:

– اطّمئن، لن يتلوث دمك الطاهر، سيظل أبيضا... بيور pure لا توجد به نقطة سواد تُطهّره من ظلامه... سامحني الله يخليك، ظننتنا بشراً وأحراراً، لم أكن أظنّ أنّنا لا نزال في عهد العبودية!!

"حيّ على الظلام" تفترش صدر بو منصور بحمم غلٍ جارف ويده تمتدّ إلى جيبه. يُخرج الرسالة المُعطّرة ليقذفها في وجه راشد، الذي تبلغه رائحة العطر الفواحة دون أن يفهم سبب تصرف كهذا في لحظة كهذه، وبارتباكة الموقف يفتحها بيد مهزوزة يقرأ أوّل كلمتين ثم يقذف بها وهو يلمح يد بو منصور تضغط على نحر أمل حتى تكاد تكسر ترقوتها وشهقاتها تتعالى محاولة التفلت. يقذف بها بكلّ قوة لتسقط على الأرض، فتتّكئ على جراح الروح محاولة النهوض.

تعود خطوات بو منصور إلى الوراء، يُخرج من جيبه مسدّساً يوجهه نحوها... يسيل ظلام دام، وتستفيق جاهلية.

توقف الزمن... وصوته يهدر للعارفين:

والحياة حُلم... حُلممم... مممم

تعبر النوارس مهاجرة.

«تطوي السيارة الطريق نحو ساحة القصاص فينظر إلى الغيم في كبد سماء تخاتله الشمس، وتنساب في روحه رائحة رغيف بالصعتر كان يشتمُّها في صباحات الطفولة المندثرة من مخبز لبناني قرب بيتهم القديم. تملأ رائحة خبز الصعتر الساخن ومذاقه صدره. يشتهيه بشغف. تنحدر دموعه وهو يشعر أن الوقت انتهى على ارتكاب متعة كهذه، وأن لا حقيقة أكبر من اللحظة الآنية التي تغوص بأسياخها في دماء زمنه. يبتلع ريقه ويغوص في الزرقة الغائمة كما قلبه وقد تناءت أسراب العصافير الحانية عن أفقه. يراوده الزمن المُشتهى، فتهب رائحة زيت أمه وقد أغرقت فيه كريات «اللقيمات والسمبوسة» قبل لحظات من مدفع الإفطار في رمضان. رائحة اللقيمات والسمبوسة تملأ روحه. لكن الوقت أزف، وما عاد هناك متّسع لتعاطي متعة بريئة كهذه وقد حانت ساعة المغيب المرتقبة، تعلو ملامحه امتعاضة جريحة تشبه شيئاً ما في داخله.»

سلام عبد العزيز كاتبة وصحفية سعودية ومشرفة في الإدارة العامة للتربية والتعليم في السعودية.

Bibliotheca Alexandrina
12213380

ISBN 978-1-85516-338-6
9 781855 163386 >

DAR AL SAQI
دار الساقي